الإسكندرية عبر العصور
في
ذاكرة المجلة

(المجلد الأول)

مجلة كلية الآداب

مجلة • فصلية • علمية • محكمة

الإسكندرية عبر العصور

في

ذاكرة المجلة



فهرست

- تقديم الأستاذ الدكتور محمد نصر الدين دمير رئيس جامعة الإسكندرية — 1
- تقديم الأستاذ الدكتور فتحى عبد العزيز أبو راضى عميد كلية الآداب — 5
- تقديم الأستاذ الدكتور ماهر عبد القادر محمد على وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث رئيس تحرير المجلة — 9

1 ـ الإسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة — 33

2 ـ الإسكندرية في عصر البطالمة : بعض مظاهر الحضارة بها — 101

3 ـ كليومينيس وسياسته المالية فى مصر فى عهد الإسكندر الأكبر — 125

4 ـ حمامات الإسكندرية الرومانية — 149

5 ـ فن الشعر لهوراتيوس — 173

6 ـ استرابون يتحدث عن حملة ايليوس جاللوس على بلاد العرب — 237

7 ـ المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية فى عهد البطالمة — 267



كلمة

الأستاذ الدكتور

محمد نصر الدين دمير

رئيس جامعة الإسكندرية



الإسكندرية هذه المدينة العريقة الجميلة ، تلبس الآن أحلى ما لديها ، وتستعيد ماضياً قديماً كانت فيه عاصمة الثقافة والتمدين فى كل العالم القديم ، والإسكندرية المدينة التى نحبها ، ونشعر ونحن سائرون فى شوارعها ودورها بأصداء هذا الماضى العريق الذى انتج للعالم مزيجاً فكرياً مدهشاً من فلسفة اليونان وروحانية الشرق ، والإسكندرية المدينة التى عاش فيها شخصيات عظيمة : الإسكندر العظيم الذى حملت المدينة اسمه ، وسوتر المنقذ الذى وضع أساس هذه المدينة ، وأفلوطين التلميذ النجيب لفلاسفة اليونان الكبار ، وكليوباترا التى ما تزال حديث الناس فى الشرق والغرب حتى اليوم وغير هؤلاء من الشخصيات التى أعطت للمدينة طابعها ، وجعلتها تحتل المكانة اللائقة بها فى العالم القديم ، الإسكندرية التى نفضت الآن عن نفسها غبار النسيان استعادت جانباً كبيراً من رونقها القديم ، واستعادت معه لقبها الذى لازمها فترة طويلة : عروس البحر المتوسط .

والإسكندرية التى تفخر الآن وتسعد بهذا الصرح الثقافى العملاق مكتبة الإسكندرية ، تحاول من خلالها استعادة دور قديم للمكتبة القديمة كانت فيه أهم مكتبة فى العالم القديم ، وأهم جامعة فى الوقت نفسه ، مكتبة الإسكندرية الجديدة التى أنشئت فى مكان أقرب ما يكون لموقعها القديم ستكون المكان الذى تتواصل فيه الثقافات وتتحاور فيه الحضارات ، وستكون بوتقة تنصهر فيها الأفكار وتمتزج لتخرج لنا رؤى واستشرافات للمستقبل تنقل مجتمعنا نقلة نوعية وتجعله يحتل المكانة اللائقة به كمهد لحضارات العالم . إن المكتبة حدث حضارى شديد الأهمية للمجتمع السكندرى ولمصر كلها ، لأنها

إحدى النوافذ المهمة التى سيطل منها المثقفون ـ على اختلاف اتجاهاتهم ـ على الأفكار التى ينتجها الآخرون .

لا شك أن كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية تؤدى دوراً شديد الأهمية أيضاً للمجتمع السكندرى ، فهى ـ بوصفها كلية تعنى بالإنسانيات ـ مسئولة عن فهم الركائز التى تتكون منها الشخصية المصرية فى الزمان أو المكان ، فى العقل أو الأحساس أو الذوق أو الكلام ، وهى بهذا التوصيف تعد فى طليعة كليات الجامعة أهمية . وقد أنتج الأساتذة الذين أنتسبوا لهذه الكلية العريقة منذ إنشائها عدداً وافراً من الدراسات الرائدة التى فتحت مجالات جديدة فى المعارف الإنسانية ، واستفاد من هذه الدراسات كل المجتمع المصرى ، وليست الإسكندرية وحدها ، وكتب هؤلاء الأساتذة دراسات عن الإسكندرية ، تناولوها منذ ما قبل إنشائها وحتى العصر الحديث ، ونشروا هذه الدراسات فى كتب كثيرة تحمل أسماءهم ، كما نشروها فى دوريات علمية ، منها مجلة كلية الآداب التى اهتمت بالبحوث التى تكتب عن الإسكندرية .

ومنذ صدور العدد الأول للمجلة ، فإن قليلاً من أعدادها خلا من دراسة كتبت عن الإسكندرية فى أى جانب من الجوانب . ولقد تجمع من هذه الدراسات عدد كبير رأت رئاسة تحرير المجلة أنه يصلح ـ وهو فعلاً كذلك ـ فى أعداد تذكارية مستقلة مواكباً لافتتاح مكتبة الإسكندرية ، ومشاركة فى هذا الحدث الثقافى الهام . وكل الدراسات الموجودة فى هذه الأعداد مهمة ، وقد كتبها أساتذة كبار متخصصون فى كل ما يخص الإسكندرية ، وكتبوها بأكثر من لغة : العربية فى المقام الأول والإنجليزية والفرنسية ، وقد رأت رئاسة

تحرير المجلة أن تجمع كل هذا ، وتنشره فى أعداد خمسة ، ثلاثة منها للدراسات المكتوبة بالعربية واثنان للمكتوب باللغات الأخرى ، وهو جهد مشكور لهيئة تحرير المجلة .

استاذ دكتور
محمد نصر الدين دمير
رئيس جامعة الإسكندرية

كلمة

الأستاذ الدكتور

فتحى عبد العزيز أبو راضى

عميد كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية



تعيش الإسكندرية الآن مرحلة مهمة فى تاريخها العريق . مرحلة تستعيد فيها ماضياً زاهياً وألقا كانت فيه درة العالم القديم ، إليها يأتى العلماء والفلاسفة ومنها تخرج الأفكار الجديدة التى تؤثر حتى فى الحضارات التى سبقتها فى الساحل الشمالى لحوض البحر المتوسط ، كانت الإسكندرية فى تلك الفترة مركزاً للعلم والعلماء ، وفى جامعتها القديمة دارت مناقشات وألفت كتب . كانت هناك حيوية ثقافية نجد أصداءها فى الكتب القديمة التى ألفت عن الإسكندرية ، حيوية لاحظها العرب أيضاً حين فتحوا مصر ، واستقر بعضهم فى الإسكندرية ، فأصبحت الإسكندرية مكاناً يحط فيه كثير من العلماء يؤلفون كتبهم ، ويستقرون بها ويقيمون فيها .

لقد عادت الإسكندرية إلى الواجهة الثقافية بقوة مرتين : المرة الأولى حين أنشئت جامعتها فى بداية الأربعينات من القرن العشرين وكان إنشاؤها حدثاً مهماً ، لأنها ساعدت على تهيئة تربة علمية ملائمة نبت فيها كثير من الأسماء التى تفخر بها مصر كلها . والمرة الثانية حين أعيد إنشاء مكتبة الإسكندرية لتواصل رسالة كانت قد بدأتها المكتبة الأولى التى كانت أهم مكتبة فى العالم القديم .

وقد فكرنا فى كلية الآداب أن نحتفل بافتتاح مكتبة الإسكندرية ، وأن نشارك فى هذا الاحتفال مشاركة علمية فاعلة ، وكان اقتراحاً من أ . د ماهر عبد القادر أن نجمع البحوث التى كتبت عن الإسكندرية فى مجلة كلية الآداب فى عدد تذكارى يخرج مواكباً لافتتاح المكتبة ، وهو اقتراح وجد صداه الإيجابى لدى عمادة الكلية ، وحين بدأ العمل فى إصدار هذا العدد التذكارى ، اكتشف أن الباحثين فى كلية الآداب ، وفى بعض الجامعات بمصر وخارجها ، اهتموا اهتماماً كبيراً بالإسكندرية ، والنتيجة أن ما تجمع من بحوث فاق ما

توقعناه ، وبخاصة أنها بحوث غطت كثيراً من جوانب الحياة فى الإسكندرية ، ماضيها وحاضرها ، بحوث عن الكيفية التى أنشئت بها مدينة الإسكندرية ، وعن الإسكندر مؤسسها وعن البطالمة ، وعن الحركة الأدبية فى عصرهم ، وبحوث عن الإسكندرية الإسلامية بعلاقاتها مع الحجازيين والمغاربة ، والإسكندرية فى أثناء الحروب الصليبية ، والإسكندرية فى حركتها الأدبية الحديثة ، وغيرها من البحوث التى يصعب أن نأخذ واحداً منها ونترك آخر لا يقل أهمية . لقد كانت النية فى بادئ الأمر أن تصدر ثمانية أعداد خمسة منها للبحوث العربية ، وثلاثة للبحوث المكتوبة باللغتين الإنجليزية والفرنسية ثم استقر الأمر أخير على خمسة أعداد ، ثلاثة للبحوث العربية ، واثنين للغات الأخرى مع الاحتفاظ بكل ما كتب عن الإسكندرية فى مجلة كلية الآداب .

ونحن نأمل أن تساعد هذه البحوث على تسهيل مهمة الباحثين الذين يرهقهم البحث عن الأعداد القديمة من المجلة ، وكثيراً ما لا يستطيعون العثور عليها . نقدم لهم هذه البحوث الجادة التى تلقى أضواء ربما تكون خافية على بعض المتخصصين ، وكثير من غير المتخصصين ، أضواء تذكرنا دائماً بأن الإسكندرية ذات تراث عريق ، وذات إسهام لا يمكن إنكاره فى مسيرة الحضارة الإنسانية كما تضع أمام أعيننا أن بجامعة الإسكندرية ، وبكلية الآداب مدرسة علمية عريقة وأصيلة .

وفقنا الله إلى ما فيه خير مصر وتقدمها ...

أستاذ دكتور

فتحى عبد العزيز أبو راضى

عميد الكلية

تقديم

بقلم ••

رئيس التحرير



الإسكندرية عاصمة العواصم الثقافية فى العالم منذ تأسيسها على أيدى الإسكندر الأكبر ثم البطالمة من بعده . وها هى الإسكندرية الآن تستعيد مكانتها الثقافية بين مدن العالم المتحضر ، بعد أن ظهرت مكتبتها التى تألقت فى العالم القديم إلى الوجود مرة ثانية ، وبدأ العالم الحديث يزدان بها .

وقد كانت مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية نافذة ثقافية مهمة نطل منها جميعاً على العالم . وهذه المجلة وهى تمارس دورها اليوم بفاعلية شديدة ، آثرت أن تقدم باكورة أعمالها فى هذه المجلدات التى تحتوى على مجموعة من البحوث الرائدة لأساتذة وعلماء أفاضل أثروا الحياة الثقافية فى مصر والإسكندرية على إمتداد أكثر من نصف قرن .

أما المجلد الأول فنجد فيه مجموعة من البحوث الرائدة . نبدأ ببحث ركز فيه الأستاذ زكى على فى بحوثه على بعض الجوانب المهمة فى تاريخ الإسكندرية الحضارى منذ عصر البطالمة . وفى هذا الصدد دون بحثه المهم بعنوان « الإسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة » . وفى هذا البحث نجده يبدأ ببيان أن الإسكندرية تعد من أهم المدن التى أنشأها الإسكندر الأكبر ، ثم يشرع فى بيان تفاصيل تأسيسها ، عارضاً لوصف استرابون لموقع الإسكندرية الاستراتيجى ، وكيف اختار الإسكندر هذا الموقع الفريد الذى تشابه مع موقع مدينة صور ، حيث كان ينوى أن تمثل الإسكندرية نفس الدور الذى مثلته صور من الناحية الحربية .

وبعد ذلك ينتقل الدكتور زكى على إلى بيان وصف الإسكندرية ، ثم يعرض لتخطيط مدينة الإسكندرية فى عهد بطليموس الأول ، ثم سكان الإسكندرية ، حيث ظهر منذ نشأتها أنها ستكون كالبوتقة

تلقى فيها عناصر مختلفة من شعوب الشرق والغرب ، وبلاد الإغريق ومصر وآسيا ، وممالك لم تعرف من قبل ، وأنها ستقوم بنصيبها فى بناء حضارة جديدة تكون مزيجاً من ثقافات وحضارات شعوب مختلفة وقد أوجد فيها اليونان فى أول القرن الثالث ق . م كل مظاهر المدينة اليونانية ومميزاتها ، ولذلك هرعوا إليها . كما كان يوجد بالمدينة منذ تأسيسها جالية من اليهود زادت أعدادهم مع توالى الزمن حتى أصبحوا كثرة لها منزلتها وأهميتها .

أما عن دستور المدينة ، فيذكر أنه ليست لدينا معلومات وثيقة ، وبأن التفاصيل المتعلقة بكبار الموظفين بها واختصاصاتهم هى لسوء الحظ غير ميسورة ، لذلك عَمد إلى إعمال الحدس والتخمين كيما يتصور ما كانت عليه الحال إذ ذاك .

وفى المقالة الثانية بعنوان « الإسكندرية فى عصر البطالمة : بعض مظاهر الحضارة بها » ، يتابع الأستاذ زكى على حديثه حيث عرض للقوانين المرعية بالإسكندرية فى القرن الثالث ق . م ، ومنها الحقوق القانونية لبعض طبقات السكان فى الإسكندرية والتى تنص على أنه « لا يجوز لأحد أن يقيم الدعوى على أحد آخر ممن أنفذهم الملك فى خدمته ، لاعلى أشخاصهم ولا على ضامنيهم ، كما لا يحق لمن يوكل إليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقى القبض على هؤلاء .. إلى غير ذلك من القوانين ، وعقوبات التعدى عليها .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى بيان أهم معالم الإسكندرية فى هذا العصر ، ومنها المنارة المشهورة التى بدت للغادى والرائح فى أبهى حلة وكانت أول الأبنية العامة التى اقيمت من هذا النوع حتى غدت إحدى عجائب الدنيا . ثم ينتقل المؤلف إلى بيان كيف أن الإسكندرية كانت مركزاً للثقافة بفضل الأكاديمية التى كانت عبارة عن جامعة

كبرى أو على الأقل محفلاً جامعياً أشبه بإحدى كليات جامعتى اكسفورد وكيمبردج فى نظمها وتكوينها ، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها ، وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الإنتاج العلمى والفكرى ، بل وتمنحهم مرتبات من خزانتها الملكية فى سخاء .

وينهى المؤلف بحثه ببيان حال الإسكندرية فى أواخر عهد البطالمة ، فيقرر أنها شهدت طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثاً عظيمة تركزت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بجل عنايتهم ، فكان حظها من النجاح وافراً وتقدمها سريعاً ، وهو يرجو أن تكشف أعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزهو بها على غيرها من مدن مصر القديمة ، كما يرجو أن تستعيد سيرتها الأولى .

وفى مقالة « كليومينيس وسياسته المالية فى مصر فى عهد الإسكندر الأكبر » يقدم لنا الدكتور مصطفى العبادى تحليلاً رائعاً للسياسة الاقتصادية التى أرساها الإسكندر الأكبر فى مصر حين جاء إليها فاتحاً ، وأثر هذا فى نهضتها الاقتصادية فى أوائل عهد البطالمة .

يبدأ المؤلف بالإشارة إلى أن عصر الإسكندر يعتبر من أهم فترات التحول والانتقال فى التاريخ العام ، ذلك أن عالماً جديداً فى سياسته واقتصاده واجتماعه كان على وشك أن يولد . لهذا كانت دراسة الرجال الذين اعتمد الإسكندر عليهم والذين شغلوا مناصب أساسية فى حكمة بالغة الأهمية لفهم ذلك العصر والتطورات التى حدثت فيما بعد .

ولقد كان كليومينيس أحد أولئك الرجال البارزين ، إذ تركه الإسكندر للإشراف على مالية مصر ، فأصبح سيد الموقف بها والمتصرف الأول فى شئونها طيلة حياة الإسكندر .

وقد أجاد المؤلف فى تصوير منهج وأسلوب كليومينيس ، وكيف أن جميع أعماله كانت تهدف إلى غاية واحدة وهى صالح الخزانة . وهو فى ذلك لم يقصر نشاطه على القيام بأعمال أمين الخزانة ، ولكن دبر أمر خزانة الدولة على نحو ما يدبر التاجر حسابه الخاص . ولذلك فإن أعمال كليومينيس تعتبر تجربة لها أهميتها بالنسبة لدارسى تاريخ الاقتصاد والمال .

ومما يؤكد هذه الفكرة هو ما ترويه الأخبار أن بطلميوس الأول سوتر الذى تولى حكم مصر بعد وفاة الإسكندر تسلم خزانة الدولة من كليومينيس وبها 8000 تالنتوت ، وهو مبلغ ضخم يثبت أن أرباح كليومينيس كانت تذهب إلى خزانة الدولة . وعلى ذلك فإن ما قام به كليومينيس يعتبر أكبر خدمة قدمت للبطالمة بالذات ، فبالإضافة إلى خزانة غنية ، أورثهم تجارة خارجية على أسس منظمة مكنتهم من انتهاج سياسة مماثلة زمن البطالمة الأول حين كانت تجارة القمح الخارجية هى من أهم عمد سياستهم الاقتصادية .

ويتناول البحث الرابع الذى يقدمه الدكتور الفخرانى مسألة مهمة من المسائل المتعلقة بالإسكندرية كمدينة وهى « حمامات الإسكندرية الرومانية »حيث يشير إلى أن حمامات الإسكندرية الرومانية لم تنل أى قدر يذكر من اهتمام الباحثين ، وتكاد تخلو منها الكتب التى تتناول الحديث عن الإسكندرية . ولذا وجدنا الدكتور الفخرانى يبدأ دراسته بالحديث عن الحمامات فى روما ، ويصفها بصورة دقيقة مدعماً اياها بالصور .

ويقدم الدكتور الفخرانى نموذجاً لحمامات الإسكندرية وهو حمام كوم الدكة الذى يعد أصغر حجماً من الحمامات الرومانية وأقل منها زخرفة . ويشير أيضاً إلى أن هذا الحمام قد تهدمت أكثر أجزائه

ولم يبقى منه إلا القليل . ويشير الدكتور الفخرانى إلى بعض الحمامات الأخرى التى وجدت فى الإسكندرية مثل حمام أبى صير وحمام أبى قير ، على سبيل المقارنة مع حمام كوم الدكة .

والملاحظ أن مقالة الدكتور الفخرانى ، على الرغم من أنه قد مضى عليها أربعون عاماً ، إلا إنها ما تزال تشكل قيمة علمية رفيعة المستوى من حيث التحليل والمقارنات الداخلية مع الحمامات الرومانية .

وأما الدكتورة فاطمة سالم فقد قدمت لنا فى مقالتها الأدبية الرائعة عن « فن الشعر لهوراتيوس » دراسة تحليلية نقدية دقيقة لروح الأدب فى عصر البطالمة وقد صحبت هذه الدراسة بترجمة لهوراتيوس .

تبدأ المؤلفة ببيان أن النقد الأدبى قد تطور تطوراً يتجاوب مع تقدم الفكر اليونانى ، فهو ثورة فكرية قام بها الفلاسفة الأيونيون ، وتزعمها الشاعر الفيلسوف كسينوفانيس الكولوفونى ضد أساطير هوميروس التى تنسب إلى الألهة والآلهات كل رذائل الإنسان .

ثم ازدهر الأدب فى القرن الخامس ووصل إلى قمته ، ودُرس الشعر كفن ، وقام بنداروس يتحدث عن قوانين الفن ، وقوانين الترتيل ويصدر أحكاماً على القيم الخاصة بالإلهام وبفن الشعر ، فالشاعر يرتكز على الإلهام والموهبة الطبيعية ، أما الفن فهو عديم الفائدة فى نظره . وتتحدد البداية العلمية الجدية للنقد بمسرحية الضفادع لأريستوفانيس التى تتلخص فى أن ديونيسوس إله المسرح صمم على الذهاب إلى العالم الآخر ليعود بشاعر مأساة إلى الأرض يعيد للمأساه مجدها الضائع . ثم جاء أفلاطون ولعب دوراً هاماً فى تاريخ النقد ، فهو صاحب النظرية المثالية فى الفلسفة التى حاول بها

أن يفسر ظواهر الوجود المختلفة .

وتقرر المؤلفة أن العصر المتأغرق لا يشتهر بنظرية أدبية هامة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ضياع وثائق هذا العصر ، وإن كان تاريخه قد أمكن جمعه من رؤس كتب مفقوده ، ويرجع أيضاً إلى أن العصر نفسه لم ينتج نظريات أدبية يمكن أن تقارن فى جدتها بنظريات القرن الرابع فى أثينا .

واشتهرت فترة العصر المتأغرق أيضاً بنشر نصوص هوميروس ونقدها ، ونصوص كتاب المسرحية والشعر الغنائى . ومن أهم العاملين فى هذا الحقل أراتوسثينس وأريستوفانيس ، وأرستارخوس وزولوس وغيرهم من معاصرى زينودوتس المتأخرين .

وبعد أن تقدم المؤلفة تحليلاً رائعاً لخصائص الشعر عند هوراتيوس تعرض « نص » فن الشعر لهوراتيوس لتختم به بحثها .

ويشير الدكتور محمدعبودى إلى فكرة جديدة مهمة فى مقالته « استرابون يتحدث عن حملة ايليوس جاللوس على بلاد العرب » ، حيث يذكر أن وصف استرابون لبلاد العرب ينقصه الترتيب والتنسيق ، لأنه لم يرافق الحملة ، ولأنه اعتمد على تقارير ايليوس جاللوس نفسه عن الحملة . ويذكر أن استرابون يؤكد أن الحملة تمت مع بداية قيام الإمبراطورية الرومانية فى بداية عهد اكتافيوس. ويشير إلى أن كلام استرابون يقرر أن هذه الحملة اضافت معلومات كثيرة للباحثين والعلماء وقتها .

ويذكر الدكتور عبودى العوامل التى ذكرها استرابون فى بيان دوافع هذه الحملة ، مثل محاولة قيصر كسب العرب إلى جانبه سلماً أو حرباً ، ومحاولته السيطرة على طريق الحرب والمال (لغنى العرب) ، أو حتى تأثر الرومان بما سمعوه عن بلاد العرب باعتبارها

البلاد السعيدة أو المزدهرة .

ثم ينتقل إلى الحديث عن فشل الحملة الرومانية على بلاد اليمن والذى يرجعه استرابون إلى جهل ايليوس جاللوس كقائد عسكرى بطبيعة بلاد العرب التى ذهب لمحاربتها . وينتقل المؤلف إلى بيان الأسباب التى أدت إلى فشل الحملة بصفة عامة وهى :

1 ـ سوء التخطيط للحملة من جانب الرومان .

2 ـ اقلاع الأسطول الرومانى من خليج السويس فى الشمال ومروره بشمال البحر الأحمر حيث صعوبة الملاحة .

3 ـ نزول الجيش الرومانى فى ميناء الحوراء العربى النبطى حيث المنطقة موبوءة بالأمراض المتوطنة مما أدى إلى الفتك بالعديد من الجنود .

4 ـ اعتماد الرومان فى تعزيز قوتهم على الأجانب .

5 ـ المقاومة الشديدة التى واجهتها الحملة بدءاً من نجران وانتهاء بمدينةمأرب .

أما المقالة الأخيرة فى هذا المجلد فقد كتبها الدكتور حسن عون عن « المكانة الأدبية لمدينة الإسكندرية فى عهد البطالمة » . بعد أن يمهد المؤلف بالإشارة إلى تخطيط وبناء مدينة الإسكندرية ، يذكر أنه قد تركزت فيها حركة ثقافية من علم وأدب وفن ، ثم أنها قد بلغت أوج عظمتها فى فترة يسيرة من الزمن .

وبعد أن يشير إلى العوامل التى ساعدت على ازدهار تلك الحركة الأدبية ، يسرد عدداً من الإنجازات ممثلة فى عدد من الأشخاص منهم : ديمتريوس الفاليرى الذى كان خطيباً سياسياً من أقدر الخطباء ، ومؤرخاً من أكبر المؤرخين . وكليومين الثالث الذى كان ملكاً لأسبرطه ، ولم تكن شهرته فى الأدب أقل من شهرته فى السياسة .

وثيوكرتيس الذى يعتبر بحق المبتكر الأول لنوع جديد من الشعر عرف بشعر الرعاة ، وكاليماخوس وهو من الأدباء البارزين والمبتكرين . ويذكر المؤلف أن معظم هؤلاء الأدباء فروا من بلادهم نتيجة الاضطهاد ، فاستقبلهم ملوك الإسكندرية .

وبهذة العوامل مجتمعه تركزت فى مدينة الإسكندرية حركة أدبية علمية واسعة النطاق ، وبعد أن كانت تتلقى معارف اليونان وتحذو فى الدرس حذوهم ، بدأت تنقد هذه المعارف ، ثم تؤلف وتبتكر فأصبح لها فى الطب وفى الأدب وفى الفلسفة وفى الرياضة والجغرافيا آراؤها الخاصة ومذاهبها الجديدة . ولهذا سادت مدينة الإسكندرية غيرها من المدن الجامعية المعاصرة ، وأصبح يطلق عليها بحق (الوارثة لمدينة أثينا) كما يسميها بعض العلماء الأوروبيين ، أو (أثينا الشرق) كما يسميها البعض الآخر .

وينهى المؤلف بحثه بالحديث عن مكتبةالإسكندرية وأقسامها ، وما تحتويه من كتب ونشاط علمى بصفة عامة ، مقارنة بما يسود فى المكتبات ، وخاصة مكتبة دار الكتب المصرية .

أما المجلد الثانى فيحتوى على مجموعة من المقالات والدراسات المهمة التى تواصل الحديث عن الإسكندرية وانتاجها العلمى وحالتها الثقافية والفلسفية ، وصلتها بغيرها من المدن الأخرى .

أما المقالة الأولى فى هذا المجلدوهى مقالة الدكتورة عنايات محمد فنجدها تتحدث عن صورة فريدة للإسكندر الأكبر مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة ، حيث رسمت رأس ملكية للإسكندر الأكبر ، وكما تقول صاحبة المقال ، ليس لها مثيل فى الأعمال الفنية الأخرى . والوعاء الفخارى المرسوم عليهالرأس عبارة عن طبق مقعر القاعدة ، والوعاء من مادة الفخار المغطى بطبقة

زجاجية رقيقة باللون الأبيض العاجى . وأهم ما يميز الوعاء تناسق تكويناته ، فهو مقسم عن طريق الخطوط الهندسية المزخرفة إلى ثلاث دوائر مختلفة المساحات ، تشغل الدائرة الأولى قاع الإناء ، وتشغل الدائرة الثانية المساحة الواقعة بين الإناء وحافة الإناء ، أما الدائرة الثالثة فتشكل حافة الإناء المسطحة . ومن الملاحظ أن صورة الرأس الملكية تشغل قاع الإناء وهى مرسومة باللون البنى الضارب بالسواد ، وقد صارت فى وضع جانبى متجهاً ناحية اليسار .

وأما مقالة الدكتور السيد عبد العزيز سالم بعنوان « منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة » فيبرز الأهمية التى ظلت تشغلها منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وهو ما لفت أنظار الرحالة المسلمين من أهل المغرب والأندلس الذين زاروا مصر وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج ، أو تلقى العلم ، أو الاشتغال بالتجارة . وتبين المقالة أعمال الترميم والإصلاح التى أمر بها الحكام والسلاطين على مر العصور للمنارة .

أما كيف خططت مدينة الإسكندرية القديمة فهو سؤال مهم أجاب عنه الدكتور / محمد عبد الحميد الحناوى فى بحثه بعنوان « تخطيط ومواقع الإسكندرية القديمة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى » . حيث يشير إلى أحياء المدينة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى وأهمها الحى الملكى وحى اليهود والحى الوطنى . ثم يتناول أسوار المدينة وأهميتها مبيناً أنه من المرجح أن الأسوار ابتدأ فى اقامتها أيام الإسكندر ثم تمت فى عهد البطالمة وزاد الرومان فى تحصينها . ويصف البحث أبواب المدينة والحصون والقلاع والتى منها قلعة الفنار وحصن المنارة وقلعة الركن وكوم الناضورة وكوم الدكة ، ويصف بالإضافة إلى كل هذا الميناء

القديم والميناء الجديد .

وتثير الدكتورة/ فكرية صالح فى بحثها بعنوان « رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى » بعض التصورات المهمة عن الحياة الأدبية وتشعبها إذ تؤكد أن الاتجاه الرومانى والذى أصبح سمة من سمات الأدب السكندرى ، كان سبباً وراء ظهور هذا النوع من أنواع الرثاء ، فالرومانسية تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الإنسانية ، وهى تفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية ، وأن التعاطف امتد فى هذا الإطار إلى الحيوانات . ومما أدى إلى تطور هذه الحركة تطور فن الابجراما .

ويذكر الدكتور / محمد بهجت قبيسى فى بحثه « قانون كرك اللا ومذبحة الإسكندرية 215 م » ضرورة القراءة المنهجية لأحداث التاريخ بعيداً عن روح التعصب والعداء ، ولذا يتعقب الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة ووضع مدينة الإسكندرية السكانى الاجتماعى حيث ينتهى إلى تبرئة كرك اللا من دم المصريين الأصليين أصحاب الأرض ، على خلاف كافة المؤرخين .

ويدرس الدكتور / هابيل فهمى عبد الملك مسألة مهمة وهى « الزواج السياسى فى مصر الهيللينستية من عصر الإسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة » ، حيث يكشف لنا أن الزواج السياسى لعب دوراً هاماً فى تحريك الأحداث على المسرح السياسى فى العصر الهيللينستى بصفة عامة ، وفى مصر بصفة خاصة ، وقد انعكس هذا على الحياة السياسية فى مصر منذ عام 332 م ق . م . وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام 30 ق. م.

ولكن هل هناك تشابه بين مدينة الإسكندرية القديمة وبعض المدن الأخرى ؟ سؤال أجابت عنه الدكتورة سحر عبد العزيز سالم

فى بحثها بعنوان « صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح » حيث تقارن بين مدينة الإسكندرية وكل مظاهر الحياة فيها ومدينة رباط الفتح الأندلسية . والبحث يمتاز بالتحليل العميق والمقارنة الدقيقة بين المدينتين منذ القدم ، ويدل على عقلية تاريخية عميقة .

وقد اختارت الدكتورة سهير محمد ابراهيم فى بحثها بعنوان « الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب للإسكندرية فى العصور الوسطى » أن تبين مكانة مدينة الإسكندرية فى أدب الرحلات ، وما تمتعت به من أهمية خاصة فى هذه الكتابات ، وتكشف لنا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة ، وقد التزموا جانب الموضوعية والدقة فى وصف هذه المدينة العريقة ، وجاء تركيزهم بشكل أساسى على الأهمية الاقتصادية والأهمية التحصينية .

وبعد ، فإن مجموعة الدراسات والبحوث فى هذا العدد تشكل جانباً متنوعاً من الدراسات التاريخية التى اهتمت بها كلية الآداب على امتداد سنوات طويلة ، والتى فى إطارها دارت بحوث طويلة وعميقة عن الإسكندرية المدينة والحضارة . والخيط الرفيع الذى يربط كل هذه الدراسات ببعضها هو رؤيتها التحليلية والعميقة للجوانب الثقافية فى الإسكندرية منذ نشأتها كمدينة أيام الإسكندر الأكبر وعلى امتداد العصور التالية .

أما المجلد الثالث فإنه يحتوى على مجموعة دراسات تتناول موضوعاً محدداً هو الإسكندرية بدءاً من العصر الإسلامى ، وهو موضوع جدير بإلقاء مزيد من الأضواء عليه ، فقد انتقل مركز الثقل الحضارى فى ذلك الوقت إلى مدن أخرى ، قديمة مثل دمشق فى أثناء

حكم الأمويين أو جديدة أنشأها المسلمون مثل بغداد فى العراق ، أو القاهرة فى مصر ، وأصبح جل اهتمام المؤرخين والكتاب هو ما يدور فى هذه المدن ، وما يخرج عنها من أفكار فلسفية وتيارات أدبية ومذاهب دينية ، وتقلص الإهتمام بالإسكندرية فى ذلك الوقت ، التى أصبح اكثر الحديث حولها يدور حول تاريخها القديم المجيد أو أنها إحدى الثغور الإسلامية المهمة فى مواجهة البيزنطيين . أصبح واجباً التنقيب فى المصادر القديمة للبحث عن صورة الحياة فى الإسكندرية فى جوانبها المختلفة الفكرية والإجتماعية والسياسية ، وهذا ما فعله بعض أساتذة كلية الآداب ، ونشروا ما توصلوا إليه فى أعداد مجلة الكلية منذ العام 1944 .

الدراسة الأولى فى هذا العدد طريفة من جهتين : فهى من جهة أول محاضرة أستاذية ألقيت فى كلية الآداب بعد حصول كاتبها الأستاذ الدكتور / جمال الدين الشيال على درجة الأستاذية فى التاريخ الأسلامى ، وهو أول من رقى إلى هذه الدرجة فى كلية الآداب وكان ذلك فى العام 1956 وقد أدخل هذا التقليد إلى الجامعة الأستاذ محمد خلف الله أحمد عميد الكلية فى ذلك الوقت ، وهو أن يلقى من يحصل على درجة أستاذ محاضرة عامة يدشن بها حصوله على كرسى الأستاذية ، وقد استمر هذا التقليد متبعاً فترة من الزمن ، إلى أن ألغى « كرسى الأستاذية » وتوقفت معه هذه المحاضرة العامة .

ولما كانت كلية الآداب على وجه الخصوص تجدد ممارسة دورها الفكرى والثقافى الرائد فى المجتمع فقد اعادت الكلية هذا التقليد وتعمل على ترسيخه .

ومن جهة أخرى فإنها تتحدث عن جانب خفى فى الإسكندرية فى

القرن السادس وما بعده هو جانب التدريس والمدارس والكيفية التى كانت تنشأ بها هذه المدارس وتدار ، وذلك من خلال الحديث عن أول استاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية . فى هذه الدراسة يبدأ الدكتور الشيال بالحديث عن استاذه عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الإسلامى ، وطبيعة العلاقة العلمية التى كانت تربطهما معاً ، وظروف تلمذته على يد الأستاذ العبادى ، ويؤبنه فى عبارات مؤثره ثم يتحدث عما احيط بهذه المحاضرة العامة من ظروف . وبعد ذلك ينتقل إلى الجزء الثانى من دراسته . فى هذا الجزء يتحدث عن الطاهر بن عوف أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية ، يتبع فيه حركة إنشاء المدارس فى مصر الإسلامية التى بدأت فيما يقول مع قيام الدولة الأيوبية فيها ، وذلك حينما أسس صلاح الدين الأيوبى المدارس المختلفة فى أنحاء مصر ، وقد كان الهدف من ذلك نشر المذهب السنى ، يرى الشيال أن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس ويبدأ فى ذكر بعض مدرسة أنشئت فى مصر كلها ، وأما بقية الدراسة فتنصب على أب الطاهر بن عوف الذى كان أول أستاذ لهذه المدرسة ، يتتبع نسبه وأساتذته وحياته ، وكيفية تعليمه وذلك من خلال المصادر التاريخية التى أرخت لهذه الفترة ، كما يحاول تعيين مكان المدرسة الذى كان فى « شارع الحجة » قديماً ، وهو شارع فؤاد حالياً ، ويحاول كذلك أن يتتيع النظام الداخلى للمدرسة وما كان فيها .

فى الدراسة الثانية يتحدث الدكتور / صلاح هريدى عن الحجازيين وحياتهم الإقتصادية والإجتماعية فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى من العام 923 إلى 1213 هـ (1517 - 1715 م) وهى دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى

تحدث المؤلف عن اشتغاله بالتجاره لإحترافهم بعض الحرف وزواجهم وطلاقهم ، وعلاقاتهم الإجتماعية مع بعضهم البعض ومع غيرهم سواء أكانوا من العرب أو من الأجانب .

يتتبع فى البداية كيفية إنتقالهم إلى مصر ، واستقرارهم فى الإسكندرية منذ عهد ما قبل الإسكندر الأكبر ، وطبيعة العلاقات التجارية التى تربط الحجاز بمصر ، قبل الفتح الرسلامى وقبل استقرار عمرو بن العاص بها ، ثم استقرار بعض الصحابة بالإسكندرية مثل أبى الدرداء وأبى ذر الغفارى ، وكذلك عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، كما يتحدث عن روابط الحجاز بمصر فى أثناء حكم المماليك ، وقد كان الحجاز فى ذلك الوقت تابعاً لمصر . يقسم الدكتور هريدى بحثه بعد ذلك إلى أجزاء : الحجازيون وحياتهم الإقتصادية الذى يذكر فيه أنهم كانوا يتاجرون فى الجبن والعسل والأرز والدقيق والتين والقمح ، ويحدد طرق تعاملهم فى ميدان التجارة ، ويذكروا طرفاً فى منازعاتهم التجارية ، كذلك شراؤهم وبيعهم العقارات فى الإسكندرية والكيفية التى كان يتم بها هذا الأمر ، كما يتحدث عن عمليات الإقتراض التى كانوا يقومون بها ، والخلافات التى ترتبط بذلك ، ثم يتحدث أخيراً عن بعض الحرف التى كانوا يمارسونها ، وبعض الصناعات والورش مثل صناعة الأحذية والعطارة وصناعة الحرير والصباغة . ويخلص من هذا إلى أن الحجازيين فى ميدان التجارة والعمل كانوا على قدم المساوة مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية .

وفى جزء أخر يتحدث عن حياتهم الإجتماعية وهذا الجانب شمل الزواج والطلاق والميراث والأوقاف والإعتداءات على بعضهم البعض ، أو مع الأخرين والإشراف وغير ذلك من مظاهر الحياة

الإجتماعية الأخرى ، ويذكر فى أثناء ذلك بعضاً من القصص الطريفة حول هذه الموضوعات ، وذلك من واقع سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى ، ويردف دراسته بمجموعة من وثائق تلك الفترة مثل وثيقة عن بيع فوط ، أو شراء حجازى قمح من هوارى ، أو عن احتراف بعض الحجازيين حرفة الصراف ، وغير ذلك .

فى الدراسة الثالثة : يتحدث الدكتور / جمال الدين الشيال عن الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وذلك بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على تأسيس جامعة القرويين يبدؤها بالرشارة إلى أهمية الإسكندرية كثغر من ثغور الإسلام الذى كان يحمى دولة المسلمين ، كما يشير إلى أن الإسكندرية كنانة الله يحمل فيها خير سهامه ، وأن الإقامة فيها نوع من الجهاد ، وأن من مات فيها فهو شهيد .

ثم يدلف إلى أهمية الإسكندرية كمعبر لمسلمى المغرب والأندلس إلى الأراضى الحجازية فقد كانت محطتهم الأولى فى طريقهم من الرباط إلى مكة يصلون إليها بعد رحلة طويلة وشاقة عبر الصحراء أو عبر البحر ، وقد كان هؤلاء المغاربة يستأنفون رحلتهم إلى الأراضى المقدسة ، ثم يعودون مرة أخرى عن طريق الإسكندرية ، فبعضهم يبقى فيها وبعضهم يستأنف رحلته ، يشير كذلك إلى أن الإسكندرية بقيت على المذهب السنى فى أثناء الحكم الفاطمى على الرغم من أن المذهب الرسمى فى ذلك الوقت هو المذهب الشيعى .

يذكر الدكتور الشيال بعد ذلك عدداً من علماء المغرب الذين استقروا فى الإسكندرية ، منهم العالم الصوفى الكبير أبو بكر الطرطوشى الذى ولد فى سنة 450 هـ ، واستقر فى الإسكندرية ، ومنهم الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفى الذى

جاء من أصبهان واشتغل فى الإسكندرية بتدريس الحديث ، ومنهم أبو الحسن الشاذلى الذى ولد فى سنة ٥٩٢ هـ فى مدينة سبتة ، وجاء إلى الإسكندرية وعاش فيها فترة من الوقت ، وكذلك ابن عطاء السكندرى وياقوت العرش والأباصيرى وأبو العباس المرسى وغيرهم .

أما الدراسة الرابعة يكتبها أستاذ كبير فى الفلسفة هو الدكتور / أبو العلا عفيفى الذى يتناول فيها الأثر الفلسفى الإسكندرى فى قصة حى بن يقظان . والدراسة تعد نموذجاً رفيع المستوى فى البحث الأكاديمى سواء فى لغتها العلمية الدقيقة التى تستخدم الجملة بدلالتها المضبوطة تماماً ، وتحترز من إطلاق الحكم فى أى قضية إلا إذا سانده حشد كبير من الأدلة ، أو فى منهجيتها ، وتسلسل الفكرة فيها . والدكتور عفيفى يتحدث عن مجموعة الكتابات الهرمسية التى كان لها أثر بالغ فى تشكيل الحياة الروحية المسيحية ، وتشكيل العقلية الإسلامية الفلسفية والصوفية ، وهو يرى أن هذه الكتابات هى الحلقة المفقودة فى تاريخ الصلة بين التراث اليونانى والفلسفة الإسلامية ، حيث يتحدث فى البداية عن قسمى هذه المقالات التى تجمع فى قسمها الأول الكتابات الفلسفية الحديثة الصوفية التى تمزج الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الرواقية واليهودية والمسيحية والأفلاطونية الحديثة . وفى قسمها الثانى تجمع كتابات تتعلق بالفلك والسحر والكيمياء ونحوها ، بعد ذلك يتحدث عن نسب هذه الكتابات وجمعها بين ميتافيزيقيا اليونان وروحانية الشرق وتصوفه.

وبعد ذلك يعرج الدكتور / أبو العلا عفيفى إلى مدى تأثير ابن سينا بهذه الكتابات فى رسالته حى بن يقظان التى يتحدث عنها فى البداية ويحاول أن يلخصها فى لغة عادية بعيدة عن رمزيتها ،

وشرح ابن سينا فى رسالته لنظرية الصوفيه ، وهو يخلص من تلخيصها إلى الفكرة الأساسية فيها هى الفكرة نفسها التى تتمركز حولها أحاديث الكتابات الهرمسية ، وأن حى بن يقظان ليس إلا صورة إسلامية من صور هرميس الإله المصرى اليونانى . كما يتحدث عن تسرب الثقافة الهرمسية إلى المسلمين ، وبخاصة فى الأوساط الصوفية عن طريق الرهبان المسيحيين فى مصر وفى الإسكندرية موطن الكتابات الهرمسية الأصلى وعن طريق الطرق التى ورثت ثقافة الإسكندرية .

وقد اشتهر اسم هرميس فى الأوساط الإسلامية وكثر الحديث عنه وعن عجائبه حتى رفعه المسلمون إلى مصاف الأنبياء .

فى نهاية الدراسة يبين أبو العلا عفيفى مدى تأثير الفلسفة الهرميسية فى المسلمين . إن هرميس عندهم قد أصبح ثلاثة هرميس الهرامسة التى قبل أزمة النبى إدريس ، وهرميس البابلى وهرميس المثلث الحكمة .

وأما الدراسة الخامسة فيخصصها الدكتور / محمد على أبو ريان لثقافةالإسكندرية القديمة وأثرها فى حضارات العصر القديم وفى الفكر الفلسفى الإسلامى خاصة . ويبدأها بمدخل عام يتحدث فيه عن التيارات الفلسفية فى العصر الهللينستى التى يحددها فى ثلاث مراحل : مرحلة النشأة من طاليس حتى سقراط ، ومرحلة كبار السقراطيين : أفلاطون وأرسطو ومرحلة الذبول التى نشأت فيها مدارس صغار السقراطيين والأبيقورية والرواقية والفيثاغورية الجديدة ، وهى المدارس التى تركز جزء منها فى الإسكندرية وفرعيها فى أثينا وبيروت وامتد تأثيرها على امتداد الساحل الإفريقى الشمالى .

يناقش أبو ريان مدى تأثير هذه المدرسة وامتدادها إلى أماكن كثيرة فى العالم القديم ، ثم يتحدث بعد ذلك عن تطور العلم والفلسفة فى المرحلة الهللينستية ويقسمها أيضاً إلى ثلاث فترات : الفترة الأولى منذ إنشاء مدينة الإسكندرية على يد الإسكندر إلى سقراط الحكم البطلمى وإنتهاء حكم كليوباترا لمصر وخضوع البلاد لروما ، وهى فترة ازدهار العلوم وتقدمها فى الحديثة رغم تعدد التياراتالفلسفية وضحالة الفكر وعينة الجدة والإبداع وسيادة النزعات الصوفية والسحرية ، والفترة الثانية تمتد من إنتهاء حكم البطالمة إلى نهاية السيطة الرومانية على الإسكندرية وبداية خضوعها لحكم الدولة البيزنطية ، ويلاحظ على هذه الفترة أنها كانت استمراراً لإزدهار الحركة العلمية فى الإسكندرية وتقدم علوم الفلك والرياضيات والطب . والفترة الثالثة تبدأ من تاريخ انقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية إلى فترة خضوع المدينة للحكم البيزنطى ، وتعد هذه الفترة أكثر الفترات تأثيراً واضطراباً فى تاريخ المدينة وبداية التحول التدريجى إلى المسيحية وحرق مكتبة الإسكندرية وقتل عدد كبير من المفكرين والعلماء . ثم دخول السريان الذين نقلوا العلوم اليونانية إلى اللغة العربية عن طريق حركة الترجمة ، وبداية تأثير الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامى الذى بدأ أول الأمر من خلال بعض النظريات ثم استقرار الأمر بعد ذلك .

يتحدث أبو ريان بعد ذلك عن الأفلاطونية المحدثة وتطورها من خلالها ممثلها الأكبر أفلوطين الذى يناقش أفكاره ونزعاته الصوفيه وقوله بالأقاليم الثلاثة الواحد والعقل والنفس فى مقام الآب والأبن والروح القدس ، ثم التاسوعات التى يفصل أجزاء كثيرة فيها من

الجدل الصاعد والجدل النازل ، ونظرية الصعود رد أصلها الأفلاطونى الرياضى ثم يتحدث عن هذه المدرسة فى عهدها الأخير ، وعن فروعها التى انتشرت فى سوريا وبزعامة وفى أثينا ، ويناقش فى أثناء ذلك كثيراً من أفكار هذه الفروع .

والموضوع السادس ليس دراسة بالمعنى الدقيق بقدر ماهو « بعض منتخبات من كتابات الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة 767 هـ » للنويرى السكندرى ، وهو يشرح فيه حال الإسكندرية فى أثناء الحملات الصليبية . والموضوع بأكمله لا يمكن تلخيصه إذ يحكى تفاصيل كثيرة ، ويؤرخ لفترة مهمة فى حياة الإسكندرية ، ويذكر أحلاماً وكوابيس مرت ببعض الناس فى الإسكندرية عما يمكن أن يحدث . وفى أثناء ذلك تنكشف علاقات مهمة بين المسلمين والمسيحيين واليهود .

أما الدراسة الأخيرة فهى دراسة الأستاذ / عبد المحسن عاطف سلام عن الحركة الأدبية فى الإسكندرية الحديثة . حاول فيها أن يبرر إفراد الإسكندرية بحديث مستقل عن حركتها الأدبية مؤكداً فى الوقت نفسه على أنه لن يحاول فى هذا البحث أن يتتبع الظواهر العامة التى ميزت إنتاج الإسكندرية فى تاريخها الطويل بل سيقنع بالقليل ويرتضى بالحدود الضيقة التى يفرضها عنوان البحث وسينطلق من النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

يتحدث فى البداية عن العوامل التى اسهمت فى النهض الفكرية بالإسكندرية ، ويحددها فى عاملين هما كثرة وفود الأجانب واستقرار بعضهم فى الإسكندرية ، وكثرة وفود السوريين واللبنانيين إللى مصر هرباً من تعسف الأتراك . وبعدد المظاهر التى شارك فيها هؤلاء فى تفعيل الحركة الأدبية فى الإسكندرية . كما يتحدث عن

الترجمة الأدبية وقد أحصى ما يوب من تسعين رواية مترجمة أخرجتها مطابع الإسكندرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . كما أشار إلى ظهور المعاهد والجمعيات التى اقتصر بعضها على العلم أو أخذ الآخر صبغة سياسية أو إجتماعية . كما تحدث عن إنشاء جمعيات التمثيل وتكوين فرقها التى اسهم فيها السوريون واللبنانيون بنصيب وافر . وتحدث عن إنشاء المكتبات العامة وأول هذه المكتبات هى مكتبة البلدية التى أنشئت فى سنة 1892 ، ويفرد حديثاً طويلاً عن تأثير الصحافة فى النهضة الأدبية من خلال ما كتبه أديب اسحق . كل هذا عهد به إلى الحديث عن النظرية الأدبية التى جاء بها بعض الكتاب الذين عاشوا فى الإسكندرية مثل عبد الرحمن شكرى وإبراهيم زكى وخليل شيبوب وعبد اللطيف النشار وغيرهم .

يناقش تعريف عبد الرحمن شكرى للشاعر من خلال ما كتب شعراً أو نثراً فى جدال طويل ، ويعرض لما كتبه عن ثقافة الأديب ورؤيته لنشأة الرومانسية وعن أهمية شعراء التجديد ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الشعر وتعريفه من خلال ما كتبه شكرى والعقاد وخليل شيبوب ، ويتحدث عن وظيفة الشعر ولمَّ يقول الشاعر الشعر ؟ ويحدد وظيفة الشعر فى أربع حاجات .

والدراسة جادة ، وقد ألقت فى وقتها أضواء لم تكن مسلطة بالشكل الكافى على إسهام هؤلاء الشعراء وبخاصة عبد الرحمن شكرى فى تأصيل النظرية الشعرية الحديثة ، وإبراز جوانب القوة فى الشعر حتى يستمر مؤدياً دوره المطلوب فى الحياة الثقافية .

*****

وبعد فإنه يطيب لى أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى لفريق العمل بالمجلة الذى بذل من الجهد والوقت الشيئ الكثير لإنجاز هذا العمل الذى تطلب كل دقة وإتقان .

رئيس التحرير

أ.د. ماهر عبد القادر محمد

الإسكندرية
تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها
فى عصر البطالمة(*)

دكتور/ زكى على

* صدرت هذه المقالة في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية (فاروق الأول سابقاً)
في المجلد الثاني ١٩٤٤ ص ص ١١٧ - ١٧٨



الإسكــــــــندرية

تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة

إن المدن التى أسسها الإسكندر الأكبر فى طول امبراطوريته الواسعة كثيرة تعد بالعشرات، ولكن لم يقدر لواحدة منها أن تشهد مثل ذلك المستقبل الباهر والشهرة العظيمة طوال الأجيال التالية مثل تلك المدينة التى ابتناها فى مصر، أو إن شئت فقل على تخوم مصر "Ad Aegyptum" كما تصورها الإغريق والرومان نائئة على ساحل البحر المتوسط، وقليل من المدن لقى من التمجيد والتفخيم مثل ما لقيته مدينة الإسكندرية القديمة، فكان من الأحاديث التى تلوكها الألسن أن يمتدح الناس بذكرها ويحرقون لها بخور المدح، ويحتفون بعظمتها وفخامتها بقصد تخليد ذكراها، وليست لدينا معلومات وثيقة عما كانت عليه الحال فيها فى القرن الثالث قبل الميلاد عندما كان العمل فى تأسيسها قائماً على قدم وساق، ولكن الظروف التى أحاطت بتأسيسها، والطريقة التى بنيت بها، وسلطان ملوكها من البطالمة الذين اتخذوها عاصمة امبراطوريتهم، وحبهم للعظمة والفخامة والتبذير والإسراف، ووصف بعض الأعياد والحفلات العامة التى كان يقيمها بطليموس الثانى (فيلادلفوس)، كل هذه تثبت أن المدينة منذ نشأتها تقريباً كانت بحالها التى وجدت عليها فيما بعد فى عهد الإمبراطور أغسطس عندما زارها فى سنة ٢٤ ق.م. إسترابون الجغرافى، وأطنب فى وصف معالمها وأبنيتها[1] ، ولم يكن السائحون من الأجانب إذ ذاك، يستطيعون إخفاء

(١) إسترابون الجغرافى الكتاب السابع عشر فصول ٦-١٢ (أو ٧٩١ - ٧٩٦) وسوف نعرض لهذه الفصول فيما بعد بشئ من الإفاضة.

شعور الإعجاب والتقدير عند زيارتهم لمدينة الإسكندرية التى كانت تبهر أبصارهم مبانيها ومناظرها الخلابة وسعة رقعتها واستقامة شوارعها المتقاطعة فى زوايا قائمة، والبوائك والأعمدة التى اقيمت على جوانبها والقصور الملكية والمبانى العامة الملحقة بها، والنوادى الثقافية والملاعب والساحات العامة والمنشآت التى اقيمت بالميناء تغدو فيه السفن وتروح فى كثرة لا عهد للناس بها من قبل - كل هذه الأمور وغيرها من سائر محاسن المدينة تصدى لوصفها الكتاب الأقدمون، فأضفوا على المدينة القديمة حلة من البهاء والحسن.

تأسيسها:

ولقد جاء تأسيس الإسكندرية نتيجة طبيعية لحملة الإسكندر على الشرق إذ غزت بلاد الإغريق وعلى رأسها مقدونيا دولة الفرس بآسيا كيما تفرض عليها عاداتها ودينها ولغتها، وبمجرد أن اصبحت الثقافة والحضارة الهيلينية غير محصورة فى نطاق حوض بحر إيجه، وفى تلك المستعمرات والمهاجر التى نزح إليها الإغريق على شواطئ البحر المتوسط شرقه وغربه، وأخذت فى التغلغل فى بلاد الشرق البعيد لم تعد أثينا قادرة على حمل هذا اللواء، وأخذ الناس يتطلعون فى هذا العهد الجديد إلى عاصمة للعالم الجديد، وبفضل ماقام به «المشاة الثقال[1]» من الإغريق والفيالق من المقدونين من أعمال البطولة استطاعوا اجتياز ممالك فسيحة ووصلوا إلى بلاد الهند وشواطئ السند والبنجاب، فهل كان ينتظر أن تغير تجارة الفرس وبلاد العرب والقوافل الليبية والمراكب الفينيقية خط سيرها وتتجه نحو الخليج السارونى ميممة نحو ميناء بيريه (Piraeus) مرفأ أثينا؟ وهل كان هذا الميناء الذى كان يسع الأسطول اليونانى بالأمس، يكفى لكى

(١) هم الرجّالة الذين يحملون أسلحتهم ومتاعهم ويحاربون فى الأراضى المنبسطة.

تلتقى فيه تلك الشعوب النائية التى قدر لها أن تصبح الولايات الرئيسية فى مملكة عالمية أزمع الإسكندر تكوينها؟ كان الإسكندر، فى القيام بمهمة فتح بلاد الشرق، يعتبر نفسه ملكاً شرقياً وخليفة للملوك العظام فى دولة الفرس، وكان ينوى أن يجمع تحت لوائه وسلطانه أثينا وبابل واليونان الخاضعة له وآسيا التى «تأغدقت»، فيلَمَّ شمل الجميع ويربطهم برباط وثيق يدينون له بالولاء والطاعة، فهل وجد الإسكندر أنه من الضرورى أن يؤسس مدينة يكون موقعها الفذ وسيلة لتحقيق هذا الإتحاد المنشود، فاختار الإسكندرية للقيام بهذا الدور؟ وهل كان وقوع الإسكندرية فى وسط البحر الأبيض الهيلينى، وفى مركز وسيط، وعلى مسافة متسارية تقريباً من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وسورية من الإعتبارات التى استهوته فأقدم على إنشاء تلك المدينة، التى كانت متصلة عن طريق البحر وبحيرة مريوط والنهر بتجارة ذات شقين، فمن الشمال امتدت تجارتها إلى البحر الأدرياتى والبحر الأسود ومن الجنوب كانت تتصل عن طريق النيل وخليج العرب والبحر الأحمر بمجاهل افريقية وبلاد آسيا فكانت إذاً ميناء لكل التجارة فى امبراطوريته المستقبلة، أم أن الإسكندر ظن أنه بتأسيسه الإسكندرية يكون قد ضمن أن تكون مؤسسته الجديدة لاتنتمى لأى شعب ولا لأى مملكة ولا ينشأ عن قيامها استفزاز لغيرة مدن أخرى مناهضة، وفوق ذلك فإن المستعمرين الجدد الآتين من أقاصى البلاد المختلفة كانوا يتلقون فيها ويختلطون ثم لا يلبثون بعد قليل أن يصبحوا عنصراً واحداً وتصبح المدينة فى الوقت نفسه مركزاً، وملتقى لثلاث قارات وموطناً لكل الشعوب؟

وقد يحار الإنسان فى الإجابة عن تلك الأسئلة وأمثالها مما قد يعرض له،

وكلها تدور حول معرفة الدوافع التى حفزت الإسكندر إلى تأسيس مدينة الإسكندرية فى تلك البقعة المختارة بالذات وبيان المقاصد والأغراض التى كانت تدور بخلده وتعرف المركز الذى أزمع تخصيصه لمؤسسته هذه فى مجموع أفكاره ومشروعاته - كل هذه الأمور أخذها الإسكندر معه إلى قبره حيث بقيت سراً مكنوناً يحار الإنسان فى اجتلاء حقيقته، وفى الحق قد يضطر الإنسان إلى الإعتماد على حقائق جاءت فى المصادر الأصلية كبطليموس بن لاجوس وأريان (Arrian) وديودور الصقلى (Diodorus Siculus) وإسترابون (Strabo) وبلوتارك (Plutarch) بقصد مغاير تماماً لما رمى إليه كتابها الأصليون، ومع ذلك فكيف يمكن تحرى الدقة فى تعيين المقاصد والدوافع التى كانت تحرك شخصية تاريخية عظيمة كشخصية الإسكندر التى لنا بها معرفة وثيقة مما كتب وصنف عنه وهل نستطيع أن نقرر أكان هو نفسه مدركاً تمام الإدراك مدى نتائج ما يعمله؟

ومهما يكن من شئ، فإن من بين أعمال الإسكندر التى يجب أن نعنى بها دائماً ونخصها ببحوثنا التاريخية تأسيس الإسكندرية وما أحاط بهذا التأسيس من ظروف وملابسات. وقد يضطرنا المقام إلى أن نستطرد قليلاً فنذكر شيئاً عن الظروف التى أحاطت بتأسيس الإسكندرية متوخين فى ذلك الاختصار.

فى خريف عام ٣٣٢ق . م دخل الإسكندر مصر من الشرق وقد يمم وجهه شطرها بعد أن تم له الإستيلاء على سورة وفينيقية وفلسطين كى لا يترك خلفه بلداً لم يخضعه فلم يلق فى مصر أية مقاومة، فمن الفرما التى كان اسطوله قد سبقه إليها[١]، زحف براً على رأس جزء من جيشه حتى وصل إلى ممفيس ماراً فى طريقه بهليوبوليس، بينما ركب النصف الآخر من جيشه متن النيل[٢].

(١) Arrian III, I, I"

(٢) Arrian III, I, 3s (وهى رواية تعوزها الدقة) Curtius IV, 7, 3,

وقد دخل الإسكندر ممفيس يقود جيشه المنتصر وقد أثلج صدور رجاله هزيمة الملك الفارسى العظيم دارا الثالث فى موقعة إسوس (Issus) بآسيا الصغرى، التى كانت تبشر ببدء تقويض صرح المملكة الفارسية المتداعية الأركان، واستيلاؤهم على مدينة صور (Tyre) التى اتعبتهم واضطرتهم أن يضربوا عليها الحصار، وكان قد انقضى بضع سنوات منذ استرد الفرس مصر وكانت قد استقلت مدة قرن ولم يجد الإسكندر أية صعوبة فى إخضاع البلاد له، بل عده المصريون مخلصاً لهم من حكم الفرس، فتوج ملكاً على مصر فى ممفيس، وكان بتقديمه القرابين لآلهة البلاد المحلية وإقامته المباريات فى الألعاب الرياضية والفنون والشعر والموسيقى على الطريقة الإغريقية قد خرج للناس فى ثوب العامل على توثيق الروابط بين الشرق والغرب، ثم قضى فصل الشتاء فى مصر.

أما ما حصل خلال هذه الفترة وترتيب الحوادث التى وقعت فيها فالمصادر الأصلية غير متفقة بشأنه، ففريق يمثله كيرتيوس (Curtius) وديودور (Diodorus) وجاستن (Justin)[1] يقول إن الإسكندر ذهب مباشرة إلى واحة آمون بسيوه ولم يؤسس مدينة الإسكندرية إلا بعد عودته، ولكن الفريق الآخر الذى لقيت روايته كثيراً من التصديق والرواج، ويمثله «أريان» وكل الكتاب الذين اتخذوا رواية بطليموس بن لاجوس أساساً لهم فيما ذكروه[2]، يقول إن الإسكندر ركب فرع النيل الغربى وهو الفرع الكانوبى حتى بلغ مصبه فى كانوبس (Can-opus) وقام برحلة فى بحيرة مريوط، ثم وصل إلى قرية صغيرة تسمى راقوده (Rhakotis) بالقرب من ساحل مصر الشمالى، كان يسكنها صيادو الأسماك.

---

(١) Curtius IV, 8, 1., Diodorus X VII, 52,I, Justin XI, 11, 3, Schwartz Pauly Wissowa (وهى دائرة المعارف الألمانية) II. P. 916

(٢) Arrian III, 1.5

وفى هذه البقعة أسس مدينته قبل البدء فى القيام برحلته عبر الصحراء لزيارة معبد آمون حيث قوبل من كهنته وسدنته بالإجلال والتعظيم، ونودى به ابناً للآله زيوس آمون[1] (Zeus Ammon) ولقد استطاع بعض علماء الاثار أن يتعرفوا بقايا مبان لميناء قديم مكان راقوده ولكن بعضاً آخر ينكر عليهم هذا، ومهما يكن من شئ فإن ماكان يسترعى نظر الزائر لهذه القرية فى القرن الرابع قبل الميلاد قليل، وكل ماهنالك شاطئ رملى منخفض، تقع على مقربة منه جزيرة صغيرة، وتقوم على ذلك الشاطئ قرية صغيرة لا أهمية لها يسكنها جماعة فقيرة من صيادى الأسماك، وليس فى هذا كله أية دلالة على ماكانت تخبؤه الأقدار من عظمة لمدينة الإسكندرية المستقبلة، ومباهج الحياة فيها - على هذا المكان وقع اختيار الإسكندر الذى قدر رسالته لنشر الثقافة والحضارة الهيلينية فى بلاد الشرق، فقرر أن يؤسس مدينته عليه، وقد صارت الإسكندرية من أعظم مدن العالم، ويرجع هذا عند بعض المؤرخين إلى ذكاء مؤسسها الذى كان من أفذاذ رجالات التاريخ، ولكن فريقاً من المؤرخين الذين يولعون بالجدل والنقد يقولون إن أهمية مؤسسة الإسكندر كانت نتيجة أسباب بعيدة كل البعد عن تقدير الإسكندر وذكائه، ولاشك أن حقيقة الأمر هى وسط بين هذين الرأيين المتطرفين اللذين سوف نعرض لهما بشئ من التفصيل، إذ أنه على الرغم مما عرف عن الإسكندر من اندفاع وتهور ومضاء خارق للعادة فإنه كان يتصف أحياناً بالمقدرة على إصدار الأحكام فى هدوء وروية وصفاء ذهن بدرجة لم يجاره فيها إلا قليل من السياسيين. ويمكن أن نقول بحق إن الإسكندر عندما

---

(١) Ptolemy Son of Lagus in Hopfners" Fontes Historiae Religionis Aegyptiace vol. 1.6- واقتبسه أريان (Arrian, Exped III, 3,5) فوصف رحلة الاسكندر إلى واحة آمون.

اختار هذا الموقع لمدينته الجديدة كانت تحدوه عدة أسباب، وربما كان متأثراً كماهو المعتقد حديثاً (١) بما وجده من تشابه بين هذا الموقع وموقع مدينة صور التى كان يحاصرها بالأمس القريب، والتى أراد لمنشأته الجديدة أن تبلغ ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية، على أن الإسكندرية كانت ذات مزايا حقيقية لها قيمتها.

ولقد اتفقت جميع المصادر - على رغم اختلافها فى ذكر التفاصيل - فى القول بأن شرف اختيار هذه البقعة، التى أسس فيها الإسكندر مدينته، يرجع إلى الملك الشاب نفسه، ومن الممكن أن يكون فى هذا الرأى بعض المبالغة، ولكن حتى فى هذه الحالة فإن الإسكندر هو الذى أذن بهذا الاختيار وباركه، إذ كان الغرض من تلك المؤسسة الجديدة خدمة مشروعاته الواسعة المدى، ولكن هؤلاء المؤلفين لايكشفون لنا النقاب عن السبب الحقيقى الذى اختير من أجله هذا الموقع ذاته، وإنما عنوا بذكر الروايات التى قد يكون من الشائق بالنسبة للمشتغلين بتسجيل الأساطير وأحاديث الخرافة أن نذكر على سبيل المثال رواية منها، على أنها لا تخدم الحقائق التاريخية فى شئ. قالت تلك الرواية إن الذى أوحى إلى الإسكندر مشروعه هذا هو تذكره لبضعة أبيات جاءت فى ملحمة الأوديسا لهوميروس، أو بالأحرى رؤية هوميروس نفسه فى حلم(٢). وهكذا اختلط الأمر وأصبح مشوباً بأحاديث الخرافة المتواترة، فأشكل على الناس تفهم الحقيقة وسط هذه الأحاديث، وحقيقة الأمر أنه لما كان الإسكندر قد رغب فى زيارة تروادة عندما وصل إلى آسيا الصغرى، فإنه كسائح قد شعر بجاذبية ورغبة دفينة تجذب السائح نحو زيارة مكان آخر خلد ذكره فى تلك الملحمة

(١) B. A. Van Groningen, "A Propos de la fondation d'Alexandria", Raccolta Lumbrose, Aegyptus Serie 1925 pp. 200-211

(٢) بلوتارك - حياة الإسكندر فصل ٢٦ .

الخالدة.

وصف استرابون لموقع الإسكندرية

ولقد اقتصر الكتاب الأقدمون على مجرد القول بصلاحية الموقع وملاءمته لتأسيس مدينة جديدة فقال أريان[١] «إن هذا الموقع بدا للإسكندر جميلاً جداً ليؤسس عليه مدينة قد تصبح ذات مستقبل باهر سعيد، وذكر كيرتيوس[٢] (Curtius) «ولما فكر الإسكندر فى طبيعة المكان ... قرر أن يؤسس عليه مدينة جديدة»، ولكن استرابون لم ينهج نهج هؤلاء فيقتصر على ذكر صلاحية الموقع وملاءمته، وإنما بذل مجهوداً فى التوسع فى هذا الرأى وتبريره، ولذلك آثرنا أن نقتبس منه وصفاً تفصيلياً لهذا الموقع (وطبوغرافيته) ومعالم المدينة نورده فيما يلى[٣] .

«ولما كانت الإسكندرية وما يجاورها تمثل أكبر جزء فى وصفنا، بل أهمه، فسوف نبدأ به، وشاطئ البحر، إذاً، من الفرما حتى مصب الفرع الكانوبى للنيل، إذا أبحر الانسان نحو الغرب، يبلغ نحو ثلثمائة وألف ستاديات[٤] وهو يكون كلما قلنا قاعدة الدلتا، وتبلغ المسافة من هناك حتى جزيرة فاروس خمسين ومائة ستاديات أخرى، وفاروس هذه جزيرة مستطيلة الشكل وقريبة جداً من البر الأصلى، وتكون معه ميناء ذا مدخلين، لأن شاطئ البحر عبارة عن خليج إذ أن به رأسين نائتين فى البحر، وبين هذين (الرأسين) تقع الجزيرة التى تسد الخليج

(١) Arrian III, 1, 5

(٢) Curtius IV,8,1: "Contemplatus loci naturam statuerate urbem nov-am. condere".

(٣) استرابون الكتاب السابع عشر فصل ٦ - ٨ أو قسم ٧٩١-٧٩٣ .

(٤) مفرده ستاديوم Stadium وهو عبارة عن فرسخ أو ٦٠٦ أقدام إنحليزية.

لامتدادها طولا فى موازاة الشاطئ القارة ثم إلى ذلك الرأس الواقع فى تجاهه (ويسمى ذلك الرأس لوخياس = Lochias)، وبذلك يصير مدخل الميناء ضيقاً بالإضافة إلى ضيق ذلك الممر الواقع بينهما توجد أيضاً صخور تغطى المياه بعضها، بينما يبرز بعضها الآخر فوق سطح المياه ويضاعف هذا فى كل الأوقات فى تلاطم الأمواج التى تتكسر عليها أمواج البحر من كل جانب، وقد أقيم عليها برج شيد بطريقة عجيبة من الرخام الأبيض وبه طبقات كثيرة ويحمل نفس اسم الجزيرة[1] ، ولقد قدمه سستراتوس الكنيدى (Sostratus)

(١) ذلك البرج هو المنار المشهور وهو إحدى عجائب الدنيا وقيل إن نفقات بنائه بلغت ثمانمائة تالنتات (انظر بلنى(Pliny) ٦، ١٨)، ولقد تباينت الأقوال بشأن بانى هذا المنار فقال يوسيبيوس (Eusebius, Chron. ad Olymp. 124. 1) إن هذا المنار بنى فى عصر فيلادلفوس، ولكن سويداس (Suidsd) ذكر أنه بنى فى أول عهد الملك بيروس (Phrrhus) أى ٩ ,٢٩ق.م فى عهد الملك بطليموس سوتر، وبحسب ماجاء فى يوسيفوس ,Josephus Jud. 4. 10 5 كان هذا المنار يرى على مسافة ثلثمائة ستاديات من عرض البحر، وقيل أن علوه كان يبلغ ستة وثلثمائة قامة (فى كل قامة ستة أقدام) -Epiphanes. Strph. Byz Pharos ويقال إنه كان يرى على مسافة ثلثمائة ميل - انظر الترميم الذى تصوره Thierch فى كتاب تاريخ العالم القديم جزء أول ص ٣٦٩ للعالم Rostovtzeff وكذلك A. M. da Zogheb. Etudes sur I'Ancienne Alexandria 1910. وقد جاء فى الجزء الثالث من النسخة الخطية من ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الرحلة إلى مكة وطيبة لمحب الدين بن رشيد صفحة ٢٠ سطر ٩-١٥ وصف رائع لهذا المنار: «ومن عجائب الاسكندريه منارها الذى يعجز عنه الوصف، ويحار فيه الواصف، وضخامته من داخل أكثر مما هى فى خارجه، وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المزايات، قاس أحد اصحابنا جانبه البحرى ماية ونيفا على عشرين قدماً، وذكر لى بعض أصحاب أنه أخذ ارتفاعه بالاسطر لاب فالقى القاعدة ستين قامة ومائتين».

(٢) تلك هى العبارة الواردة عليه «ستراتوس من كنيدوس بن دكسيفانيس (Dexiphanes) من اجل البحارة إلى الإلهين المخلصين (Divine Saviours)، ولقد أثارت هذه الجملة خلافاً إذ أنه ورد ببعض النسخ من جغرافية سترابون هذه العبارة التى حفظها لوشيان (Lucian, How to write History فصل ٦٢)، ولكن يبدو من الواضح أنها إضافة على هامش نص استرابون الأصلى.

صديق الملوك قرباناً من أجل سلامة البحارة كما تدل الكتابة المنقوشة عليه[٢] ، لأنه لما كان شاطىء البحر خالياً من الموانى ومنخفضاً من كلا الجانبين وبه صخور ومناطق ضحلة كان البحارة الآتون من عرض البحر إلى هناك فى حاجة إلى علامة عالية تبدو واضحة للعيان كيما تساعدهم على تبين طريقهم بدقة نحو مدخل الميناء، وليس من العسير عبور المدخل الغربى أيضاً ولو أنه لا يتطلب من الجهد والحرص مثلما يتطلبه المدخل الآخر وهو يكون بالمثل ميناءً ثانياً يحمل اسم يونوستوس[١] (Eunostos) وموقعه تجاه الميناء المحفور (أى من صنع يد الإنسان) والمغلق[٢] والميناء الذى يقع مدخله إلى جانب برج فاروس السابق الذكر هو الميناء العظيم، بينما هذان الميناءان يقعان فى أعمق فجوة (من الشاطئ) على طول امتداد هذا الميناء العظيم ولا يفصلهما عنه سوى جسر يسمى هيبتا ستاديوم[٣] (Heptastadium). ويكون هذا الجسر سداً ممتداً من البر الأصلى إلى الجزء الغربى من الجزيرة (أى فاروس) ولا يترك سوى مضيقين موصلين إلى ميناء يونوستوس (العود السعيد) وقد أقيم على

(١) أى «ميناء العود السعيد» أو «السلام» وربما سمى هذاالميناء كذلك نسبة إلى يونوستوس Eu-nostos ملك سولى (Soli فى قبرص وهو زوج ابنة بطليموس سوتر ولعل ما أوحى بهذه الفكرة هو أن ميناء يونوستوس كان آمناً يوصل إلى بر السلام إذا قرن بالميناء الشرقى.

(٢) ويعرف هذا الميناء باسم Cibotus أى الصندوق وكان محصناً وتصل بينه وبين بحيرة مريوط ترعة، ولايزال فى الوقت الحاضر شكل هذا الميناء وحجمه محل خلاف لأن موقعه سد وأصبح محله يدخل الآن ضمن نطاق الرصيف المعروف بالهبتاستاديوم (Heptastadium).

(٣) جسر الهبتاستاديوم هو لسان ممتد فى عرض البحر مده البطالمة بين الشاطئ وجزيرة فاروس، وترجع هذه التسمية اليونانية (هيبتا = سبعة + ستاديوم = فرسخ طوله ٦٠٦ أقدام) إلى طوله البالغ سبعة ستاديات أو سبعة فرسخ. ولقد اتسع كثيراً بما أضيف إليه على توالى الزمان من رواسب طميية وغرينية وركام وأنقاض من المدينة القديمة حتى أصبح اتساعه يبلغ الآن ميلاً ويكون جزءاً كبيراً من موقع مدينة الاسكندرية فى الوقت الحاضر.

هذين المضيقين قنطرتان، ومع ذلك لم يستخدم جسر الهيبتا ستاديوم فقط قنطرة توصل إلى الجزيرة، ولكن استخدم لحمل المياه إلى فاروس على الأقل عندما كانت هذه مأهولة بالسكان، ولكنها فى الوقت الحاضر أصبحت مخربة بفعل قيصر المؤله[1] فى حربة ضد السكندريين لأنها كانت ضالعة مع الملوك ومع ذلك فيسكن عدد قليل من البحارة بالقرب من البرج، أما الميناء الكبير فبالإضافة إلى أحكام غلقه بكل من الجسر وبعمل الطبيعة فإن عمقه بالقرب من الشاطئ يبلغ درجة تكفى لرسو أكبر السفن بالقرب من المرسى، وفوق ذلك فهو مقسم إلى بضعة موان، ولما كان ملوك مصر السابقون قانعين بما توافر لديهم (من خيرات) وفى غير حاجة إلى الواردات الأجنبية على الإطلاق، وكانوا منحازين ضد كل من جاب البحار وبخاصة ضد الإغريق (لأن الأخيرين كانوا محبين للسلب نظراً لندرة الأرض عندهم وطامعين فى أرض الغير) فقد أقاموا حرساً فى ذلك المكان وأمروا رجاله بأن يصدوا كل من اقترب منه واعطوهم مكاناً لسكانهم وهو المسمى براقودة (Rhacotis) وهو الآن يمثل الجزء الواقع من مدينة الإسكندرية تجاه ترسانة السفن وكان إذ ذاك قرية، كما أعطوا الأجزاء المحيطة بتلك القرية رعاة كانوا قادرين كذلك على صد الأجانب عن دخول البلاد – ولما زار الإسكندر هذه البقعة وشاهد مزايا (Eukairia) هذا الموقع صمم

(١) هو يوليوس قيصر المؤلمة (Divus Caesar) الذى حضر إلى الاسكندرية بعد هزيمته لمنافسه يمبى فى فرساليا وفرار الأخير إلى مصر حيث لقى حتفه، واشتبك مع أهلها فى حرب عرفت بحرب الاسكندرية (Bellum Alexandrinum) جاء فى سرده لحوادثها وصف رائع لبعض معالم المدينة وما كانت عليه حالها سنة ٤٨ ق.م ووصف لخلق أهلها ونشاطهم وبراعتهم.

(٢) اقتبس كثيرون من المؤرخين الحديثين هذه الجملة وأخذوا يناقشونها مدللين على وقوع الاختيار من جانب الاسكندر بعد روية وتقدير لمزايا هذا الموقع الجغرافى الفذ. انظر مقال Van Gromningen عن تأسيس الاسكندرية فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ .

على بناء المدينة على الميناء[٢] وكعلامة تنم عن حسن الطالع الذى لازم المدينة منذ ذلك الوقت، وروى الكاتب واقعة حدثت عن تخطيط أساس المدينة فإنه لما كان المهندسون قائمين على تخطيط موقع السور بالطباشير حدث أن نفد الطباشير، وعند حضور الملك جلب موظفوه وأعوانه جزءاً من دقيق الشعير الذى كان قد أعد لحاجة العمال واستعانوا بهذه المادة فى تخطيط معظم الشوارع كذلك، ويقولون إن هذه الواقعة قد فسرت على أنها فأل حسن[١].

ومزايا موقع المدينة مختلفة الأنواع لأن الموقع أولاً تتكسر عليه مياه بحرين فمن الشمال مياه ما يسمى بالبحر المصرى، وفى الجنوب مياه بحيرة «ماريا» التى تسمى أيضاً مريوط، وتملأ هذه البحيرة بوساطة قنوات كثيرة ممتدة من النيل من أعلى (أى من الجنوب) ومن كلا الجانبين، وكانت الواردات الآتية بواسطة القنوات أعظم بكثير من تلك الواردات الاتية عن طريق البحر، وعلى ذلك كان الميناء المطل على البحيرة أغنى فى الحقيقة من الميناء الواقع على البحر، وهنا (أى فى الميناء البحرى) كانت الصادرات الخارجة من الإسكندرية أيضاً أكثر من الواردات إليها، ويستطيع المرء أن يتحقق من ذلك متى وجد فى الإسكندرية ورأى المراكب التجارية عند وصولها ورحيلها، ولاحظ

(١) لقد ذكر الكثيرون هذه القصة المشهورة عن النقص فى الطباشير اللازم لتخطيط حدود مدينته الجديدة ثم استخدامه الدقيق المخصص للأغذية والمؤن فرواها بلوتارك - حياة الاسكندر (٢٦) ورواها أريان (Arrian III, 2, 1-2) وكيرتيوس (Cnrtius IIV, 8, 6) وأميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus, XXII, 16. 7.) . ولقد روى بلوتارك أن شتى أنواع الطيور تجمعت كالسحب وهبطت على دقيق الشعير الذى استعمل فى تخطيط هذه المنطقة وأخذت تأكله حتى أتت عليه فلما شاهد الاسكندر ذلك تملكه الخوف والذعر وتطير من هذه النذر ولكن العرافين طمنوه وأكدوا له أن الفأل حسن إذ أن دقيق الشعير دليل على وفرة الغذاء وكثرة الخيرات.

مبلغ ثقل حمولتها أو خفتها عند غدواتها إلى هناك أو روحاتها منها، وبالإضافة إلى القيمة العظيمة لتلك البضائع التى كانت ترسو من كلا الجانبين على الميناء البحرى والميناء الواقع على البحيرة، فإن جودة الهواء أيضاً لأمر جدير بالذكر، وينجم هذا أيضاً عن أن المياه تكتنف المدينة من كلا الجانبين ولانتظام موعد فيضان النيل، وجو المدن الأخرى الواقعة على بحيرات ثقيل وخانق فى أثناء حرارة الصيف، لأن البحيرات فى ذلك الفصل تتحول إلى مستنقعات على حافات هذه المدن بسبب التبخر الناجم عن أشعة الشمس، فعندما يتصاعد مثل هذا القدر من الرطوبة المحملة بالأوساخ يصبح الهواء المستنشق فاسداً وتتسبب عنه أمراض وبائية. بينما الحال فى الإسكندرية (على غير ذلك) إذ أنه عند حلول فصل الصيف يفيض النيل فيملأ البحيرة أيضاً، ولايترك أى كواد وخمة قد ينجم عنها إفساد الأبخرة المتصاعدة، وفى ذلك الوقت أيضاً تهب الرياح الأتيسية[1] (Etesian) من الشمال، آتية من بحر شاسع فكان من أثر ذلك أن السكندريين يقضون أوقاتهم فى فصل الصيف وهم فى أسعد الأحوال وأهنئها.

ذلك هو الشق الأول من وصف استرابون للموقع الذى وقع عليه اختيار الإسكندر وهو وصف رائع ينم، ولا شك، عن رغبة فى تحرى الدقة ومعرفة وثيقة ببعض الظروف التى احاطت بالإسكندر، ومع ذلك قد جاء هذا الوصف خلواً من ذكر الأسباب الحقيقية التى حدت بالإسكندر لإختيار هذا الموقع بالذات واقتصر على ذكر المزايا التى لخصها وضمنها فى كلمة المزايا (Eukairia) فقال أولاً: إن هناك ميناءً طبيعياً مكوناً من وجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ الذى كان شكله على هيئة خليج. ولكن يجب ألا نقع فى الخطأ ويضللنا

(١) وهى الرياح الشمالية التى تهب على مصر وقد سماها استرابون بالأتيسية أى السنوية وهى تهب من الشمال الغربى طوال فصل الصيف.

ذلك الوصف الذى كتبه ذلك الجغرافى الذى لم يصف لنا الحالة التى كان عليها هذا المكان فى الوقت الذى أتى فيه الإسكندر، وإنما وصفه بعد إنقضاء ثلاثة قرون عليه وكان فيها عرضة لتغيرات وتطورات كثيرة فأدخلت عليه بعض التحسينات التى تطلبتها أحوال التجارة وظروف المكان الحربية والضرورات الاستراتيجية، وإنه لمن العبث أن نوجه اللوم إلى استرابون لأنه اقتصر فى وصفه على الحالة التى كان عليها المكان فى عصره ولم يذكر لنا شيئاً عن وصف الموقع كما كان يبدو للإسكندر وحالته من حيث صلاحيته لإنشاء ميناء. ثم أخذ استرابون بعد ذلك يذكرنا بأن المدينة تقع بين بحرين وسوف نرى بعد قليل أن هذه لم تكن ميزة حقيقية، وإنما كانت تكتنفها الصعاب وتعوقها طرق المواصلات البرية والنهرية حتى يتحقق اتصالها المباشر بنهر النيل[1]، وأخيراً أخذ استرابون يمتدح موقع المدينة الصحى وهواءها النقى العليل واعتدال مناخها، ولم يفته أن يصر على ذكر حقيقة هامة، وهى أن فيضان النيل لا يثير فى بحيرة مريوط انبعاث تلك الأبخرة العفنة التى يتسبب عنها أضرار كثيرة فى أثناء فصل الصيف[2]، ولكن الإسكندر لم يحضر إلى مصر إلا فى شهر نوفمبر، ولربما صمم على تأسيس مدينته فى شهر يناير أى فى صميم فصل الشتاء، والنتيجة الطبيعية لذلك أن هذا الأمر لم يكن هو الذى استرعى انتباهه، وإنما تحققت هذه المزايا كلها على مدى الزمان.

(١) مقال فان جرونتجن فى مجلة Raccolta Lumbroso صفحة ٢٠٥ .

(٢) استرابون ٧٩٣، ولقد امتدح الكثيرون جودة المناخ فى هذه المدينة وبالغوا فى ذلك إلى حد كبير انظر بلوتارك - الاسكندر ٢٦، ديودور الصقلى الكتاب السابع عشر، فصل ٥٢، ١ ثم Ammianus Marcellinus, XXII, 16, 7

الإسكندر واختيار موقع الإسكندرية

ولقد اتبع العلماء الحديثون، الذين تصدوا لمعالجة تاريخ الإسكندرية مثل أسلافهم فقصروا همهم على ذكر هذا الاختيار ووصفه بأنه تدبير حكيم من جانب الإسكندر من غير أن يحاولوا تفسيره . وهناك آخرون انبروا لذكر آراء مختلفة يجب أن نتقبلها بحذر شديد بعد تمحيصها – على أن هناك معضلة أشكل على الناس حلها وهى مع ذلك جديرة بأن نحاول تلمس السبيل إلى حلها. ففى أثناء فصل الشتاء الذى قضاه الإسكندر فى مصر متجولاً فى أنحاء البلاد أكان قد صمم منذ البدء على تأسيس مدينته؟ أم أن فكرة تأسيس هذه المدينة خطرت بباله فجأة وهو فى المنطقة ذاتها من غير سابق تدبير؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال لم يخطر ببال الكثيرين فإنه مع ذلك يستحق أن يطرح على بساط البحث لأنه يساعد على إدراك ماكان يجول بخاطر الإسكندر. ويبدو أن نية الإسكندر فى هذا الشأن لم تكن واضحة محدودة المعالم، وقد يفيد فى اجتلاء هذا الأمر تذكر تلك القصة المشهورة التى ذكرها استرابون[1] عن النقص فى الطباشير اللازم فى تخطيط البلدان واللجوء فى تخطيط حدود مدينته إلى استخدام الدقيق المخصص لمئونة العمال، ويستطيع المرء أن يسوق الدليل على أن ملكا يروم تأسيس مدينته فى هذا الموقع كان لابد أن يستصحب معه كل ما يحتاج إليه فى تنفيذ مشروعه هذا – وهو الأمر الذى لم يفعله الإسكندر.

وهناك حجج أشد قوة وأكثر جدية نسوقها للتدليل على وجود عنصر فجائى فى تصميم الإسكندر. كانت مصر محرومة من الموانى البحرية لدرجة أنها كانت فى حاجة ماسة لمعالجة هذا النقص بطريقة عاجلة، ومما لا جدال

(١) Arrian III, 2, 1-2, Curtius IV, 8, 6

فيه أن جميع الموانى المصرية كانت فى المقام الأول موانى نهرية، ولكن ميناء الفرما (Pelusium) فى شرق الدلتا وكانوبوس (Canopus) على مصب فرع النيل الغربى كانا بلدين تجاريين متمتعين بسمعة وشهرة فى كل مكان، بل إن الميناء الأول آوى اسطول الإسكندر، وفيما عدا ذلك لم يطرأ على الحالة العامة أى تغير كان يتطلب تغييراً مماثلاً[١] - وكانت أسهل الطرق للعمل على توثيق العلاقات بين مصر وعالم البحر المتوسط هى توسيع إحد الموانى الموجودة فى مصر من قبل وإداراتها بطريقة تكفل حسن الاستفادة منها وتتفق مع المبادئ والأساليب التى كانت تنطوى عليها المهارة الفنية عندالإغريق - وكان الطريق الذى سلكه الإسكندر إلى مصر هو طريق الشاطئ المهجور من الشرق حتى الفرما ثم ركب فرع النيل حتى ممفيس، ومها قفل راجعاً فى أحد أفرع النيل الأخرى حتى مصبه الغربى فى كانوبوس ليؤسس فى الحال مدينة تقع على مسافة بضع كيلومترات إلى الغرب منها، وعلى ذلك فهو لم يشاهد من كل الشاطئ الشمالى لمصر سوى جزء قليل الأهمية كان يقوم فيه من قبل ميناءان بحريان، فإذا كان ينتوى البحث بطريقة جدية عن أصلح مكان لتأسيس مدينة جديدة فإن الواجد كان يقضى عليه أن يزور الشاطئ كله ويفحص المصاب المختلفة لنهو النيل ليختار أصلح موقع يؤسس عليه مدينته ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وما يدرينا؟ فلعله كلف مهندسين من قبله كفوه مئونة هذا العمل،

(١) k. Lehmann - Hartleben, Die antiken Hafenanlagen des Mittelmeëres, 1923 p. 27.
وهو كتاب يتناول البحث فى تأسيس الموانى فى حوض البحر المتوسط جاء فيه عن تأسيس الإسكندرية هذه صفحة ٢٧ أن البقعة الواقعة غربى الدلتا كان مقدراً لها أن تظل منعزلة وعديمة الإتصال بالعالم الخارجى لبعدها عن مصب النيل وكان مصيرها أن تبقى على هذا الحال طالما كانت يعوزها ميناء طبيعى بحرى خاص بها.

فقاموا بهذه المهمة ورفعوا تقاريرهم إلى الملك. ولم يكن الرأى العام الإغريقى يجهل مصر وأحوالها التى وصفها لهم المؤرخ هيرودوت فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وصفاً رائعاً لايزال إلى أيامنا هذه ذا متعة وروعة وفيه طرافة. وكان الإغريق، فيما نعلم، مشغوفين دائماً بسماع القصص التى تروى عن مصر، تواقين إلى المزيد من معرفة أحوالها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. بل إن أبواب مصر كانت مفتوحة خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد للسائحين الأجانب الذين كانت وسائل زيارة المعابد ومشاهدة معالم البلاد وآثرها ومدنها ميسرة لهم بدون إقامة أية عراقيل أو التعرض لخطر إثارة أى اعتراضات يكون مصدرها تعصباً دينياً - فمصر إذاً لم تكن بلداً غريباً على المقدونيين، وسواحلها الشمالية بل الشرقية كانت معروفة لديهم ونيلها ومصابه فى متناولهم، فهل مع كل هذا يجوز القول بأن تأسيس الإسكندرية يرجع إلى تصميم فجائى؟

وفى الحق كان هناك أمر آخر ألهم الإسكندر فقام فى التو والساعة بتنفيذ ماجال بخاطره، فما هو ياترى هذا الأمر؟ قد نستطيع تلمسه وتبينه من مجموع تلك الأحاسيس والمشاعر التى سيطرت عليه وهو واقف على الساحل يقلب البصر فى مزايا ذلك الموقع الذى أجمع الكتاب على أنه بدا له فذاً، وقد ساعدتنا الحوادث التى وقعت فيما بعد على تفسير ذلك الأمر - ويؤكد الكتاب الأقدمون أن الإسكندر أعجب بالمزايا العظيمة، التى كانت عليها حالة ذلك الموقع، والمستقبل الباهر الذى كان ينتظره كمركز وسيط للتجارة. واستنبط الإنسان مما صادفته المدينة من تقدم ومما تمتعت به من نجاح لامثيل له فى حياتها المستقبلة أن كل ذلك كان فى الحسبان واضحاً جلياً فى ذهن مؤسسها، وكان له

اعتبار فى تقديره وقت أن أمر بتخطيطها[1]، وفى الحق أن إنقضاء ثلاثة وعشرين قرناً قد برهن على صحة هذا الاختيار وحسنه وصدق فراسة صاحبه، ولكن الإسكندر كان فى بدء هذه القرون الطويلة لا يملك لنفسه شيئاً ولا يعرف ما تخفيه الأقدار، وعلى ذلك يجب أن نستبعد من ذهننا الصورة التى كانت عليها هذه المدينة بعد اتساعها وتقدمها، ونحاول تصور حالة ذلك المكان وقت وصول ذلك الملك المقدونى الشاب - ولم تكن البقعة صحراء جرداء وإنما كانت تقوم عليها قرية متواضعة ضمت فى الحال إلى المدينة الحديثة النشأة - ولسنا نعرف سوى القليل جداً عن قرية راقودة هذه[2]، ولكن من المحتمل أن تلك القرية لم تكن ذات أهمية وبخاصة من ناحية العلاقات الدولية ولم تكن فى تنافس شديد مع كانوبوس. وفى رأى العالم «فان جروننجن»[3]. إن وجود تلك القرية لايفسر تصميم الإسكندر الذى لم ترق فى نظره فكرة إدخال تحسينات على راقودة وتوسيع مينائها. ولعل هناك سبباً آخر له طابع سياسى فراقودة قرية ليس لها تاريخ يذكر ولا مجد تالد، وإذاً فلا يخشى أن تصطدم المؤسسة الهيلينية الجديدة التى تقوم على أنقاضها بأى تقاليد أو نظم موروثة فيها، بل يرجى لها تقدم فى ظل الحضارة والثقافة الهيلينية غير هيابة أو وجلة من وطأة تقاليد وطنية قديمة.

ولقد قيل فى معرض الكلام عن اختيار موقع الإسكندرية أن إحدى

(١) Holm, Griech Gesch. III, 380 «ولقد رأى (الاسكندر) فى هذه البقعة مكاناً بدت له صلاحيته لتأسيس مدينة عظيمة، وجاء فى مؤلف آخر العبارة الآتية: إن الاسكندر «كشف عن هذا الموقع بقوة أولى البصيرة العارفين بما تخفيه الأقدار».

(٢) انظر فى دائرة المعارف الألمانية "Pauly Wissowa" مقالاً للعالم بورشارت (Burchardt) عن راقودة.

(٢) فان جروننجن فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ ص٢٠٥ .

الميزات الكبرى التى كانت لهذا الموقع أن الرواسب النهرية التى كان يحملها نهر النيل إلى مصبه كان ينقلها نحو الشرق تيار آت من الإتجاه المضاد، وقد لاحظ مهندسو الإغريق أن الموانى الواقعة عند مصاب الأنهار كانت مهددة بأن تسد بالعوائق والرواسب والكثبان الرملية، وأنه كان من الأفضل أن تنقل هذه الموانى قليلاً إلى الشرق أو إلى الغرب، ذلك إلى أن نظام التيارات المائية فى شرق البحر المتوسط يعرض الموانى الساحلية ثمة لأن تسد بالرواسب. أما الإسكندرية فلا تعتريها هذه الشائبة. ومن المحتمل أن يكون اليونانيون الساكنون فى نقراطيس قد اطلعوا الإسكندر على هذه الحقيقة - وكان إنشاء الموانى العظيمة المعروفة فى العصور الهيلينية لايتم إلا بعد القيام بأعمال كثيرة واسعة النطاق، ولكن تكوين الساحل الشمالى الغربى لمصر ووجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ ربما أثار فى نفس الإسكندر فكرة القيام بهذه الأعمال بل سهل تنفيذها، وكان وجود بحيرة مريوط خلف هذا الموقع وإتصالها بالنيل قد اتاح فرصة وجود ميناء المياه سهل تنفيذها، وكان وجود بحيرة مريوط خلف هذا الموقع واتصالها بالنيل قد اتاح فرصة وجود ميناء عذب المياه سهل الاتصال من كلا جانبى البحر والنهر.

كل هذه حجج آثارها بعض الكتاب لتدبير اختيار الإسكندر لهذا الموقع ولكن انبرى علماء آخرون فى مقدمتهم العالم الألمانى (ڤلكن U. Wilcken) وقالوا إن هذه حجج ليست ذات قيمة على الإطلاق ويمكن تفنيدها بسهولة[١]

(١) يبدو أن هذا الرأى راق لدى المؤرخ ڤلكن فى كتابه Wilcken, Grundzüge p. 14 No. 3 وفى مقالة الممتع وعنوانه Alexander und die Hell. Wirtscaft, Schmollers' Jahrbuch 1921, p, 356. وكذلك لدى العالم «ڤان جرونجن» فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ صفحة ٢٠٥ .

فوجود تيار بحرى لم يكن من الأمور التى تلاحظ فجأة، ومن الناحية الأخرى فإن الشخص الذى كان يتقدم بإقتراح بناء ميناء فى ذلك العصر كان يفضل موقعاً بجوار مصب نهر، ولكن هذا لا يفسر السبب الذى كان يعرض من أجله مثل هذا الإقتراح. وفوق ذلك فإنه فى الحالة التى نحن بصددها كان وجود جزائر وصخور على مقربة من سطح الماء فى حوضى ميناء الإسكندرية[١] من الأمور التى قد تجعل المرء يصرف النظر عن مشروع قائم بدلاً من أن يؤيد اقتراحاً كان لايزال فى دور التمهيد – وهناك صعوبة أخرى لابد أنها عرضت لأولى الأمر وهى أن المواصلات بين البحر المتوسط والنيل، وبمعنى آخر طرق المواصلات المستخدمة حلقات اتصال بين التجارة الوطنية والتجارة الخارجية بقيت دائماً أمراً معقداً جداً فى الإسكندرية بل وأكثر من ذلك أن الميناء الرئيسى هو وحده الذى كان له إتصال مباشر بالنهر ويربطه به طرق مواصلات مباشرة[٢]، ومالم يلجأ المرء إلى وسائل النقل البحرى، وهى طرق كانت دائماً فى حالة رديئة وباهظة التكاليف فإنه كان يجد لزاماً عليه أول الأمر أن يعبر جسر الهيبتاستاديوم بوساطة إحدى القنوات المعدة لهذا الغرض، ثم يمر بعد ذلك بميناء كيبوتوس (Kibotos)، ثم بقناة حتى يصل إلى بحيرة مريوط ومنها يصل فى النهاية إلى النهر بوساطة سلسلة من القنوات، وعلى ذلك فإن تلك الميزة التى تمدح بها الكتاب وقالوا إن موقع الإسكندرية اختص بها وهى وقوعها «بين بحرين» ليست فى الواقع ميزة واضحة[٣]، بينما كان موقع كانوبوس من حيث

---

(١) انظر سترابون الكتاب السابع عشر قسم (٧٩١).

(٢) Lehmann - Hartleben, Op. Cit. p. 133

(٣) ذلك هو رأى المؤرخ «فان جروننجن» فى مقالة ص٢٠٥ حيث قال: "l'avantage e la situation d"Alexandrie entre deux mers n'esl donc pas três réel"

سهولة مواصلاته المباشرة بالنهر ووفرتها يفضل بكثير موقع الإسكندرية - وهناك صعوبة يجب ألا نغفل ذكرها، بل نقدر لها حساباً فى تصميم الإسكندر، وهى أنه لم يكن يوجد فى ذلك الموقع مايمكن أن يسمى بميناء طبيعى لأن الأمر كان يتطلب القيام بأعمال ومنشآت عظيمة على نطاق واسع حقاً، كيما يعد الإسكندر أو بالأحرى ينشئ ميناءً صناعياً فمن أرصفة ممتدة على طول الشاطئ والجزيرة، إلى إقامة الحواجز والسدود التى تصلح لمد رأس لوخياس، إلى ربط عدة جزر وصخور بفاروس، وإقامة المنار على طرفها الشرقى، وإلى إنشاء ماكان يسمى بالميناء الصغير (Limén Kleistos) الذى كان الدفاع عنه من السهولة بدرجة كافية. وكان الجسر الهائل الشهير «بالهيبتاستاديوم» هو العمل الرئيسى، والعنصر الأساسى فى ميناء الإسكندرية الصناعى الذى أثار اهتمام الناس ودهشتهم لضخامته وطوله البالغ أكثر من مائتين وألف متر[١].

وإذا ضربنا صفحاً عن كل تلك الملاحظات، وتسرب إلينا الشك فى أنها هى الدافع للإسكندر فى تأسيس الإسكندرية، أصبح فى اعتقادنا أن نتيجة واحدة هى الماثلة، وهى أنه من الخطأ أن نعتقد أن الحالة الطبيعية لذلك المكان كانت تدعو أو تشجع على تأسيس مدينة كان مقدراً لها أن تصبح مركزاً للتجارة العالمية، وإذن جاز لنا أن نقلب البصر باحثين عن حافز آخر، فلابد أن هناك عاملاً آخر ذا طابع خاص دفع بالإسكندر فى هذا الإتجاه، فأغفل الصعوبات، وأقدم على الإذن بتنفيذ هذا المشروع الهائل، فما هو ياترى؟

(١) Lehmann Hartleben, op. cit. p. 132

تشابه موقعي صور الإسكندرية

عادت فجأة إلى ذهن الإسكندر صورة ربما أبعدتها عن فكرة حوادث الأشهر السابقة فأيقظت فيه بعض الذكريات الحديثة العهد، وصادفت هوى ورغبة من نفسه، وفى الحقيقة عندما وصل الإسكندر، بعد القيام بجولة فى بحيرة مريوط طاف فيها بسواحلها، إلى نقطة من الشاطئ حيث كانت جزيرة فاروس تستلفت نظر الرائى، بدا له أنه اصبح يتمثل صورة ذهنية حديثة العهد، وأن هذا المنظر يذكره بحوادث الأمس القريب، فأصبح يرى جزيرة أخرى أتاحت له الظروف أن يرابط فيها مدة أطول مما كان ينتظر، وفى خلالها وقف على أحوالها بدرجة أكبر مما كانت تصبو نفسه إليها - تلك هى مدينة صور (Tyre) العتيدة التى عطلته وأوقفت تقدمه إلى الجنوب مدة سبعة أشهر كان خلالها دائب التفكير فيها من الشاطئ الأسيوى المقابل، وهى رابضة فى عرض البحر تتحدى جيشه وأسطوله، ولكى يتغلب عليها كان مضطراً أن يبنى جسراً يربطها بالقارة. وعندئذ رأى أنه نجم عن ذلك تكوين حوضين واسعين، وأنه لم تعد صور تلك المدينة التى كانت منعزلة فى جزيرة قابعة فيها لأسباب الطمأنينة، وإنما غدت - وقد ارتبطت بشاطئ القارة بجسر - ذات ميناء مثالى من النوع الذى كان يفضله الإغريق - ولاشك أن كل تلك الاحتمالات قد خطرت بباله، وبدت له سهلة التحقيق فى تلك البقعة التى حط فيها رحاله[1]، ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على مصور للبلدين - صور والإسكندرية - لنتحقق من صحة هذا الزعم، فالجسر الذى يربط مدينة صور القديمة المنعزلة فى جزيرة متاخمة للساحل بالقارة يشبه نظيره الذى يربط شاطئ الإسكندرية

(١) انظر مقال العالم «فان جرونجن» فى مجلة Raccolta Lumbroso سنة ١٩٢٥ صفحة (٢٠٦)

بجـزيرة فـاروس، بل إن هناك وجـه شبـه رائع بين الحـالتين، فيـمـثل جـسـر الهـيبتـاستـاديوم نظيره الذى بناه الإسكندر ليـهـاجم منه مـدينة صـور القـديمة المعتصمة بأسوارها متحدية حصار الإسكندر مدة سبعة أشهر طوال. ولا يوجد أى إختلاف بين الحالتين إلا فى التفاصيل. ففى حالة صور كان الجزء الواقع على الشاطئ الأسيوى ضاحية مأهولة بالسكان ذات أهمية كبيرة، ثم كان هناك حى ثان شـامل لكل الجـزيرة، ويربط بين الإثنين جـسـر يفـصل حـوضين صناعيين كبيرين. وفى حالة الإسكندرية كان الجزء الواقع على ساحل القارة هو الجزء الرئيسى. ويظهر أن الإسكندر وهو واقف على حافة الشاطئ الإفريقى وهو أشبه بالشريط (Tainia) الذى يفصل بحيرة مريوط عن البحر، أخذ يقلب البصر حوله فكان يرى أمامه جزيرة فاروس، وهى أول جزيرة وقع عليها نظره بعد جزيرة صور، فتصور أنه واقف أمام صور مرة أخرى يرقبها من الشاطئ الفينيقى وهى رابضة تتحداه، فإلتفت إلى من حوله وكأنما هو يبتدرهم بقوله «هنا صـور أخرى» ذلك هو مبلغ تصـورنا لما كان يدور بخلده. ولا شك أن هذا الشبه القريب بين حال صور وموقع فاروس فى عرض البحر وعلى مقربة من الشاطئ هو الذى استرعى نظره ووجهه إلى السبيل الذى اتخذه وذلك هو الأمر الأول الذى جعل الإسكندر يؤسس مدينته فى هذا الموقع الذى أعاد إلى ذكراه تلك العاصمة الفينيقية الشهيرة التى كان يحاصرها بالأمس القريب.

ولكن هذا الشبه وحده لا يكفى، فمن الواضح أنه كان هناك أمر آخر أبعد من ذلك، لأننا نكون مسيئين إلى ذكاء الإسكندر ومتجنين عليه إذا قلنا إن مثل هذه الفكرة وحدها، وهى ذكرى صور التشابه بين موقعها وموقع فاروس، هى التى جعلته يسلك هذا السبيل وأوحت إليه بإتخاذ قراره. فالأمر الذى كان يمثل

بالضبط عظمة الإسكندر وقوة روحه ونفسه الوثابة هو أنه كان قد توافر له بالإضافة إلى خياله الإنشائى الفذ ذكاء خارق للعادة استطاع به أن يكون منطقياً فى تفكيره، يحسب لكل أمر حسابه فى تقديره، ولكل فكرة مقدمتها ونتائجها الطبيعية المنطقية، ولم يكن من عادته أن يفكر فى مشروع أو يقدم على تنفيذه إذا لم يضمن لنفسه جنى الثمار من ورائه، أو لم يكن قد رسم لنفسه من ورائه غاية معلومة محددودة يرمى إلى تحقيقها، فلابد أن الأمر كان كذلك فى حالة تأسيس الإسكندرية. ولقد برهن الإسكندر على أنه كان فى آرائه يرمى بدرجة كافية إلى التعميم والشمول لا إلى القصر والتحديد. فإمبراطوريته كانت ذات طابع عالمى، وكانت شئون السياسة وخطط الفن الحربى والتجارة من الأمور التى تعنيه فى الصميم، ولها إعتبارات هامة فى نظره، وإذا كانت المسائل الإقتصادية موضع عناية ملك قديم كالإسكندر فلاعجب فى ذلك لأنه عاش فى عصر اتجهت فيه عناية الإغريق إلى الشئون الرقتصادية بتنمية موارد البلاد التى نزحوا إليها[١].

وفى مقال رائع للعالم فلكن (Wilcken) عن «الإسكندر الأكبر والحياة الإقتصادية الهيلينية»[٢]. صور المؤلف الإسكندر أحد عظام الكاشفين فى تاريخ العالم، وكان الإسكندر فى هذا المعنى إغريقياً صميماً، إذ صحب فتوحه فى آسيا الغربية ومصر استعمار واستطيان على نطاق واسع كان الغرض منه بالتأكيد اقتصادياً كما كان حربياً. وكان هذا الغرض الاقتصادى واضحاً تماماً فى رأس

(١) W. Westermann, Greek Exploitation of Egypt, Political Science Quarterly 1925, vol. XL.

(٢) U. Wilcken, "Alexander der Grosse und die Hellenistiche Wirtschaft" in Schmollers' Jahrbuch vol. 45, (1921) p. 357.

الإسكندر، فلاعجب أن صحب غزوه لتلك البلاد تغلغل اقتصادى واستغلال مادى لتلك المساحات الشاسعة التى فتحها الإغريق والمقدونيين. ولقد طبع هذا الاستغلال بطابع الدقة، نظراً لما عرف عن أولئك الغزاة من المهارة والتفوق فى شتى الميادين السلمية فوق تفوقهم فى الميادين الحربية. وعلى ذلك تميز عصر الاستعمار المقدونى الإغريقى فى عهد الإسكندر وأخلافه بإستغلال تجارى واقتصادى من طابع جديد تضمن تغلغل ألوف مؤلفة من المقدونين والإغريق ومن هم على شاكلتهم إلى داخل البلاد المفتوحة، وتسربهم إلى داخل تلك المهاجر زرافات ووحداناً. وقد هيأت الحكومات المقدونية القائمة السبل أمامهم للإستفادة من مهارتهم الفنية، وخبرتهم الواسعة فى إدارة الأعمال، ومقدرتهم على استغلال تلك المساحات الشاسعة من الأراضى الخاضعة استغلالاً اقتصادياً منظماً – ولقد توافرت لدى الإغريق خبرة خاصة بفن بناء السفن، فلما غزا الإسكندر غرب آسيا الصغرى وساحلى الشام وفلسطين أصبح فى حورته أهم المراكز لبناء السفن والصناعات المتصلة بها فى العالم المتحضر إذ ذاك. ولقد ساعد ذلك الإشراف الذى آل إلى أيدى المقدونيين وكان يكون كاملاً على كل مراكز بناء السفن فى تلك المنطقة على إحكام ذلك الإستغلال المقدونى الإغريقى المنظم فى غرب آسيا ومصر وبلاد شرق البحر المتوسط فى الثلث الأخير من القرن الرابع والقرن الثالث – وفوق ذلك فلقد توافر لدى الإغريق قبيل فتوح الإسكندر تقدم فنى فى بناء الموانى أكسبهم ميزة فى ذلك العصر. فالموانى المحصنة وغير المحصنة قد بنيت وفق نماذج إغريقية وبفضلها استطاع أهل صور تحدى الإسكندر مدة سبعة أشهر – ومما لاشك فيه أن المهندسين الإغريق فى أيام الإسكندر أوتوا حظاً عظيماً من الشهرة ومركزاً رفيعاً من التفوق

فى مهنتهم من حيث الفن النظرى والتطبيق العملى، فكان الأنموذج الذى ابتدعه المهندس العالمى هيبوداموس الميليطى (Hippodamus) الذى اشتهر بفن تخطيط البلدان مسيطراً فى العالم القديم، اقتبسه الجميع مدة أجيال. وكانت مشروعات الدمن العديدة التى أمر الإسكندر بتخطيطها فى المستعمرات معتمدة فى أساسها على النظم المرعية فى تخطيط هيبوداموس هذا للبلدان. ويبدو هذا واضحاً جلياً فى حالة الإسكندرية، وكان دينوكراتيس المقدونى (Deinocrates) الذى يرجع إليه الفضل فيما تم من مقاييس وتخطيط لمدينة الإسكندرية أحد هؤلاء المهندسين الذين كانوا يعملون وفق الخطة التى ابتدعها هيبوداموس - ولاشك أن بناء ميناء الإسكندرية كان فى ضمن الخطة الأصلية لبناء مدينة الإسكندرية كما وضعها دينوكراتيس. ومع هذا المهندس جاء ذكر زميل له يسمى كراتيس (Crates) من أهل ألينثوس (Olynthus) كان يلقب بالمهندس المختص بعمل النفق والسراديب (Taphrorychos) وكان مكلفاً بالعمل فى ميناء مدينة الإسكندرية. ويمكننا أن ننسب إليه القيام بوضع تلك الشبكة من مجارى المياه والصهاريج تحت سطح الأرض فى مدينة الإسكندرية لحمل المياه العذبة إليها فى الزمن القديم[1] من أحد أفرع النيل.

تلكم هى بعض مزايا الخبرة والمهارة الفنية والمقدرة على القيام بالأعمال والمنشآت والرغبة فى البحث والإقبال على عمل التجارب التى توافرت لإغريق ومقدونيى هذا العصر الذين تغلغلوا فى آسيا الغربية ومصر فى أعقاب حملة الإسكندر تؤيدهم الحكومات المقدونية المتعاقبة - ويمثل ذلك الروح المنطوى على التفوق فى المشروعات والقدرة على تنظيم الأعمال هبط الإسكندر على

(١) دائرة المعارف الألمانية Pauly Wissowa Real. Encycl. جزء أول صفحة (١٣٨٢).

مصر بخيله ورجله تحدوه رغبة أكيدة فى استغلال البلاد استغلالاً اقتصادياً. وقد توافر لديه عدد كبير من الخبراء والاقتصاديين كانوا خير عون له فى إبراز مشروعاته إلى الوجود.

وهناك اعتبار آخر كان له قيمته فى تقدير الإسكندر - ذلك هو القيمة الحربية والموقع «الاستراتيجى» الذى كان لمدينة الإسكندرية. ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الإسكندر كان ينوى أن تمثل الإسكندرية نفس الدور الذى مثلته صور ولاشك أنها كانت قادرة على تمثيله. فالإسكندر كان إذ ذاك سيداً على كل الساحل الشرقى للبحر المتوسط والممالك المطلة عليه ولم يكن ذلك الفاتح الغازى، الذى خاض غمار حروب من عدة سنين، قد وصل إلى غايته وضالته المنشودة بعد، فلابد أن يكون بالطبيعة قد فكر فى المزايا «الاستراتيجية» لميناء حصين مؤسس على الشاطئ المصرى وكان الإسكندر يدرك تمام الإدراك أن من يمتلك الإسكندرية على هذا الشاطئ الإفريقى تصبح مصر ولاشك فى قبضة يديه بل تؤول إليه السيطرة على شرق البحر المتوسط كما ضمن الفرس بإمتلاك صور السيطرة عليه من قبل - لم يغب هذا الاعتبار عن السكندر وإنما فهمه جيداً كما كان يفهمه الفرس من قبله والرومان من بعده[1] - وعلى ذلك كان فى تقدير الإسكندر لمؤسسته الجديدة أهمية لم يكن فى ميسور نقراطيس (Nau-cratis) القديمة - وهى المركز التجارى البحت - أن تحققها[2].

وإن فى إصرار كثير من العلماء على أنه لهذه المؤسسة الحديثة أهمية

(١) لم تخف أهمية الاسكندرية وموقعها الحصين على الرومان فى حرب الإسكندرية Bellum Alexandrinum المنسوبة إلى يوليوس قيصر أو بالأحرى هرتيوس (Hirtius) فى الفصل السادس والعشرين، (Tacitus, Annals, II, 59)

(٢) M. E. Cavaignac, Hist. de l'Antiq. III p. 432

حربية شئ كثير من الصدق، ولكن يأتى فى المقام الثانى بعد ذلك مباشرة الأهمية التجارية، والدلائل على ذلك كثيرة، منها أن الإسكندر لم يحاك أنموذجه مراعياً الدقة فى إخراج صورة الإسكندرية على نسق «صور» بإتخاذه من جزيرة فاروس الحى الرئيسى فى مدينته، وإنما جعل الحى الرئيسى على شاطئ القارة الإفريقية، ثم إن الاتساع الذى كان عليه حوضا الميناء كان يفوق الحد المعروف فى ذلك العصر، ثم آخر الأمر كان اتساع رقعة المدينة نفسها من الأمور الدالة على نيات الإسكندر التى كانت تنطوى على أنه لم يكن يقصد أن يجعل من مدينته هذه مجرد حصن وميناء حربى وإنما أرادها سوقاً عالمية. لقد خرّب صور لأنها قاومته ولربما جد فى الأمر بعد سنين قليلة ما جعله يندم على فعلته تلك وإنتقامه من صور على هذا الوجه العنيف. ومهما يكن من أمر فإنه من الجلى أن أهمية الإسكندرية التجارية كانت أحد المقاصد التى كانت تدور بخلد مؤسسها وهذه هى الحقيقة فى الفكرة التى قال بها أرسطاطاليس الزائف[١] وهى أن الإسكندر أمر بأن «تبنى مدينته بالقرب من فاروس وأن يجعل السوق (emporium) بها أعظم من السوق الواقعة على كانوبوس». أما «چستن»[٢] (Justin) وهو أحد الكتاب الناقدين للإسكندر غير المشفقين عليه، فلقد ذكر رأيه فى تأسيس الإسكندرية فى عبارة تنم عن سوء القصد نحو الإسكندر بقوله: «إن الإسكندر بعد عودته من واحة آمون أسس الإسكندرية وأمر بأن تكون مستعمرة المقدونيين هذه عاصمة لمصر» ولكن من الصعب تصديق القول بأن الإسكندر قصد أن يسئ إلى الشعب المصرى، الذى أحسن استقباله وتلقاه بالترحاب،

(١) Pseudo-Aristotles, Oecon. II, 33

(٢) Justin, XI, II, 13 (Reversus ab Hammone Alexandream Condidit. et Coloniam Macedoum Caput esse Aegypti jubet)

بإصدار أمره بأن تكون مستعمرة للمقدونيين عاصمة لمصر. وزيادة على ذلك فليس من الدقة فى شئ أن نتحدث عن وجود مستعمرة للمقدونيين فى الإسكندرية، ولعله من الخطر أن نعترف بأن الإسكندر بادئ ذى بدء قد رغب فى أن تحل الإسكندرية كعاصمة محل ممفيس القديمة التى بقيت مدة قرون بعد ذلك العاصمة الحقيقية لمصر المصرية(١).

وعلى ذلك يمكننا أن نقول بحق إن عوامل مجتمعة صاحبت هذا الاختيار فهناك من ناحية عوامل ذات طابع اقتصادى، ومن ناحية أخرى عوامل ودوافع ذات صبغة حربية وسياسية. وتلك العوامل مجتمعة هى التى حسمت الموقف وجعلت الإسكندر يقدم فى غير تردد على إصدار أمره بإنشاء مدينة الإسكندرية التى اصبحت مركزاً للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقى وأفقاً تشرئب إليه أعناق سكان مصر قاطبة وحلقة اتصال بينهم وبين عالم البحر المتوسط المتحضر، فكانت تلك المدينة تستخدم ميناء لنقل المتاجر فى جنوب شرقى البحر المتوسط ويأتى فى المقام الثانى أنها أصبحت مدينة قوية يسهل الإتصال بها والوصول إليها، فوق أنها مكنت الإسكندر من فرض سلطانه ونفوذه على مصر التى كان يعرف جيداً مبلغ مابها من ثروة وما فى بطنها من خيرات وكنوز، فعمل على ربط مصر برباط وثيق ببقية إمبراطوريته التى أرادها أن تكون وحدة كاملة، وهذا يجعلنا ننظر إلى تأسيس الإسكندرية على أنه حلقة فى نطاق واسع شامل لمجموع آمال الإسكندر وأطماعه. وهناك اتفاق فى الرأى بأن سياسة الإسكندر كانت فى تطور وأن أفكاره كانت تتسع بنسبة اتساع فتوحه

(١) بيورى - تاريخ اليونان صفحة ٧٧٢ - ٧٧٣ حيث يقول إن القصد من إنشاء الاسكندرية لم يكن حلولها محل ممفيس كعاصمة للبلاد المصرية بل قصد مؤسسها الأول أن تحل محل صور كمركزتجارى فى غرب آسيا وشرق البحر المتوسط.

وامتداد آفق آماله، وكان تحقيق مشروعاته هذه يخلق أفكاراً جديدة أوسع مدى وأبعد أفقاً وأعمق أثراً[١].

وإن خطة الإسكندر، التى كان ينتوى تنفيذها غداة حصار صور، لتثبت أنه كان يعتبر نفسه من قبل سيداً على مملكة الفرس[٢] ولكن تأسيس مدينة على نطاق واسع على الشاطئ الأفريقى، قدر لها أن تسهل طرق المواصلات بين البلاد المصرية والعالم الهيلينى وأن تتركز فيها التجارة البحرية، يتيح لنا زن نستخلص نتيجة شائقة هى أن الإسكندر كان يعتبر دائماً أن البحر المتوسط هو النطاق الطبيعى لأمبراطوريته والمجال الحيوى لها، وما العالم الإيجى والهيلينى إلا القلب النابض والسر فى وجود هذه الإمبراطورية، فلما توغل فيما بعد فى قلب مملكة دارا أخذ يحسب حساب اتساع هذه الفتوح ومطالبها وحاجاتها الضرورية، وعندئذ أخذ يدرك أن أهمية البحخر المتوسط لم تعد أساسية بالنسبة له، فهناك المحيط الهندى الذى اصبح يمثل دوراً لايقل أهمية عن دور البحر المتوسط بالنسبة لذلك الجزء الآخر من امبراطوريته - وعلى مضى الزمان اصبحت بابل القديمة هى المركز الإدارى والاقتصادى فى ملك الإسكندر الشاسع المترامى الأطراف، بينما لم تصبح بلاد الإغريق سوى ولاية متطرفة واقعة على حافة الحدود الغربية لمملكته، ولما أخذ الإسكندر يدرك حقيقة الأمر ويتبين الموقف من جميع نواحيه لابد أن تكون أفكاره عن مدينته المصرية أخذت فى التغيير وبدأت آراؤه إزاءها فى التعديل لأنه وجد أهميتها بالنسبة له

(١) مقال فان جرونجن (Raccolta Lumbroso) سنة ١٩٢٥ سلسلة مجلة "Aegyptus" صفحة (٢١٠).

(٢) Arrian II, 17;Kaerst p. 374 n. 1.

قلت كثيراً عن ذى قبل[1]، وهكذا قيل إن آراءه قد تغيرت فى سنيه الأخيرة وأنه لو عمر لأعاد صور سيرتها الأولى، فلو قدر له أن يعمر أطول مما كان لكى يصقل مشروعاته ويشكلها بشكلها الأخير لفضل على الإسكندرية مدينة أخرى تكون مركزاً تلتقى عنده شرايين الطرق التجارية، وقضى الأمر ولم تعد مصر التى – كانت غرابتها دائماً عقبة كأداء فى سبيل اليونانيين – الدولة التى كانت الظروف الطبيعية تتطلب منها القيام بدور هام عظيم فى مجموع العلاقات الدولية وإنما أصبحت فينيقيا الدولة ذات الموقع المثالى من وجهة النظر التى كان الإسكندر يحرص على تحقيقها فى سنيه الأخيرة بعد أن بعد أن دالت دولة الفرس، فكانت هذه الدولة الفينيقية تؤدى رسالتها هذه مدى أجيال طويلة وحلقة اتصال دائم بين وادى الفرات والعالم الغربى، وفى الحقيقة كان فى وفاة مؤسس الإسكندرية ضمان لمستقبل تلك المدينة فى التفوق وبلوغ المنزلة الممتازة، ومهما يكن إدراك الإسكندر وطموحه إلى توحيد الشرق والغرب فإنه إلى سنة ٣٣١ ق.م كان لايزال ملكاً على مقدونيا وقائداً أعلى لبلاد اليونان وبطلاً لأوربا، ناصراً لها على آسيا، ولكن كلما اتسعت آفاق فتوحه شرقاً، أخذ يشعر بأنه أصبح خليفة الملك الفارسى العظيم، وأن بلاد اليونان ومقدونيا أصبحتا جزءاً صغيراً من أملاكه الواسعة، وعلى ذلك ظهر له أن ميناء يتصل مباشرة بأملاكه الأسيوية يكون أنفع له من ميناء بعيد كالإسكندرية، ولكن الحمى القاتلة التى اصابته فيما بين النهرين (Mesopotamia) أخرجت تقرير ذلك المصير من يده، ولما مات فى سنة ٣٢٣ ق.م كانت المدينة الجديدة لايزال مقدراً لها أن تخلف صور فى التفوق التجارى فى شرق البحر المتوسط.

(١) فان جروننجن – المقال السابق ص٢١٠، بل (Bell) مجلة الآثار المصرية عدد ١٣ سنة ١٩٢٧ ص١٧٢-١٧٣.

ولم يكن من المستحيل على الإسكندر، الذى اشتهر بالفطنة وثاقب الرأى والغيرة الشديدة أن يمحو الفوارق التى كانت توجد بين الأمم المختلفة فى مملكته الشاسعة وأن يجعل منها مجموعة واحدة يتمثل فيها الإنسجام والإتساق التام وأن يعيد إلى صور أهميتها ومجدها القديم، وعلى ذلك كان الأمل فى أن يتحقق لمدينة الإسكندرية المصرية النجاح الكامل مشوباً بالمخاوف وتنتابه المخاطر متى استقر الإسكندر فى بابل واتخذها مقراً لملكه، بينما كان الأمل فى أن يتحقق النجاح التام لمدينة الفرما التى ثبتت أهميتها الحربية من قبل[1] أو لميناء أخرى على البحر الأحمر. أقوى وأشد - وإذا تساءل الإنسان عما هو سر النجاح العظيم الذى صادفته هذه المدينة على الرغم من كل هذه الأمور فلا يكفى أننقول مع بوسنياس (Pausanias)[2] ،إنه ذلك الحظ السعيد (Tyche) الذى حبا السكان أنفسهم وخصهم برعايته، بل نستطيع أن نجمل القول فننسب ذلك التقدم العظيم الذى صادفته الإسكندرية إلى فشل مشروعات الإسكندر فى نسيه الأخيرة فكان فى موت الإسكندر الفجائى خلاصاً للمدينة، فلم تتحق فكرة إمبراطورية واحدة عظيمة شاملة للعالم المتحضر، يكون مركزها وعاصمتها بابل، وأصبحت الولايات المختلفة ممالك مستقلة، كانت مصر إحداها وتمثل وحدة لا تتجزأ وتحتل مركزاً ممتازاً، وقد توافرت لها ثروة طبيعية لا تنفد، استغلها ملوك مستنيرون هم البطالمة الذين أوتوا قسطاً عظيماً من الفطنة والذكاء فيسروا السبل وعملوا على تحسين أحوال البلاد الإقتصادية، فكانت المدينة الجديدة التى اتخذت مقراً للحكم أول من أفاد من هذه النهضة الإقتصادية التى عمت أرجاء البلاد، وأخيراً بقى البحر المتوسط مثلما كان من قبل مركزاً لحضارة هيلينية أوربية، وبقى الفرس أمة شرقية تماماً، وبذلك ضاعت الفرصة على فينيقيا

(١) Arrian III, 5, 3

(٢) Pausanias, VIII, 33, 3; Van Groningen, Raccolta Lumbroso p. 211

وظهر أن المزايا التى تستطيع أن تقدمها قليلة القيمة محدودة النفع، وأخذت الإسكندرية تسير قدماً بخطى واسعة إلى مستقبل باهر وحظ وافر دون أن يعرضها منافس خطر تخشى جانبه وتقيم له وزناً، وأخذت تتدفق إليها المتاجر من كل صوب ويفد إليها الغادون والرائحون، وقد هبطوا إليها ملبين نداء ملوكها البطالمة الأولين وقد حملوا فى نفوسهم آمالاً عريضة وأفكاراً جديدة وخبرة واسعة بأساليب الفن الحديث فى الاقتصاد والحرب، فكانوا لملوكها العون ونعم العون، ولمصر مصدر النشاط والقوة الفعالة فى نهضتها فانتشروا فى ربوع مصر تحدوهم رغبة أكيدة فى الإفادة والنفع ولكن لم يتحول أفقهم فى هذا أو ذاك عن الإسكندرية التى ظلت أعناقهم مشرئبة إليها دائماً، وقد اتجهوا إليها بقلوبهم وحجوا إليها فى الأعياد والمواسم وذكرى ميلاد الملوك وتوليهم الملك[1] فكانت المدينة تفيض عليهم بهجتها وزخرفها ومسراتها وحبورها ونضرتها - تلك هى الإسكندرية التى لم تختلف قط عما قدر لها فقد استقر فيها إذ ذاك إناس على جانب كبير من النشاط أشربوا روح التجديد وتميزوا بمقدرة تجارية خاصة وكانت هذه المدينة على بلد خصوبته مضرب الأمثال ويسكنه شعب نشيط ويتصل بالطرق التى تؤدى إلى البحر الأحمر والممالك التى تنتج التوابل، وله ميناء أصبح بعد إتمام الأعمال الضرورية، يساوى أفضل الموانئ فى العالم القديم، وقد كتب لهذه المدينة أن تكون العاصمة التجارية للشرق، ويظهر أن الإسكندر لم يكن ينوى أن يجعل مؤسسته عاصمة البلاد، وربما أقام ممثله فى ممفيس وحكم منها البلاد ولم يحدث موت الإسكندر أى تغيير عاجل فى هذا الشأن.

---

(١) وهذه الحفلات مثل Pentaeteris, Arsinoeia, Ptolemaea وكانت الأخيرة تعقد مرة كل أربع سنوات.

وبموت الإسكندر انـهار ذلك البناء الشـامخ الذى تعب فى إقامـتـه وتداعت أركانه، ومع ذلك فإن النبوءات التى تنبأت بعظمة الإسكندرية المستقبلة لم يثبت خطؤها وبطلانـهـا، وإذا كـانت الإسكندرية عـجـزت عن أن تصل إلى تحـقـيق سيطرتها وسلطانها على العالم القديم[١] فإن مزايا موقعها الفذ بقيت، وفوق ذلك فقد ساعد على تقدمها لحد كبير سلطان البطالمة وقوتهم وكذلك ضعف الممالك المجاورة، فكانت طبيعة المدينة وقوة البطالمة تحميها ضد كل أصناف العدوان وصروف الحدثان، ولم يصادف تقدمها السريع مثل تلك الإنقلابات العنيفة التى كـانت سبـبـاً فى تخـريب آسـيا، ولما عـجـز جيش بطليـموس الأول عن حـمـاية عـاصـمـتـه ضـد الغـزاة من أخـلاف الإسكندر وهمـا برديكاس (Perdiccas) وانتـيـجـونس (Antigonus) قـامت الرياح والنيل بالقـضـاء على أولئك الغـزاة وتشتيت شملهم، ومصر التى يكتنفها البحر المتوسط والبحر الأحمر وتحيط بها الصحراء من الشرق والغرب، وقد اصبحت معدة احسن إعداد لأن تصير مملكة قوية مهيبة الجانب، آمنة مطمئنة من غائلة العدوان، فهى مملكة ذات حدود طبيعية يكاد يكون العدوان عليها واجتيازها أمراً صعب المنال، وقديماً سمى الخطيب ايسوكراتيس (Isocrates) النيل حـائطاً خـالداً[٢] فكانت هذه العـوائق الطبـيعـيـة تصد العدو الزاحف عليـها من الخـارج. أمـا فى داخل حدودها فإن سـهولة المواصلات ضـمنت ولاء السكان وخـضـوعـهم للحكومـة القائمـة، وكـان المصريون قد فقدوا تدريجياً الميزات القديمة المتوارثة، وفوق ذلك لم يكن لديهم سبب يأسفون معه على ضياع سيطرة الفرس على بلادهم.

(١) بعد الهزيمة التى لحقت بكليوباترة السابقة وانطونيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣٠ق.م.

(٢) Isocrates, Busiris, 12

بطليموس والي مصر:

تلك هى البلاد التى كانت من نصيب بطليموس بن لاجوس أحد قادة الإسكندر وكان يبلغ من العمر إذ ذاك نحو أربعين عاماً عندما اختص بمصر فى توزيع الولايات المخلفة من امبراطورية الإسكندر - وكان بطليموس هذا حسن التقدير بعيد النظر فقدر أن «عصفور فى اليد خير من اثنين على الشجرة» ولم يشأ أن ينازع القواد الآخرين فيمن يتولى نصيب نائب الملك فى حكم الأمبراطورية كلها بل قنع بالإستيلاء على مصر الغنية وعمل على أن ينقل إليها جثة الفاتح العظيم (الإسكندر) ولما ظفر بهذا الحرز الثمين يمم شطر مصر تاركاً زملاءه يفضون مشاكلهم وخلافاتهم فى آسيا[1]، وكان بطليموس زعيماً قديراً وسياسياً بارعاً حصيفاً جمع بين الاعتداد بالرأى والدأب فى السعى بين المداراة، وكان يسعى لتحقيق غرض واحد فلا يتحول عنه ويظهر صلابة فى العمل على تحقيق بغيته وكان يتخذ سبلاً مختلفة لذلك لجأ إلى استعمال القوة واستخدام الحرب فيما لا ينتظر أن يحققه بالطرق الدبلوملسية، وكان شديد الرغبة دائماً فى تحقيق فتوح ثابتة أكثر من حبه فى التظاهر بالأبهة والإحتفاء بمواكب النصر، وكان فوق كل ذلك يجمع بين الأناة والصبر فى المسائل الصغيرة وبين الإهتمام بالمسائل الجليلة وعلى ذلك كان ذلك القائد يجمع فى شخصه كل الصفات الضرورية لمؤسس إمبراطورية.

(١) انظر تاريخ العالم اليونانى للعالم (Cary) ص١٣، وفيه يشرح كيف استطاع بطليموس أن يستولى على رفات الاسكندر غير آبه بما ينجم عن ذلك من مجافاة وتحدى لبرديكاس، روستوفتزف (Rostovtzeff Social & Economi Histry of Hellenistic World, 1940 pp. 261

وفى عصر الغزو المقدونى كانت طبقة المحاربين من المصريين قد أوشك على التفكك بل ضاعت معالمها، وبفضل الأساليب السياسية البارعة استطاع بطليموس أن يستحوذ على الكهنة ويسيطر عليهم، وفى شتى أرجاء المملكة لم يجد غير شعب خاضع، وكان يؤيد بطليموس جيش يبلغ عدده مائتى ألف رجل يتألف أغلبه من الإغريق وفيه يتولى المقدونيون أرفع المناصب، وقد سيطر هذا الجيش بالتدريج على الشرطة والمحاكم الجنائية وحتى على جزء من الإدارة المدنية[١]، وفوق ذلك فإنه كان فى خدمة بطليموس جمع غفير من الموظفين الطامعين فى المال والمتزلفين الذين يقدمون للملك فروض الولاء والطاعة ويتمتع بطليموس بإيراد سنوى يقدر بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات[٢]. أفلم يكن بطليموس بكل هذا فى مركز يساعده على أن يركز جهوده وموارد بلاده فى الإسكندرية؟ وبفضل حسن استخدام هذه الموارد ألم يكن فى استطاعته أن يهيئ فى الإسكندرية كل الوسائل والسبل التى تجعل منها مدينة عالمية وعاصمة للشرق كله فتكون قبلة أنظار الإغريق وينشئ فيها من الأبنية والمعاهد والمعابد ما يصبح مضرب الأمثال، ويحيط نفسه بحاشية من العلماء والسفراء، فيقيم فيها نهضة علمية مباركة؟ وفى تلك الظلال الوارفة لهذا الحكم المطلق الهادئ الذى أقامه فى مصر، ألم يكن واثقاً أنه يستطيع أن يعيد بعث الاداب التى كنت فى أيام أخر ثمار الديمقراطية الجامحة الهوجاء فى أثينا وغيرها من مدن بلاد الإغريق؟

(١) Robiou, Memoire sur I;Economie poltique de I'Egypte au temps des Lagides, 1876

(٢) Robiou, Memoire sur I'Economie etc; Droysen, Geschichte des Hellenismus i, pp. 44-45

اتخذ بطليموس الأول مقره أول الأمر فى ممفيس، حيث دفنت جثة الإسكندر أولاً وبعد ذلك نقل بطليموس عاصمة الملك إلى الإسكندرية، وليس معروفاً على سبيل التحقيق تاريخ ذلك، ولعله خطا هذه الخطوة بعد تغيير فى إتجاه سياسته، ولقد انبرى العالم الألمانى (Kornemann) فى مقال رائع[١]، للتدليل على أن سياسة بطليموس الأول اعتراها تغيير، فيظهر أنه فى العهد الأول من ستراتبيته سار أولاً على خطة الإسكندر ونهجه فى تشجيع الاختلاط بين اليونانيين والمصريين، ثم بدا له فغير هذه السياسة، ومالبثت سياسة البطالمة الثلاث الأول أن اصبحت تقوم على اعتبار مركز المقدونيين والإغريق إزاء الشعب المصرى كمركز السيد من تابعه، وهو مبدأ يخالف تماماً السياسة التى نهج عليها الإسكندر، والتى كانت تنطوى على المزج والتوفيق بين الشعبين[٢]، فما أصل هذه السياسة المنطوية على السيطرة ومتى حدث هذا التطور والإنحراف عن سياسة الإسكندر؟ التى نعرف تماماً أنها كانت تقوم فى مصر على التقرب نحو هذا الشعب الخاضع بطريقة واضحة لا موارية فيها، فقال عنها المؤرخ القديم أريان (Arrian) إن الملك الشاب، بعد دخوله مصر واحتلاله ممفيس، سارع بتقديم القرابين والتضحيات إلى الآلهة المصرية، وإلى آبيس (Apis) وأنه نظم فى الوقت نفسه ألعاباً رياضية ومباريات ومهرجانات، موسيقية فى ممفيس اشترك فيها أشهر الفنيين فى العالم الإغريقى، فكأنما بعمله

(١) E. Kornemann, Die Satrapen politik des ersten Lagiden, Raccolta Lumbroso, Aegyptus 1925, pp. 235 - 245

(٢) الأدلة على ذلك عديدة منها U. Wilcken, Grundzuge I, p. 20, W.Schubart Einfuhrung in die Papyruskunde 1918, p229, Schubart, Agyténvon Alexander 1922, p. 39 etc

هذا، فى رأى العالم الألمانى «فلكن» قد أعلن عن بدء عصر جديد فى مصر، ولما أمر ذلك الفاتح الغازى بتأسيس المدينة الجديدة وهى الإسكندرية، حرص على أن يبنى فيها كذلك بخلاف المعابد الإغريقية معبداً للإلهة المصرية إيزيس (Isis) وعند مغادرته البلاد لإتمام فتوحه فى آسيا، وكل الإشراف على النظم الإدارية فى وادى النيل إلى وطنيين إثنين هما: دولوآسبيس (Doloaspis)، وبتيسيس (Petisis) والقيادة الحربية إلى قواد إغريق، والإدارة المالية إلى إغريقى محلى من أهل نقراطيس، وكان يسمى كليومينيس (Cleomenes) فلِمَ لم يعمر هذا النظام الثلاثى؟ هذا سؤال يحار المرء فى الإجابة عنه.

لم يتخذ بطليموس فى أثناء مدة حكمه ساترابا، الإسكندرية عاصمة له، فهو إما أنه كانت لديه عاصمتان هما: ممفيس المصرية، والإسكندرية الإغريقية، وإما اتخذ ممفيس وحدها عاصمة، والأمر الأخير هو الأكثر احتمالا[1]، فمنذ عهد طويل لم تصبح ممفيس مدينة مصرية صميمة، بل كانت بها عناصر جنسية مختلفة، وفدت إليها على توالى الزمان من الشرق، وبالأخص جالية هيلينية، تسمى هيلينوممفيتاى (Hellenomemphitae) استقرت حول هيلنيون (Hellenion)، وكان لها نظامها الهيلينى الخاص بها، وكان هذا الطابع الجنسى الخليط، الذى كان عليه سكان المدينة، مشجعاً على الاستمرار فى اتباع السياسة التى اسنتها الإسكندر بينما لم تكن الإسكندرية فى عرف الناس إذ ذاك، داخل حدود مصر، وإنما واقعة على تخومها "Ad Aegyptum" فكان اتخاذ مدينة أجنبية عاصمة للبلاد إذ ذاك أمراً غريباً منطوياً على عدم لياقة، وهناك حقيقتان جديرتان بالاعتبار تؤيدان الرأى القائل بأن بطليموس الأول

(١) مقال «كورنمان» عن السياسة الستراببة للبطالمة الأول ص٣٣٧ .

بصفته والياً (سترابا) اختار ممفيس أول الأمر لتكون مركزاً ومقراً للحكم فأولتاهما أن البطالمة كان لايزال لهم حتى عصر متأخر قصر ملكى فى ممفيس، ولابد أن هذا القصر، كان قد شيد فى أول عهد حكومتهم، وثانيتهما تتضمن أن الجناز الأول للاسكندر، تم على يدى والى مصر الأول فى هذه العاصمة القديمة، حيث كان يتوج الفراعنة الأقدمون، وكان القصد الأول أن يصبح هذا الجناز الذى تمت مراسيمه وفق العادات المقدونية نهائياً[1] ، ولما كان بطليموس بعمله هذا قد تجاهل رغبة الإسكندر المتوفى فى أن يدفن فى معبد زيوس آمون بواحة سيوه، واختار له ممفيس كيما تكون مقره الأخيرو فإن فى هذا دلالة كافية على أن بطليموس كان ينوى أن يكون لهذه المدينة مستقبل عظيم، فكما فعل سيده الإسكندر ببابل، واختارها عاصمة لإمبراطوريته الاسيوية، كذلك كان بطليموس قد قرر فى نفسه أن تكون عاصمة الفراعنة (ممفيس) عاصمة استرابيته المصرية، وفى هذا تكريم أيما تكريم للوطنية المصرية، وعلى ذلك استخلص العالم كورنمان من استقرائه الحوادث على هذا النحو، الرأى القائل بأن سياسة البطالمة الأول فى وادى النيل لم تكن تنطوى على ضمان سيادة مقدونية هيلينية مفروضة على المصريين، وإنما اتبعوا سياسة تقرب نحوهم، تضمنت امتزاج العنصرين، الإغريقى والمصرى، وفق الخطة التى رسمها الإسكندر، ثم مالبث بطليموس الأول أن تحول عن هذه السياسة[2]، وأحل محلها مع المصريين سياسة الفاتح مع المهزومين، وهى السياسة التى احتذاها أخلافه وساروا فيها على طريقته إلى أن بدا ضعف ظاهر على ملوك

(١) مقال «كورنمان» عن السياسة السترابية للبطالمة الأول ص٢٣٨ .

(٢) مقال «كورنمان» عن السياسة السترابية للبطالمة الأول ص٢٣٨ .

أسرة البطالمة، فاضطروا أن ينهجوا نهجاً آخر، فقدموا ترضيات وإعفاءات لرعاياهم من المصريين، ولعل نقل مقر الحكومة من ممفيس إلى الإسكندرية فى عهد بطليموس سوتر واتخاذ الإسكندرية عاصمة لملكه كان العنوان الظاهر الدال على تغير مجرى السياسة القديمة، ولابد أن بعيدى النظر من المصريين استطاعوا إدراك كنه ذلك وما يتضمنه من مغزى، ولقد تلا ذلك إتخاذ إجراءات أخرى ترمى إلى نفس الغاية.

بطليموس وعبادة سيرابيس:

ولما كان وجود دين مشترك هو أوثق رباط بين الأجناس والشعوب فى هذه الأزمنة، فإنه كان ينتظر أن يعتبر الإغريق والمصريون الإسكندرية وطناً لهم لو أنها أصبحت أيضاً وطناً لآلهتهم، وكان من شأن توحيد العبادتين أن يصبح توحيد الشعبين أمراً هيناً فإذا وجد الشعب المهزوم أن الآلهة الإغريقية قد تحولت، على الأقل فى الظاهر، إلى آلهة مصرية فإنه سوف يتقبل بسهولة قوانين غزاته ولغتهم وأدبهم من غير كبير ريبة، وفوق ذلك كان الإسكندر قد ضرب المثل بتوحيده فى الإسكندرية عبادة الالهة الرئيسية فى كلتا المملكتين فأسس معبداً للآلهة إيزيس (Isis) فى الإسكندرية لكى يظهر رغبته فى تكوين علاقات الصداقة مع المصريين كما أقام المعابد للآلهة اليونانية[١] فلما أتى بطليموس إقتفى أثر هذا المثل وجعل للبلاد معبوداً جديداً هو سيرابيس (Serapis) وقد ظهرت عبادته أولاً فى ممفيس، ملتقى اليونان والمصريين، وكان هذا الإله الجديد هو الإله الرسمى فى امبراطورية بطليموس، ثم اصبح مركز هذه العبادة الرسمى مدينة الإسكندرية حيث أخذت تصطبغ بصفة نهائية بصبغة هيلينية

(١) M. Cary, History of Greek World p. 372; Arrian Exp. of Alex. III, 1, 5

وتوضع لها تقاليد وطقوس هيلينية، ولقد روى لنا الكاهن المصرى مانيتون السمنودى قصة نقل تمثال الإله سيرابيس إلى الإسكندرية بطريقة روائية فقال: «رأى بطليموس سوتر (أى المنقذ، فى المنام تمثالاً ضخماً لبلوتون (pluto) فى سينوبى (Sinopê) ولم يكن قد رآه من قبل ولم يعرف شكله، وقد أمره الإله أن يعجل بنقل التمثال إلى الإسكندرية فتحير الملك فى أمره ولم يدر أين يوجد هذا التمثال ولكنه بينما كان يقص هذه الرؤيا على أصدقائه تقدم إليه رجل جاب كثيراً من الأقطار اسمة سوسبيوس (Sosibius) وأخبره إنه رأى فى سينوبى تمثالاً ضخماً مماثلاً لذاك الذى حلم الملك إنه رآه ولذا بعث الملك سوتيليس (Soteles)، وديونيسيوس (Dionysius) فاستطاع هذان بعد وقت طويل وجهد كبير أن يسرقا التمثال ويعودا به، ويرجع ما صادفاه من توفيق إلى العناية الإلهية، ولما حمل ذلك التمثال إلى مصر ورآه الناس هناك انبرى تيموثيوس (Timptheus) الشارح، ومانيتون (Manetho) السمنودى وزملاؤهما وقرروا إنه تمثال بلوتون، وحجتهم فى ذلك وجود كربيروس (Cerberus) (وهو كلب ذو ثلاث رؤوس كان يحرس مدخل العالم السفلى هيديس (Hades)) والأفعى، وأقنعوا الملك بطليموس إنه لا يمثل إلهاً آخر غير سيرابيس (Serapis)، لأنه لم يأت من موطنه الأصلى حاملاً اسماً مصرياً وإنما اتخذ اسم بلوتون عند المصريين ألا وهو سيرابيس وذلك بعد أن جاء إلى الإسكندرية،[١] .

(١) قطعة نمرة ٨٠ من مانيثون - اقتبسها بلوتارك فى مقاله عن إيزيس وأوزوريس فصل ٢٨ - ولقد ذكر كثير من المؤرخين والكتاب القدماء قصة نقل هذا التمثال الضخم لسيرابيس إلى الاسكندرية فى شئ من التفاوت والإختلاف منهم تاسيتوس Tacitus, History الجزء الرابع، ٨٣،٨٤)، كلمنت السكندرى (Protrop. IV p. 37) وكيرلس Cyillus فى (Jul. p. 13) وبلوتارك (De sollert: anim. 36) ولقد اتفق كل من بلوتارك وتاسيتوس فى نسبة نقل هذا التمثال الضخم إلى بطليموس الأول بينما ينسب كل من كلمنت وكيرلس ذلك إلى-

وهكذا قامت عبادة سيرابيس فى الإسكندرية وقصد بهذه العبادة الجديدة أن توثق العلاقات وتؤلف بين الطبقات الحاكمة من الإغريق وبين رعاياهم من المصريين ولقد نظمت عبادة سيرابيس فى مصر نفسها حتى اصبح سيرابيس هو إله الإسكندرية الرئيسى وقد اقيم له معبد عظيم فى الجزء الجنوبى من الإسكندرية فى الحى القديم المسمى رافودة الذى كان مأهولاً بالسكان قبل تأسيس المدينة واستمر دائماً أكثر أحيائها سكاناً وأشدها ازدحاماً، وفيما بعد ذلك أقيم السرابيوم (Serapeum) المشهور الذى كان ضريحاً للإله سيرابيس على مرتفع فى ذلك الموقع الذى كان يقوم فيه من قبل ذلك المعبد المتواضع للاله سيرابيس الجديد الذى ابتدلعه البطالمة لتكون عبادته حلقة اتصال بين الإغريق والمصريين، ولذلك كان من المناسب أن يشيد معبده فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى، وأصبح ذلك السلم ذو المائة درجة التى تؤدى إليه وأروقته وأبهاؤه ذات الأعمدة الضخمة وتماثيله ومكتبته الملحقة به من المناظر الخلابة التى بهرت الأبصار وبلغت حداً من الجمال حتى أن أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus) من مؤرخى القرن الرابع الميلادى قال عنه فى بساطة أن الكلمات لتعجز عن وصفه[١]. وبهذه الطريقة بدأ

= بطليموس الثانى انظر (Parthy Über Isis und Osiris pp. 213) ولقد انفرد تاسيتوس بالإفاضة فى وصف الظروف والملابسات التى تتعلق بنقل هذا التمثال الذى كان يعبد فى سينوبى على البحر الأسوذ وذكر تلك الأحلام والنذر التى اغرت ملك سينوبى بتسليم ذلك التمثال، وفى الوقت الذى كان يجب أن يغادر التمثال مكانه وبينما كان يحيط بالمعبد جمع غفير صاخب ثائر يهدد بأن يحول دون نقل التمثال ويمنع ارتكاب هذا الاثم وانتهاك حرمة المعبد وإذا بالتمثال يذهب من تلقاء نفسه إلى ظهر المركب كما لوان الآلهة نفسها قد اتخذا الاسكندرية مقراً لها فى المستقبل (انظر تاسيتوس جزء رابع ص٨٤).

(١) ammianus Marcellinus XXII, 16. "his accedunt altis sublata fastigiis templa; inter quae eminet Serapeum nihil orbis terrarum, ambitiosius cernat"

الامتزاج بين العبادتين الإغريقية والمصرية فى سيرابيوم الإسكندرية، وفوق ذلك نقل بطليموس الثانى (فيلاديلفوس) الى الإسكندرية جثة الإسكندر التى احتواها قبر جميل مالبث أن أصبح مركز عبادة عظيمة يشرف عليها كاهن سنوى، وبقى أثراً يؤمه الحجاج والزائرون عدة قرون فيما بعد للتبرك به وللوفاء بالنذور.

ولقد أثار تأسيس السرابيوم اهتمام العلماء، فنسب البعض تأسيسه إلى بطليموس الأول. وانبرى آخرون فقالوا: إن بطليموس الثالث هو الذى أنشأه أو اعاد بناءه، واعتمد هذا الفريق على ماكشف حديثاً من ألواح عشرة، بعضها ذهبى أو فضى، والآخر زجاجى كتب عليها باليونانية والهيروغليفية أن الملك بطليموس بن بطليموس وارسينوى الإلهين الأخوين وهب (رشيد) للاله سيرابيس (بالهيروغليفية أزو حابى) ضريحاً (أى معبداً) وحرماً مقدساً - ويقتضى الأخذ بالرأى الأخير تأخير تأسيس السرابيوم إلى النصف الثانى من القرن الثالث. وكان قد انقضى إذ ذاك على حكم البطالمة فى مصر أكثر من ثمانين عاماً، ولكننا إذا قلبنا هذا الرأى وفحصناه على ضوء المعلومات التى جاءت فى ورق البردى الذى كشف فى عشرات السنوات الأخيرة، وأقوال المؤرخين الأقدمين أيقنا أن العبارة الواردة على هذه الألواح لا تتضمن سوى أن بطليموس الثالث بنى إضافات فى معبد كان قائماً من قبل منذ عهد بطليموس الأول أو الثانى على أبعد الفروض، ولا حاجة بنا للتدليل على أن البطالمة قد وجهوا عنايتهم منذ أول الأمر إلى عبادة سيرابيس الذى ابتدعوه ليكون إلهاً رسمياً، وعنواناً لملكهم الجديد، ولقد سبق أن اشرنا إلى قول مانيتون بأنه تم فى عهد بطليموس الأول نقل تمثال ضخم لسيرابيس إلى الإسكندرية، وفى هذا دلالة ضمنية كافية على قرب تأسيس معبد للإله الجديد يضم هذا التمثال الضخم. وهناك أدلة كثيرة

فى النصوص البردية المشهورة ببردى زينون (Zenon Papyri) من عهد بطليموس الثانى نقتصر على الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر، فجاء بأحدها أن أبولونيوس (Apollonius) وزير مالية بطليموس الثانى كتب عام ٢٥٦ – ٢٥٥ق.م. إلى وكيله فى فيلادلفيا بالفوم يأمره ببناء معبد لسيرابيس مثل نظيره معبد إيزيس ذاكراً له بعض التفصيلات عن الموقع الذى اختاره لإقامة معبد سيرابيس بالنسبة للمعابد الأخرى بفيلادلفيا[١] ، وهذا دليل على عناية الملك بطليموس الثانى وحكومته بإنشاء سرابيومات فى طول البلاد وعرضها وبخاصة فى تلك القرية النموذجية المسماة فيلادلفيا فى شمال الفيوم، وهى القرية التى عاصرت تأسيس الإسكندرية، وجاءت فى نشأتها وتخطيطها وأبنيتها، على نسق مدينة الإسكندرية[٢] – وهناك وثائق أخرى من مجموعة بردى زينون تؤيد انتشار هذه الدعوة بتأسيس سرابيومات على نسق سرابيوم الإسكندرية فى الكثير الغالب، وذلك فى النصف الأول من القرن الثالث، فكتب زويلوس (Zoilos) من آسيا الصغرى وأحد عباد سيرابيس إلى أبولونيوس وزير مالية فيلادلفوس فى سنة ٢٥٧ ق.م. ينبئه بأنه رأى فى المنام سيرابيس الذى أمره أن يبنى له معبداً فى المدينة، ولعلها إحدى مدن آسيا الصغرى، ولما عصى أمر الإله مرض وأخيراً أزمع على تنفيذ أمر الإله[٣] ، وعلى ضوء هذه

(١) Papyri Cairo Zenon, 59168; Annales XXIV, p. 22 وذلك منشور فى كتالوج المتحف المصرى ومجلته السنوية.

(٢) P. Viereck, Philadelphia, Morgenland, 1928. pp. 7-26 حيث نقرأ فى هذه الصفحات وصفاً لهذه القرية النموذجية ومساكنها ومعابدها وتخطيط شوارعها وما احتوته منازل عظماء الاسكندرية فى ريف مصر من أبهة فلا غنى لمن يروم تعرف أحوال الاسكندرية القديمة عن الرجوع إلى هذا المؤلف.

(٣) Papyri Cairo Zenon 59034.

المعلومات يمكن أن نقول بحق أن سرابيوم الإسكندرية أسس فى النصف الأخير من حكم بطليموس الأول، وتم فى عهد بطليموس الثانى، ثم أخذ الملوك بعد ذلك يزيدون عليه تخليداً لذكراهم على حد قول إسترابون فى وصفه لمدينة الإسكندرية، وأنه فى عهد بطليموس الثانى سادت البلاد المصرية فكرة كانت تلقى تأييداً من الحكومة ترمى إلى تأسيس سرابيومات فى البلدان والقرى، بل فى عرض الإمبراطورية المصرية على نسق معبد السرابيوم بالإسكندرية[1] .

تخطيط مدينة الإسكندرية

وعندما جعل بطليموس الأول الإسكندرية قاعدة ملكه، كانت قد خرجت من طور الارتباك عادة المنشآت الجديدة، ولكن كان يعوزها مع ذلك، عمل كثير لتحويل تلك الآكام والتلال الرملية والأرض القاحلة وقرية راقودة إلى مدينة هيلينية عظيمة، وقد قام المهندس دينوكراتيس (Dinocrates) بتخطيط المدينة على الطريقة المألوفة عند اليونان بشوارعها المستقيمة المتقاطعة فى زوايا قائمة وهو نظام محبب إلى اليونان فى تخطيط المدن والبلدان، وقد بنيت على رقعة غير فسيحة وهى المكان المحصور بين بحيرة مريوط والميناء البحرى، وكانت البحيرة متصلة بالنيل وهومتصل بالبحر الأحمر بقناة (أتمها بطليموس فيلادلفوس) كما كانت البحيرة متصلة كذلك بالميناء وعلى ذلك كانت تستخدم ميناء عذب المياه، وقد بنى جسر يصل جزيرة فاروس بالساحل وكان يسمى هيبتاستاديوم وبفضل إقامة بعض منشآت وأبنية أخرى على الجانب الشرقى تكون ميناء بحرى عظيم هادئ شرقى هذا الجسر، وفى الغرب منه

---

(١) يكفينا هذا القدر الآن فى دحض فكرة يقول بها بعض المشتغلين بالآثار وسوف نعود لهذا الموضوع فى فرصة قريبة.

تكون ميناء آخر سمى بميناء السلام وهو الميناء الغربى الوحيد الذى يستعمل حتى الآن، وكانت المدينة تمتد طولاً من الشرق إلى الغرب ويفوق طولها عرضها كثيراً.، ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عظيم يسمى بالشارع الكانوبى وهو قصبة المدينة وعرضه يزيد على مائة قدم ويقطعه فى وسط المدينة شارع آخر ممتد من الشمال إلى الجنوب وكانت نهايته عند رأس لوخياس وكانت الشوارع موازية لهذين الشارعين فسبعة منها تجرى متوازية فى اتجاه طول المدينة واثنى عشر ممتدة بحسب عرضها وتسمى باسماء خاصة من أفراد الأسرة المالكة، وفى نهايتى ذلك الشارع الرئيسى يقوم بابان عظيمان يسمى الشرقى منهما فى العصور المتأخرة باب الشمس ويسمى الغربى باب القمر، وكان على جانبى هذا الطريق البوائك والعقود ذات أعمدة تحمى المار من قيظ الشمس ويظهر أن بطليموس الثانى أعاد تسمية شوارع المدينة بطريقة نظامية تكريماً لأخته وهى زوجته المتوفاة ارسينوى الثانية فأطلق اسمها على عدة شوارع ملقباً إياها بألقاب آلهة اليونانيين بمنحها اللقب الذى تعبد به تلك الآلهة[1] تسمى بعضها شارع أرسينوى الملكة (Basileia) أى أرسينوى فى دور الملكة هيرا (Hera) أوهيرا ملكة السماء، وسمى آخر أرسينوى الرحيمة وهو لقب استعير من العبادة الخاصة بالإلهة أفروديتى، وثالثاً شارع أرسينوى الأولسية (Eleusinia) تشبيهاً لها بالإلهة ديمتر (Demeter) ورابعاً شارع أرسينوى ذات البيت النحاسى (Chalkioikos) لتمثيلها بالإلهة أثينا (Athene) ذات البيت

(١) فى وثيقة مؤرخة فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم فيلادلفوس أى سنة ٢٥٢ ق.م. فى مجموعة بردى لندرة رقم ٢٢٤٣ Notes on Early Ptolemaic (P. London Inv. 2243) Papyri - An Early Ptolemaic Contract of Loan by Bell, Archiv f. Pap. VII 1924 pp. 17-29.

النحاسى حامية وراعية اسبرطة[1] .

ولقد تصدى لطبوغرافية المدينة كثير من الكتاب الأقدمين، فتناولا وصف مواقع الأبنية الرئيسية والمعابد والساحات وحلبات السباق التى كان يحتويها هذا المحيط العظيم وكان يشتمل فى الحقيقة على مدينتين هما المدينة الجديدة (olis) التى أسسها الإسكندر والمدينة القديمة راقودة، فجاء وصف استرابون أوفاها وأجدرها بعنايتنا، ولذا آثرنا أن نجتزئ منه بقدر لاتخلو ترجمته من فائدة:

فصل ٨ - «وإن شكل سطح المدينة لهو أشبه بالعباءة الحربية[2] ، (Chlamys) وجانباها الطويلان هما اللذان تحيط بهما مياه البحرين وطول قطرها نحو ثلاثين ستادياً، والجانبان القصيران هما البرزخان وسعة كل منهما سبعة أو ثمانية ستاديات، ويضيق عليه البحر من ناحية والبحيرة من الناحية من الناحية الأخرى، والمدينة كلها مقسمة إلى شوارع صالحة لجرى الخيل وجر العربات، يقطعها شارعان واسعان جداً يبلغ اتساعهما أكثر من بليثروم[3] فى العرض، ويقطع أحدهما الآخر إلى قسمين فى زوايا قائمة[4] .

(١) Journal of Egyptian Archaeology XII, 1926 p. 247, Journal of Egpt. Arch, XIII, 1927, H. Bell p. 171-184, Archiv VII p. 17.

(٢) جاء فى بلوتارك (٥ ، ١١) أن شكل المدينة كان أشبه بعباءة حربية مقدونية، والذى أعد رسم المينة وتخطيطها دينوكراتيس ولقد تناول تاربل Tarbell مناقشة شكل تلك العباءة الحربية فى مجلة Classicak Philology 1,238.

(٣) البليثروم (Plethrum) هو مقياس يونانى طوله ١٠١ قدم إنجليزى وهو سدس إستاديوم.

(٤) جاء فى فيلون (In Flaccum 973 A) أن المدينة كانت مقسمة إلى خمسة أقسام وقد رمز لكل منها بأحد الحروف الهجائية اليونانية فكان بها قسم ألفا (أ) وقسم بيتا (ب) وقسم جاما (ج) وقسم دلتا (د) وقسم إبسيلون (إ) (E)، وكان قسم بيتا يشتمل فى الغالب على القصور الملكية -

وتحتوى المدينة على أفنية عامة مقدسة (أى معابد) فى أبهى حلة من الجمال، كما تحتوى أيضاً على القصور الملكية التى تشغل ربع المحيط الملكى للمدينة بل ثلثه، لأنه لما كان كل ملك من الملوك قد تعود أن يضيف بعض التحسينات إلى المبانى العامة حباً منه فى الظهور بمظهر العظمة، فكذلك عنى أيضاً بتشييد مبنى له على نفقته الخاصة بالإضافة إلى تلك المنشآت القائمة من قبل فأصبحت الآن وقد حق عليها قول الشاعر[١] «أقيم فيها مبنى فوق آخر» ومع ذلك فجميع مبانيها متصل بعضه بالآخر وبالميناء بل وبتلك المبانى الواقعة خارج الميناء[٢] ، وتعتبر دار الحكمة (Museum) جزءاً من القصور الملكية وبها

- بما فى ذلك دار الحكمة وقبر الإسكندرية وأبنية أخرى كثيرة أما حرف الدلتا فكان هو حى اليهود (Josephus Bell. Jud. 2. 8.) ولقد حام الشك حول مواقع الاقسام الثلاثة الأخرى واختلف المؤرخون الأقدمون فى تقدير مقاييس المدينة وأباعدها فقدرها يوسيفوس ٣٠×١٠ ستاديات وقدر فيلون اتساعها بعشرة ستاديات وقدر بلبنى محيطها بخمسة عشر ميلاً وقدر ديودور اتساعها بأربعين ميلاً ولعله يقصد طولها – وكان الشارع الطويل الرئيسى فيها يمتد فى خط مستقيم من الباب الكانوبى أو باب الشمس شرقاً إلى باب القمر غرباً وقد أمكن تعرف موضع جزء منه وهو شارع فؤاد الأول Zogheb, Etudes Sur L'anc. Alex. p. 11 ولكن لوتى Botti يخالفه فى هذا الرأى بقوله إن أهم الشوارع العرضية هو شارع Sema الذى كان يحتوى من اليمين على قبر الإسكندر الأكبر ومن اليسار على دار الحكمة ثم كان يقطع بعد ذلك الطريق الكانوبى ويمر ببناء قيصريوم عن اليمين ومعبدIsis Plousia، ثم Emporium، عن اليسار ثم ينتهى بالرصيف بالميناء البحرى العظيم ومحل المرسى على مقربة من المستلين. انظر كتاب نيروتسوس عن الاسكندرية القديمة وكتاب زغيب ص١٥ .

(١) هو هوميروس فى الأوديسا ١٧، ٢٦٦ عند الإشارة إلى قصر أوديسيوس.

(٢) أعنى الواقعة على اللسان المعروف برأس لوخياس. انظر الفصل التاسع من وصف استرابون.

طريق عام وفناء مسقوف ومجهز بالمقاعد وبيت كبير[1] تقع فيه صالة المائدة العامة لرجال العلم المشتركين فى دار الحكمة، ولهذه الجماعة أيضاً أملاك مشتركة ولهم كاهن مشرف على دار الحكمة كان يعينه الملوك فى غابر الزمان ولكنه يعين الآن من قبل قيصر[2] ، والسيما[3] (Sema) أيضاً - كما تسمى - جزء من القصور الملكية وتمثل المحيط الذى كان يحتوى على مقابر الملوك وقبر الإسكندر، لأن بطليموس بن لاجوس (أى سوتر) استبق برديكاس (per-diccas) بإنتزاعه جثة الإسكندر منه فى أثناء نقله إياها من بابل، وقد عرج بها شطر مصر تحركه الأطماع والرغبة فى امتلاك هذه البلاد[4] ، وفضلاً عن ذلك

(١) وصف فتروفيوس هذا البناء (Vitruvius, De Architectura 5. 11. 2.) بقوله: مماشى واسعة مسقرفة داخل ثلاث أروقة مجهزة بالمقاعد حيث كان فى استطاعته الفلاسفة والخطباء وجميع من أغرموا بالبحث العلمى أن يشتركوا فى المناقشة والبحث، أما سويداس (Suidas) فيظهر أنه كان يفهم بناء اكسدرا (Exedra) على أنه قائم بذاته عن دار الحكمة بقوله «إنهم يقيمون على مقربة من دار الحكمة وبناء اسكدرا».

(٢) المقصود بالذات هو الإمبراطور اكتافيوس اغسطس إذ أن استرابون زار مصر فى ٢٤ق.م. فى أثناء توليه عرش الإمبراطورية.

(٣) السيما هى كناية عن القبر وتقرأ فى بعض الأصول والمخطوطات سوما (soma) كلمة إغريقية معناها الجسد ولقد جاء فى كالسثينيس الزائف Pseudo-Callisthenes «أن بطليموس بنى قبراً فى ذلك المكان المقدس المسمى «جسد الاسكندر» حيث دفنت جثة الاسكندر» وجاء فى رواية أخرى أنهم يطلقون على ذلك المكان «قبر الاسكندر» وفى رواية ثالثة أن بطليموس (فيلو باتور) بنى فى وسط المدينة منيما (Mnema) تسمى الآن سيما (Sema) حيث جمع فيها كل أجداده وأمه وكذلك الاسكندر المقدونى». قاموس Calderini ص١٤٠ .

(٤) اختلفت الآراء فى ذلك فجاء فى ديودور الصقلى (١٨، ٢٦-٢٨) أن فيليب أريدايوس قضى سنتين فى إعداد العدة لنقل جصة الاسكندر وذهب بطليموس الأول إلى سورية للقائه ومن =

لقى برديكاس حتفه بأن ذبحه الجند عندما هاجمه بطليموس وضيق عليه الخناق بمحاصرته فى جزيرة قحلة[١] ، وهكذا قتل برديكاس بأن سدد الجند الذين هاجموه حرابهم الطويلة إلى صدره، أما الملوك الذين كانوا فى صحبته من (فيليب) أريدايوس (Arrhidaeus) وأطفال الإسكندر وكذلك روكسانا (Rhoxanê) زوج الإسكندر فقد رحلوا إلى مقدونيا، ثم حمل بطليموس جثة الإسكندر التى ووريت فى التراب فى الإسكندرية حيث لاتزال ترقد فى رمسها إلى الآن – لا فى نفس التاويت الذى كانت فيه من قبل، لأن التابوت الحالى مصنوع من الزجاج (أو لعله من الرخام)[٢] وقد كان ذلك التابوت، الذى وضع بطليموس

- هناك حمل الجثة إلى مصر لدفنها بينما جاء فى بوسينياس (Pausanias) أن بطليموس الأول دفنها فى ممفيس ثم نقلها إلى الاسكندرية بطليموس الثانى أما كالسثينيس الزائف فقال: أن المقدونيين صمموا أول الأمر على نقل الجثة من مقدونيا ولكنهم لما شاوروا نبوءة زوس فى بابل اتفقوا جميعاً على وجوب تولى فيليب بطليموس، (لعل المقصود فيليب اريدايوس أو بطليموس الأول) نقلها من بابل إلى مصر حيث تدفن فى ممفيس ولما نفذ الأمر ونقلت الجثة أشار رئيس الكهنة فى معبد ممفيس بضرورة نقلها بعد ذلك مباشرة إلى الاسكندر، حيث وضع لها بطليموس تصميم حرم مقدس يليق فى حجمه وشكل بنائه بعظمة الاسكندر ولما جاء اغسطس إلى الاسكندرية، رأى الجثة التى نقلت إليه من مرقدها Suetonius, Augustus, 18 فلم يقتصر أغسطس على رؤية الجثة وإنما لمسها فنجم عن ذلك، فيما يقال، أن سقطت قطعة من الأنف، (Dio Cassius 51, 16).

(١) هاجم برديكاس أول الأمر بطليموس عند الفرع البلوزى للنيل ،فى نقطة لاتبعد كثيراً عن حصن يسمى حائط الجمل، حيث أخفق فى هجومه هناك ثم أعاد الكرة على مقربة من ممفيس حيث اعتصب جنده (ديودور ١٨، ٣٣).

(٢) هو المسمى hyalus وهو حجر شفاف كان يستخدمه المصريون لحفظ مومياتهم ولعله من الرخام المعرق كما هو الحال فى تابوت الاسكندر الذى وجد فى صيدا ونقل إلى المتحف العثمانى فى القسطنطينية الآن.

الجثة فيه، مصنوعاً من الذهب، ولكن بطليموس الملقب كوكيس[١] ، وأيضاً باريسا كتوس[٢] نهب التابوت الذهبى على أثر حضوره من سورية ثم طرد بعد ذلك فوراً وعلى ذلك لم تكن لغنيمته أى جدوى[٣] .

فصل ٩ – وتقع فى مدخل الميناء الكبير على اليد اليمين جزيرة فاروس وبرجها وتقع على اليسار الصخور وكذلك رأس لوخياس ويقوم عليه قصر ملكى، ويجد الداخل إلى الميناء على اليسار القصور الملكية الداخلية وقد تلت مبانيها فى سلسلة متصلة بالقصور الملكية الواقعة على رأس لوخياس، وبها المساكن العديدة ذات الألوان المختلفة والأحراش المقدسة (أى المعابد)، ويقع الميناء الصناعى فيما يلى هذه الأبنية، وقد أخفى هذا الميناء عن الرائى وهو ملك خاص بالملوك. وفى تجاه الميناء الصناعى تقع كذلك جزيرة انتيرودس (Antirrhodes) التى تقوم بها قصر ملكى وبها كذلك ميناء صغير. وسميت كذلك كما لو كانت نظيرة لرودس، وفى تجاه هذا[٤] يقع على الشاطئ المقابل المسرح (Theatron) ثم يليه بوسيديوم (Poseidium ثم يليه بوسيديوم (Poseidium) على كشل كوع ناتئ من المكان المسمى بالأمبريوم (Emporium) ويحتوى على معبد للإله

(١) أى القرمزى.

(٢) المعنى الحرفى لكلمة (Pareisaktos) «من أحضر سراً» لتولى العرش أى المغتصب ولكن المفسرين والشراح يأخذون تلك الكلمة على أن معناها غير الشرعى والمدعى ويعتبرون بطليموس هذا هو بطليموس الحادى عشر.

(٣) أى بعد سلبه المقبرة فوراً، لأن بطليموس الحادى عشر تولى العرش عام ٨٠ ق.م. ولم يطرد أو يخلع عن عرشه، فيما نعلم، حتى عام ٥٨ ق.م.

(٤) أى فى اتجاه الميناء الصناعى فى قول وجزيرة انتيرودس فى قول آخر.

بوسيدون[1] . ولقد أضاف انطونيوس إلى هذه الثنية جسراً ناتئاً إلى أبعد من هذا فى وسط ميناء وبنى فى نهايته مسكناً ملكياً سماه تيمونيوم[2] (Timonium) وكان هذا آخر عمل له عندما تخلى عنه أنصاره وأبحر إلى الإسكندرية بعد هزيمته فى أكتيوم واختار لنفسه أن ينحو نحو تيمون وأزمع أن يقضى بقية عمره فى عزلة عن كل هؤلاء الأصدقاء[3] ، ثم يصل المرء بعد ذلك إلى القيصاريوم (Caesarium) والسوق (إمبريوم Emporium) ومخازن الاستيداع، ويلى هذه أحواض السفن (الترسانات) حتى جسر هيبتاستاديوم، وهذا القدر هو وصف للميناء الكبير وما يحيط به.

فصل ١٠ (قسم ٧٩٥) - ثم يصل الإنسان فيما يلى الهيبتاستاديوم إلى ميناء السلام (يونوستوس)، وفى جنوب الميناء الأخير يجد ميناء صناعياً يسمونه أيضاً كيبوتوس (Cibotus) وبه أيضاً أحواض للسفن، وإذا توغلنا فى الداخل بعد هذا الميناء وجدنا قناة صالحة للملاحة ممتدة حتى بحيرة مريوط، ولايزال جزء صغير من المدينة باقياً فيما وراء تلك القناة، ثم يجد الإنسان بعد ذلك ضاحية نكروبوليس (أى مدينة الموتى) وفيها حدائق كثيرة إلى جوار القبور والأماكن المعدة لتحنيط جثث الموتى، وفى هذا الجانب من القناة يوجد كل من السرابيوم

(١) الإله بوسيدون Poseidon هو إله البحر عند الإغريق ويقابله عند الرومان الإله نبتون (Nep-tune).

(٢) كان تيمون Timon الأثينى يبغض البشر وكان انطونيوس يشعر بنفس هذا الشعور عقب هزيمته فى اكتيوم إذا انفض من حوله كثيرون من اتباعه وانصاره وتنكروا له فأخذ يشعر بأنه أسئ إليه وحق عليه أن يكره البشر (بلوتارك، انطونيوس فصل ٦٩).

(٣) قضى أنطونيوس نحبه منتحراً فى سنة ٣٠ق.م. بالاسكندرية إثر علمه بأن كليوباترة قد انتحرت ثم ظهر له وهو يتضرع فى دمائه أن الملكة لاتزال على قيد الحياة فحمل إليها ثم فاضت روحه وهو بين ذراعيها.

(serapeum) ومعابد أخرى قديمة قد هجرت تقريباً الأن بسبب تشييد المبانى الجديدة فى نيكوبوليس[1] (Nicopolis)، فمثلاً يوجد مدرج (Amphitheatron) وملعب (Stadium) فى نيكوبوليس حيث يحتفى بإقامة الألعاب مرة كل خمس سنوات ولكن المبانى القديمة قلت أهميتها وأهمل شأنها. ومجمل القول أن مدينة الإسكندرية تزخر بالأبنية العامة والمعابد، ولكن أجمل هذه البمانى جميعاً هو بناء الندوة الرياضية والقافية (الجمنازيوم Gymnasium) التى كانت تحتوى على دهاليز طويلة امتدت لمسافة طولها أكثر من فرسخ - وفى الوسط (وسط المدينة لا وسط الندوة الثقافية) نجد كلاً من المحكمة القضائية (Dikasterion) والحُرم المقدسة وكذلك معبد الإله «بان» أو البانيوم (Paneium) وهو يبدو أشبه بمرتفع من صنع الإنسان على شكل مخروط شجرة الشربين، وهو يشبه تلا صخرياً يوصل إلى قمته طريق حلزونى، ويستطيع المرء أن يرى المدينة بأكملها من قمته فهى تبدو واقعة فى أسفله وقد أحاطت به من جميع الجوانب، ويمتد الطريق الواسع الذى يشق المدينة طولاً من نكروبوليس مـــاراً بمبنى الندوة الرياضية والثقافية حتى الباب الكانوبى، ثم يلى ذلك البناء المسمى بحلبه سباق الخيل هيبودروم (Hippodrome) وتمتد الشوارع الأخرى التى تقع فى موازاته

(١) ونيكو بوليس هى مدينة النصر وهو اسم أطلقه اغسطس على الحى المسمى الآن بولكلى تخليداً لذكرى انتصاره على انطونيوس - والهيبتاستاديوم هو السد البالغ فى طوله سبع ستاديات وقد بنى فى صير عصر البطالمة كما أسلفنا ليربط جزيرة فاروس بالشاطئ الافريقى وقد اختفت الآن معالم هذا السد القديم تحت طبقات الرواسب وتراكم الأتربة فوقه فنتج عن ذلك لسان عريض يشمل ميدان محمد على وحى المنشية حتى سراى المحافظة القديمة (كوم الناضورة وحوض الترسانة تقريباً) وبداخل الميناء الغربى المسمى ميناء السلام وهو الميناء الحالى ميناء صناعى صغير مقفل من جميع جهاته ولذا سمى بالصندوق أو «كيبوتوس».

حتى القناة الكانوبية[١] ، وبعد اختراق مبنى حلبة سباق الخيل يصل الإنسان إلى مدينة النصر (نيكوبوليس) التى تحتوى على مساكن تطل على شاطئ البحر وهى لا تقل فى عددها ومساحتها عن مدينة، وتبعد مدينة النصر عن الإسكندرية بمقدار ثلاثين فرسخاً[٢] ، ولقد كرم «أغسطس قيصر» هذا المكان لأنه تم له فيه النصر فى معركة على من أتوا لمحاربته من انطونيوس وأنصاره، ولما تم له، فى أول هجوم، الإستيلاء على المدينة اضطر انطونيوس إلى الإنتحار كما أكره كليوباترة على التسليم له وهى لاتزال على قيد الحياة، ولكنها تمكنت بعد فترة قليلة من الإنتحار سراً وهى فى السجن بلدغة حية، وفى رواية أخرى، بإستخدام دهان سام[٣] ، ونجم عن ذلك أن إمبراطورية اللاجدين (Liagidae) التى عمرت سنين طويلة تفككت أوصالها.

فصل ١١ - وذلك أن بطليموس بن لاجوس خلف الإسكندر ثم أتى فيلادلفوس من بعد بطليموس ثم تعاقب يورجيتيس (Euergetes)[٤] وفيلوباتور ابن أجاثوكليا[٥] ثم أتى من بعده ابيفانيس[٦] (Epiphanes) وتبعه فيلوميتور وكان

(١) النص الأصلى هنا مقتضب فنشأ عن ذلك بعض الغموض وأصبح المفسرون فى شك منه فأفترضوا وجود كلمة شوارع (Hodoi) واعتبروا أنها هى الكلمة الطبيعية التى يمكن إضافتها فى هذا المقام.

(٢) يقدر يوسيفوس (Bell. Jud. 4. 11. 5) هذه المسافة بعشرين فرسخاً.

(٣) بلوتارك - أنطونيوس، فصل ٨٦ .

(٤) معنى يورجيتيس «فاعل الخير».

(٥) يرى البعض أن كلمة ابن لامحل لها هنا، وافترض وجود كلمة «محب» وترجم العبارة على أنها فيلوباتور محب أجاثوكليا (Agathocleia).

(٦) معنى إبيفانيس «المتجلى».

الابن يخلف دائماً الأب ولكن خلف فيلوميتور أخ له هو يورجيتيس الثانى الذى كان يطلق عليه أيضاً فسكون[١] (Physkon)، ثم خلفه بطليموس الملقب لاثيروس[٢] (Lathyrus)، ثم خلف الأخير أوليتيس[٣] (Auletes)، عصرنا وهو والد كليوباترا، وعلى ذلك كان جميع الملوك الذين خلفوا بطليموس الثالث - وقد افسدتهم حياة الترف والنعيم - سيئى التصرف فى حكم البلاد، ولكن كان أسوأهم على الإطلاق فى إدارة شؤون البلاد بطليموس الرابع، وبطليموس السابع وآخر البطالمة وهو أوليتيس الذى كان - فضلاً عن حياة الفجور - يتدرب على الزمر بالناى على أنغام جوقة المرتلين، وكان يفاخر بعمله هذا حتى إنه لم يتورع عن تنظيم مباريات فى القصر الملكى كان يتقدم فيها بنفسه للمسابقة مع المتبارين، وعلى ذلك نفاه السكندريون، ولما كان له ثلاث بنات، إحداهن وهى الكبرى شرعية فإن السكندريين أعلنوها ملكة عليهم، ولكن ولديه الآخرين - وكانا لا يزالان طفلين - أقصيا إذ ذاك تماماً عن تولى الحكم[٤] ، ولما استقرت على العرش بعث السكندريون فى طلب زوج لها من سورية يدعى

(١) فسكون: لقب أطلق على بطليموس السابع، ومعناه: البدين.

(٢) لاثيروس هو بطليموس الثامن. وهنا نجد إسترابون يغفل ذكر بطليموس التاسع (الإسكندر الأول) وبطليموس العاشر (الإسكندر الثانى) اللذين لم يكن لهما فى الظاهر محل فى الثبت الرسمى للملوك الشرعيين.

(٣) أوليتيس هو بطليموس الزمار لأنه أغرم باللعب على الناى.

(٤) كانت كبرى بناته هى برنيق الرابعة (Berenice IV) التى اشركت أمها كليوباترة تريفاينا (Cleopatra Tryphaena) فى الحكم معها مدة عام ٥٨ - ٥٧ق.م، ثم انفردت بعد ذلك بالحكم عاماً آخر (Dio Cassius 39,13). وقد أصبح طفلاه فيما بعد يعرف الأكبر منهما ببطليموس الثانى عشر والأصغر، ببطليموس الثالث عشر.

«كيبيوساكتيس»[١] ، وكان يدعى أنه من نسل الملوك السوريين، وبعد انقضاء بضعة أيام من زواجهما، لم تطق الملكة صبراً على جفاء طبعه وتبذله، فتخلصت منه بأن خنقته، وتزوجت بعده من رجل يدعى كذلك أنه ابن مثريداتيس يوباتور، وهو أركيلاوس(Archelaus) .. وكان يقضى وقته إذ ذاك مع جابينيوس[٢] (Gabinius)مؤملاً أن يصحبه فى حملته على البارثيين (Parthians)، ولكن بعض العملاء أحضروه من غير علم جابينيوس إلى الملكة والتى أعلنته ملكاً[٣] . وفى الوقت نفسه كان بمبى العظيم قد استقبل أوليتيس وأكرم وفادته عند وصله إلى روما، وقدمه إلى السناتو وضمن له الموافقة على إعادته إلى عرشه، بل دبر له كذلك قتل معظم المبعوثين البالغ عددهم مائة، وهم الذين كانوا قد قبلوا مهمة العمل ضده فى هذه البعثة، وكان أحد هؤلاء ديون (Dion) الفيلسوف والعضو فى الأكاديمية ورئيس المبعوثين. وعلى ذلك لما أعيد بطليموس (أوليتيس) إلى عرشه بمساعدة جابينيوس ذبح كلا من أركيلارس وابنته (برنيق الرابعة)، ولكن لم ينقض وقت طويل على إعادته إلى عرشه حتى مات متأثراً بمرضه تاركاً من بعده ابنين وبنتين، وكانت كبراهما كليوباتره[٤] وعندئذ أعلن السكندريون كلا من الابن الأكبر وكليوباتره ملكين عليهم، ولكن رفقاء الابن أشعلوا نيران الفتنة، ونفوا كليوباترة التى رحلت مع

(١) Cybiosactes لقب معناه تاجر السمك المملح أطلق عليه من قبيل التهكم، ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (٣٩، ٥٧) أنه كان أحد السلوقيين.

(٢) هو المتولى وظيفة بروقنصل أو حاكم سورية سنة ٥٧ ق.م.

(٣) لم يحكم البلاد سوى فترة قصيرة قدرها ستة أشهر إذ ذبح فى الموقعة بيد جابينيوس.

(٤) هى كليوباترة السابعة وهى المشهورة انظر Macurdy, Hellenistic Queens pp. 184-223.

أختها إلى سورية، وفى الوقت نفسه كان بمبى العظيم قد حضر فارا من بالايفارسالوس (Palaepharsalus) إلى الفرما وجبل كاسيوس، فذبحه رجال الملك وحاشيته عن خيانة، ولكن لما حضر قيصر بعد ذلك قتل الملك الغلام، ودعا كليوباترا من منفاها، ونصبها ملكة على مصر، وأشرك معها أخاها الثانى فى الحكم على الرغم من صغر سنه، وبعد مقتل قيصر بموقعة «فلباى» عبر انطونيوس إلى آسيا ورفع كليوباترا إلى أسمى مراتب الشرف حتى إنه اختارها زوجة له وأنجب منها أبناء وخاض موقعة أكتيوم برفقتها، ولاذ بالفرار فى صحبتها، وتبعهما بعد ذلك اغسطس قيصر، وقضى على كل منهما، وخلص مصر من سوء ذلك الحكم المشوب بالاستهتار والفجور.

فصل١٢ - ولقد اصبحت مصر الآن ولاية (رومانية) تدفع جزية عظيمة القدر، ويحكمها رجال اتصفوا بالحكمة والروية وكان أحد الحكام الوطنيين فى المدينة هو المترجم (Exegetes)، وكان يلبس الملابس الأرجوانية، ويتمتع بمراتب الشرف التقليدية، ويتولى الإشراف على مصالح المدينة. وكان هناك موظف آخر كذلك هو المسجل، وثالث هو القاضى الأكبر، ورابع هو قائد العسس الليلى، وكان هؤلاء الحكام ينتمون لعهد الملوك، ولكن نظراً لسوء إدارة هؤلاء الملوك، فإن رخاء المدينة ورفاهيتها كانت آخذة فى الإختفاء بسبب حالة العصيان والتمرد السائدة. وعلى أى حال فإن بوليبيوس الذى زار المدينة قد ساءته أحوالها، خلال إقامته بها، فقال إنه كان يسكن المدينة ثلاث طبقات: أولاً عنصر الشعب المصرى أو الوطنى، وهؤلاء كانوا سريعى الغضب وغير ميالين لحياة الحضر. وثانياً طبقة الجند المرتزقة، وهم جماعة قساة عديدون شديدو البأس والمراس، (لأنه قد جرت العادة قديماً بأن يحتفظ الملوك بجند أجانب

تعودوا الحكم بدلاً من الطاعة وذلك لما وجدوه فى الملوك من عدم الجدارة والكفاية) . وثالثاً عنصر السكندريين الذين لم يظهروا كذلك ميلاً واضحاً نحو الحياة المدنية للأسباب نفسها، ولكنهم مع ذلك كانوا أفضل من أولئك الآخرين (أى الطبقة الأولى) إذ أنهم على الرغم من كونهم شعباً خليطاً فإنهم مع ذلك كانوا لايزالون يونانيى الأصل يحافظون على العادات الإغريقية، ولكن هذا الجمع الغفير أيضاً كان مصيره الفناء على يدى «يورجيتيس فسكون» خاصة، وفى عصره زار بوليبيوس الإسكندرية، وكان فسكون هذا يلقى معارضة من الأحزاب، وكثيراً ماكان يعرض الجماهير لعدوان الجند، وبذلك كان سبباً فى القضاء عن تلك الجماهير. ولما كانت تلك هى الأحوال الجارية فى المدينة فإنه على حد قول بوليبوس لم يبق فى الحق إلا أن يردد الإنسان مع الشاعر قوله «إن الطريق إلى مصر طويل محفوف بالمخاطر»[1] .

ويكفينا هذا القدر من وصف إسترابون للاسكندرية وميناءيها ومعالمها، وأحوال سكانها، وهو وصف حرصنا على أن نورده بأكمله حتى تكون لدينا صورة متصلة لما كانت عليه حال هذه المدينة فى الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، أما فى عهد تاريخها الأول، فقد وصفها ثيوكريتس (Theocritus) شاعر القصر فى عهد بطليموس الثانى، والكاتب هيروداس (Herodas)، وكان انقضى على تأسيس الإسكندرية ستة وثمانون عاماً عند نهاية حكم فيلادلفوس، فلابد أن يكون قد اكتمل بناؤها حينئذ. ولقد كتب عنها فى عهد آخر غير استرابون كثيرون نذكر منهم: بوليبيوس ويوليوس قيصر أوهرتيوس (Hirtius, Bellum Alexandrinu) وديوكريسستوم (dio Chrysostom) وكلمنت

(١) هوميروس – الأوديسيا الكتاب الرابع – سطر ٤٨٣ .

السكندرى (Chlement) كما وصفها المؤرخون الرومان، الذين صنفوا تاريخهم فى عهد أغسطس[1] ، وذلك بعد إنقضاء زمن طويل على تأسيسها، ولم تكن قد أصبحت عاصمة للعالم. ومن كل هذه الأوصاف ومن غيرها يستطيع الإنسان أن يكون صورة عامة عن معالمها وحدودها وآثارها، وعن عظمة مبانيها الملكية، ومبانى بلديتها العامة: - عن موانيها وفنارها، والقصر الملكى، وبيت الحكمة (الأكاديمية أو مجمع العلماء)، والمكتبة والمنتدى الرياضى الثقافى (Gymnasium)، ومعاهد المصارعة وما إليها (Palaestrae) والمحكمة (Dikast-er) وقبو الإسكندر (Sema) وحلبة السباق (Stadium)[2] وصورة من أخلاق أهلها.

سكان الإسكندرية:

ولقد ظهر منذ نشأة الإسكندرية أنها ستكون كالبوتقة تلتقى فيها عناصر من شعوب الشرق والغرب، وبلاد الإغريق ومصر وآسيا، وممالك لم تعرف من قبل، وأنها ستقوم بنصيبها فى بناء حضارة جديدة مزيج من وحضارات شعوب مختلفة، وقد وجد فيها اليونان فى أول القرن الثالث قبل الميلاد كل مظاهر المدينة اليونانية (Polis) ومميزاتها ولذلك هرعوا إليها زرافات ووحداناً، وساعدوا بذلك على تضخم عدد سكانها الذين كانوا إلى حد كبير خليطاً عجيباً من شعوب مختلفة. وكان السكان الأحرار فى المدينة وحدة ممتازة، وكانوا يدعون أنهم جماعة من اليونانيين الحقيقيين، لهم مصالح مشتركة ونظام

(١) Scriptores Historiae Augustae.

(٢) بيفان - تاريخ أسرة البطالمة صفحة ٩٠ - ٩٤، بريشيا الإسكندرية على تخوم Alexandria ad Aegyptun صفحة ٦٨ .

اجتماعى هو من خصائص المدينة اليونانية الحرة، ولكن لم يكن كل السكان اليونان بالإسكندرية منضوين فى كتلة المواطنين الأحرار، فكان هناك بالطبع المقدونيون الذين لم يكونوا معتبرين فى عصر متأخر فى عداد المواطنين الأحرار، ولعلهم لم يكونوا فى عدادهم كذلك منذ نشأة الإسكندرية وإنما كانوا الطبقة الخاصة الممتازة من السكان المحتفظين بإمتيازاتهم، وكان اعترافهم بتولية الملك الجديد على البلاد أمراً له خطره وصفته الرسمية الضرورية. أما جمهور الأحرار فكانوا يونانيين، ولا ريب، وقد يدخل فى جملتهم عناصر من أجناس غير يونانية اصطبغت صبغة هيلينة، وكان المؤرخ شوبارت (Schubart) يعتقد أن كتلة الأحرار كانت تشتمل على أقلية من اليونانيين الساكنين فى الإسكندرية، ولابد أنه كان يوجد غير هؤلاء الأحرار المستكملى الحقوق المدنية فى وقت متأخر على الأقل جموع غفيرة وجماعات كبيرة من الرجال الذين كانوا يسمون أنفسهم هيلينيين ويتكلمون اللغة اليونانية ويعيشون على النمط الإغريقى، ولكنهم لا يتمتعون بمزايا الحرية اليونانية، أى لم يكونوا أحراراً بالمعنى الاصطلاحى الخاص الذى تتضمنه كلمة بوليتيس (Polités)، ومن المحتمل أنهم كانوا إلى حد كبير من دم خليط، نتيجة زواج مشترك من اليونانيين والمصريات وقع فى الريف خارج مدينة الإسكندرية، ولكن ذرية هؤلاء الأزواج المختلطين استقرت فى الإسكندرية بعد ذلك. ويمكن المرء أن يفترض بحق أن اليونان جميعاً قد خصوا ببعض المزايا التى تميزهم عن الوطنيين[1] .

(١) لمعرفة تلك المميزات ارجع إلى فيلون – Philo, In Flacc. cha. 78 A. H. M Jones, Cities of Eastern Roman Pro.

والراجح أن جماعة الأحرار فى الإسكندرية كانوا مقسمين إلى طبقات مراتب صغيرة، وإلى قبائل (Phylae) وشعوب (Demoi) وبطون وفخوذ (Phra-tries) لها عصبياتها، على أنه من الغريب إلى حد كبير أن ذلك النظام يكن شاملاً لكتلة المواطنين الأحرار[1] كلها، وهناك بردية من هيبه (Hibeh)[2] يرجع تاريخها إلى الجزء الأول من القرن الثالث تدل على أنه فى إحدى المدن (ولعلها الإسكندرية أو بطليموسه) كان يوجد خمس قبائل، فى كل قبيلة اثنا عشر حياً أو محلاً خاصاً تنزل فيه البطون ويسمى «ديم» (Deme) لكل حى أو ديم اثنا عشر فخذاً أو عصبية (Phratries)[3] ، ولابد أن عدد الديمات والعصبيات أو الفخوذ كان يختلف على مضى الزمان لأنه لايوجد شئ يدل على أنها بقيت بدون تغير طوال حكم البطالمة - ويعتقد كل من العالمين الألمانيين شوبارت وفلكن (U. Wilcken) أن هذه الطبقة الخاصة من المقدونيين، التى تميزت فى الإسكندرية طول حكم البطالمة، كانت تعمل إلى حد كبير فى خدمة الجيش وفى بلاط الملك، وأن أفراد هذه الطبقة كانوا يعدون أنفسهم أشرف وأعلى مقاماً من بقية أهل الإسكندرية الذين كانوا ينتسبون لكتلة الأحرار فيها. ولابد أن القيادة العليا للجيش والمراكز الرئيسية فى البلاط وفى جماعة الموظفين اللازمين للنظام الإدارى كل أولئك كان مقصوراً على هؤلاء المقدونيين الممتازين. ونجد فى تاريخ مصر الحديثة حالة شبيهة بهذه يمكن أن نستند إليها فى تأييد هذا

(١) Jouguet, La Vie Municipale pp. 4, Graeca Halensis, Dikaeomata p. 92; Glotz, Journal des Sevants 1916 p.

(٢) أثار هذه القرية على الشاطئ الشرقى للنيل بين بنى سويف والشيخ فضل وتجاه فى مركز القيس قديماً بإقليم هيرا قليو بوليس.

(٣) Chrestomathie No. 25.

الاستنباط، فبعد أن انضمت مصر إلى الحظيرة الإمبراطورية العثمانية سنة ١٥١٧م. أصبح الأتراك يعتقدون أنهم أرفع شأناً وأعلى مقاماً من المصريين، واستمر هذا الشعور يتملكهم مدة ثلاثة قرون كانت الرياسات العليا فى مصر والإشراف على إدارة الحكم فى الأقسام الإدارية مقصورة عليهم وحدهم.

يهود الإسكندرية:

وكان يوجد غير هؤلاء الأحرار المستكملى الحقوق المدنية، فى وقت متأخر على الأقل، يونانيون آخرون لا يتمتعون بالحرية المدنية الخاصة بمدينة الإسكندرية كما كان يوجد منذ تأسيس المدينة جالية من اليهود زادت أعدادهم مع توالى الزمن حتى اصبحوا كثرة لها منزلتها وأهميتها[١] ولقد ذكر المؤرخ يوسيفوس أن اليهود كانوا من بين سكان المدينة الأوائل ومن المؤكد أنه قبل منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت الإسكندرية تضم جالية يهودية كبيرة استقرت فى عهد أحد البطالمة الأول حى خصص لهم وكان يعرف بحى الدال (الدلتا)[٢] ، وكان يمتد شرقاً من القصر الملكى، ولقد أشار الكتاب الحديثون إلى هذا الحى باسم غيتو (Ghetto) ولكن فى استعمال هذا الاصطلاح بعض التضليل لأنه لم تفرض على يهود الإسكندرية قيود السكنى فى حى بذاته وإنما انتشر هؤلاء اليهود فى الأجزاء الأخرى، تقوم فيها بيعاتهم. ولقد أثير جدل شديد حول مسألة تمتع اليهود بالحرية المدنية فى الإسكندرية فقال يوسيفوس عن قصد أو سوء فهم للحقائق، إنهم كانوا يتمتعون بهذه الحرية المدنية ونحا «فيلون» هذا

(١) Bell, Juden und Griechen in römischen Alexndreia, Alte Orient 9, 1926, H. Bell, Anti Semitism in Alexandria, Journal of Roman Studies vol. XXXI, 1941 pp. 1-4.

(٢) Josephus, Bell. Jud. II, 495، كشفت الحفريات الحديثة التى تقوم بها كلية الآداب عن وجود مقبرة لليهود فى منطقة المستشفى الأميرى فى نطاق حيهم القديم.

النحو أيضاً وتبعهما فى هذا الرأى كثيرون من المحدثين. ولكن من الثابت الآن أن اليهود ككتلة لم يكونوا من المواطنين الأحرار بالمعنى الاصطلاحى ولو أن بعض أفرادهم كانوا يمنحون من وقت لآخر هذا الامتياز[١] ، ومع ذلك فإنهم كانوا يتمتعون ببعض الحقوق التى كانت للأحرار فكانوا يعرفون عادة باسم السكندريين (Alexandrïs) وكانوا يتمتعون ببعض مظاهر هى من صميم الحكم الذاتى بل كانت تفوق من بعض الوجوه المظاهر التى تتمتع بها كتلة الأحرار نفسها، على الأقل فى العصور المتأخرة عندما فقدت مدينة الإسكندرية مجلس المشورة (Boule) – وهكذا كان اليهود خارج نطاق المواطنين الأحرار فكانوا يكونون جزءاً من الجاليات الأجنبية التى كان لها نظامها الخاص بها من مجلس المسنين ومن موظفين مخصوصين وإدارات خاصة بتسجيل العقود لها سجلاتها وكانت تتمتع فوق ذلك بتطبيق قوانينها الخاصة بها فى بعض الأحيان.

ومن الجاليات التى كانت بالإسكندرية الفريجيون (Phrygians) وينتسبون إلى ولاية فريجيا بآسيا الصغرى وكانوا يكونون جالية أخرى (Politeuma) ثم الفرس وهم سلالة الذين استوطنوا مصر قبل حكم البطالمة ولم يكن لهم عصبية ولا شوكة ولا كان عنصرهم أساسياً فى المدينة، ثم يلى هؤلاء جميعاً المصريون وهم من الذين كانوا يسكنون فى قرية راقودة القديمة والذين سكنوا كانوبوس (أبو قير)، وكان الإسكندر قد أمرهم بالتحول إلى مدينته الجديدة. وكانوا محرومين من التمتع بالحرية المدنية وإن كان بعضهم يحصل على هذه الحرية من وقت لآخر. ولم يكن التزاوج بين اليونانيين والمصريين معترفاً به قانوناً[٢] ولكنه

(١) لا يزال بعض العلماء حتى الآن يصرون على تمتع يهود الإسكندرية بالحرية المدنية ولكن الأدلة التى تفند هذا الرأى وتبطله قوية فى رأى العالم هـ.ا.بل (H. Bell).

(٢) A. H. M. Jones Cities of Eastern Rom. Provinces p. 304.

كان يقع كثيراً، وكان الاختلاط بين الثقافتين واقتباس اليونانيين من عادات المصريين وعقائدهم ودياناتهم أمراً لامفر منه. وماوافت نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان الشعب السكندرى مؤلفاً من أجناس مختلطة، ولم ينقض وقت طويل حتى أصبح العنصر الغالب من السكان غير يونانى ولا مقدونى وصار خليطاً لانظام له، له أشباهه وأمثاله فى مدن الشرق الهيلينى.

دستور المدينة:

أما دستور هذه المدينة فليست لدينا عنه معلومات وثيقة. وإن التفاصيل المتعلقة بكبار الموظفين بها واختصاصاتهم لهى لسوء الحظ غير ميسورة لنا فنحن مضطرون إذاً أن نعمد إلى أعمال الحدس والتخمين كيما نتصور ماكانت عليه الحال إذ ذاك. وليست لدينا معلومات ثابتة محققة نستطيع فى ضوئها أن نفصل فى ذلك الموضوع الشائك الذى أشكل على المؤرخين وهو هل كان لها مجلس شورى (Boulê) وهو العلامة المميزة الدالة على تمتع المدينة بحكومة ذاتية. ومن المؤكد أنه لم يكن بالمدينة مجلس شورى فى عهد الرومان حتى عهد الإمبراطور سبتيميوس سويروس (Septimius Severus) ولكن لايزال محل خلاف بين المؤرخين أنه كان بالمدينة مجلس شورى فى عهد أغسطس ثم ألغى على يديه. وعلى الجملة فإن أكثر الآراء احتمالاً فى هذا الموضوع تتلخص فى أن الإسكندر كان قد منح المدينة مجلساً للمشورة ثم حرمها إياه أحد ملوك البطالمة، ولعل ذلك كان عقب حرب من الحروب الأهلية التى ناصرت فيها مدينة الإسكندرية الفريق الخاسر فكان ذلك نتيجة طبيعية لوقوفها موقف المعادى الضالع مع الفريق الخاسر. ومما لاشك فيه أنه فى عصر فيلادلفوس كان يوجد بها مجلس للأحرار (Ecclesia) يتمتع بسلطة فعلية محدودة كما كان

بها مجلس المشورة وهيئة مكونة من ستة من الموظفين العموميين لمباشرة السلطة التنفيذية كان يسمى كل منهم بريتانيس (Prytanis) ولقد ذكر استرابون[١] من بين الموظفين العموميين بالإسكندرية أربع موظفين أولهم هو الملقب أكسيجيتس (Exegetes) وهو موظف كبير واسع الاختصاص أشبه برئيس بلدية المدينة أو عمدتها وهو الذى كان يلبس عباءة أرجوانية ويتمتع بألقاب الشرف التقليدية، وكان هذا الموظف السامى يشرف على مصالح المدينة ويتناول اختصاصه الاحتفاظ بسجل للمواطنين الأحرار وإدارة بلدية الإسكندرية. ثم ذكر إسترابون موظفاً آخر يسمى هيبومنيما توجرافوس (Hypom-nematographos) وهوالمختص بتسلم المظالم وثالثاً هو قاضى القضاة أرخيديكاست (Archidicast) ورابعاً هو الحاكم العسكرى الذى كان يشرف على الأمن ليلاً. والموظفون الثلاثة الأخيرون كانوا تابعين للملك أكثر منهم تابعين للبلدية وكان أمر قاضى القضاة هذا إحدى المشاكل المعقدة التى حار فى حلها الكتاب عن هذا العصر اليونانى[٢] ثم كان هناك موظفون عموميون عاديون آخرون نذكر منهم جيمناسيارك (Gymnasiarch) أو رئيس المنتدى الثقافى والرياضى ثم يوثينيارك (Eutheniarch) وهوالقائم على شؤون التموين ثم كوسيميتيس (Cosmetes) وهو رئيس جماعة الشبان الأحرار (Ephebi) وكان تدوين الاسم فى سجل جماعة الشبان الأحرار هو الوسيلة للحصول على الحرية المدنية، وكان الحصول على شهادة مكتوبة بذلك بمثابة وثيقة قيمة كشهادة

---

(١) إسترابون جغرافية مصر: الكتاب السابع عشر فصل ١٢ (٧٩٧) A. H. M. Jones, Cities of Eastern Roman Provinces p. 304.

(٢) بيفان «مصر فى عهد أسرة البطالمة» صفحة ١٠٢ - ١٠٣».

الميلاد فى العصور الحديثة. ولقد حفظ لنا التاريخ عدة وثائق من هذا النوع، ترجع إحداها إلى العهد الرومانى[١] ، وتشتمل على تاريخ الإنضمام إلى جماعة الشبان، واسم القبيلة والحى.

(١) Wilckcn, Chrestomathie, 146.

الإسكندريـــة

فـى عصــر البطالمـــة

بعض مظاهر الحضارة بها

دكتـور/ **زكـى علـى**

* صدرت هذه المقالة في مجلة كليـة الآداب جامعـة الاسكندريــة (فاروق الأول سابقاً)
في المجلد الرابع ١٩٤٨ ص ص ١٢١ - ١٤٠ .



الإسكندرية في عصر البطالمة
بعض مظاهر الحضارة بها[1]

انفردت الإسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد بنظمها الخاصة وساعدها على ذلك ظروف تأسيسها على أن تكون مدينة هيلينية حقة متمتعة بجميع الخصائص والمميزات التى تتوفر فى المدينة (Polis) أينما تنشأ، وكان اتخاذها عاصمة للبلاد المصرية وهى نائية واقعة على تخوم هذه البلاد وليست فى صميمها وقلبها حتى حدا ذلك بالرومان فأسموها بالإسكندرية الواقعة على تخوم مصر (Alexandria ad Aegyptum) – مدعاة لكثير من التناقض فى نظمها ومظاهر الحضارة فيها وسبباً فى كثير من التعقيد فى تسيير دفة الأمور بها وتعطيل هيئاتها التى أصبحت، فى ظل سلطان ملوك البطالمة الذين كانوا يقيمون بين ظهرانى السكندريين، غير قادرة على أن تعصى لهم أمرا.

القوانين المرعية بالإسكندرية

وكان للإسكندرية محاكمها الخاصة وقوانينها التى تطبق على السكندريين وحدهم، والتى عرفت فى مجموعها بقانون المدينة (Politikos nomos) وكانت هذه القوانين معترفاً بها حتى فى المحاكم القضائية العادية التابعة للملك من خريماتستاى (Chrematiatae) وهى التى تنظر فى قضايا اليونانيين، أو

(١) تناولت فى مقالى السابق الظروف التى أحاطت بتأسيس الاسكندرية والعوامل التى حدت بالاسكندر فجعلته يختار هذا الموقع بالذات، وعرجت على طبوغرافية المدينة ووصف بعض معالمها فى ضوء ماجاء فى سترابون وها آنذا أتناول نواحى أخرى.

كوينوديكيون (Koinodikion) وهى المحاكم المختلطة التى كانت تنظر فى القضايا بين اليونانيين وغيرهم من الأجانب، أو محاكم وطنية - لاوكريتاى (Laocritae) وهى التى كانت تنظر فى قضايا الوطنيين من المصريين، وكان الأساس فى قانون مدينة الإسكندرية لحد كبير مستمداً من القانون الأثينى، وهو السائد فى أتيكا ببلاد اليونان مضافاً إليه بعض تغييرات وتعديلات مشتقة فى بعض الأحيان من غير نظم أتيكا وفى بعض أخرى روعى فيها ظروف مدينة الإسكندرية الخاصة، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار فى المدينة من قرارات فى مجالسهم وتسمى هذه القرارات (psephismata)، على أن السكان المقيمين فى نطاق هذه المدينة الحرة كانوا يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر.

وإنه لمن حسن الحظ أن حفظت لنا الأيام بعض هذه القوانين التى توفرت على نشرها إحدى الجامعات[1] وأصبحت تعرف ببردية هالنسيس (Papyrus Halensis) وتحتوى هذه الوثيقة الهامة على مجموعة من المقتطفات من هذه القوانين المدنية واللوائح التى كانت تطبق على أحرار المدينة ومن يلوذ بهم من أتباع وعبيد، ولكن لا يوجد أى دليل قاطع فى أمر الجهة التى أصدرت هذه القوانين، وهل هى من عمل مجلس الأحرار فى المدينة أم أنها جاءت نتيجة فرض الملك لإرادته على هذا المجلس. ونظراً إلى أنها تلقى ضوءاً على حياة السكان فى مدينة الإسكندرية وتنظم العلاقات بينهم فتأخذ البعض بالشدة بينما تترفق مع البعض الآخر، فإنا نؤثر أن نقتبس منها بعض أحكامها على الوجه الآتى:

(١) جامعة هالى (Halle) بألمانيا التى نشرت هذه الوثيقة القانونية عام ١٩١٣ تحت عنوان (Di-kaiomata) ومعناها القوانين والإلتزامات.

الحقوق القانونية لبعض طبقات السكان في الإسكندرية[١]

«لا يجوز لأحد أن يقيم الدعوى على أحد آخر ممن أنفذهم الملك فى خدمته، لا على أشخاصهم ولا على ضامنيهم، كما لا يحق لمن يوكل إليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقى القبض على هؤلاء.

«وكذلك الحال إذا أقام بعض الناس الدعوى ضد ذرية هؤلاء الغائبين وآلهم أو ضد ضامنيهم فيما يتعلق بأمور كانت موضوع شكوى وقعت عندما كان أولئك الذين رحلوا عن ديارهم ولا يزالون مقيمين بين ظهرانيهم فلا يجوز (حينئذ) أن ترفع هذه الدعاوى أمام ساحة القضاء مالم يكن قد حدث أن هؤلاء بوصف كونهم من الآل والأتباع قد حصلوا لأنفسهم على حقوق (مكتسبة) بالتقاضى مع آخرين بشأن أمور كانت موضوع النزاع فى الوقت المذكور. فإذا كانت الدعوى ضد أمثال هؤلاء فلتقدم للقضاء».

«وإذا ادّعى البعض إنتمائهم لطبقة الآل والاتباع فعلى القضاة الفصل فى هذا الموضوع، فإذا تبين أنهم ينتمون لهذه الطبقة وإذا ثبت أن الأمور موضوع النزاع قد وقعت وقتما كان أولئك الذين رحلوا عنهم لا يزالون يقيمون بين ظهرانيهم ولم يكونوا قد حصلوا بعد على الاقتصاص منهم بالقانون كما هو مذكور أعلاه، فليكن مصير هذه الدعاوى إلى التأجيل حتى يعود أولئك الذين فارقوهم. أما رسوم الدعوى وقدرها العشر أو جزء من خمسة عشر فيستردها دافعوها[٢] .

(١) من بردية هالنسيس I، ١٣٤ – ١٦٥ ترجمة النص المنشور فى «البردى المختار» Select Pa-pyri) لكل من هنت وادجار (Hunt & Edgar)

(٢) هذه الرسوم هى نسبة مئوية مقررة بحسب المبلغ موضوع النزاع وتدفع تأميناً من قبل طرفى النزاع قبل إجراء المحاكمة لتغطية النفقات اللازمة للمحكمة، على أن يسترد المحكوم لصالحه مبلغاً من المحكوم عليه.

«وكل الدعـاوى التى يرفعهـا آخرون ضـد الاتبـاع بعـد رحيل أصحـاب الولاية عليهم وتركهم من بعدهم أو الدعـاوى التى يرفعها الاتباع ضد آخرين، مـدعين عليـهم بأنـهم قد ألحـقوا بهم اضـراراً بعد ترك أوليـائهم لهم – كل هذه الدعاوى يكون مصيرها النظر أمام محكمة الاختصاص للفصل فيها، وإذا حدث أن كان الملك قد انفذ بعض الأشخاص فى مهمة بعد إقامتهم الدعوى ولم تكن المحكمة قد نظرتها بعد فإن لهم حق الاختيار فى استرداد رسوم التأمين من العشر أو الجزء من الخمسة عشر، على أن تؤجل قضاياهم حتى يعودوا، على ألا يقدموا إلى المحكمة قبل أن يودع من جديد أولئك الذين رفعوا الدعوى رسوم العشر أو الجزء من الخمسة عشر التى كانوا قد استردوها من قبل.

«فإذا كان أصحاب الدعوى ممن يقيمون فى الريف[1] (Chora) ثم انقذهم الملك فى مهمة قبل أن تقدم هذه الدعـاوى الى المحكمة فإنها تؤجل بنفس الطريقة إلى أن يعودوا، وكل أولئك الذين منحوا رعوية مدينة الإسكندرية وكانوا قد انضموا فى لواء الجيش فأمرهم يجرى على النحو الآتى: من يتقدم منهم بالشكوى بصدد مرتباتهم ورواتبهم العينية من غلال وما يكون قد آل إليهم من الأموال والغلال التى اضيفت لحسابهم – وكان خصومهم فى خدمة الجيش كذلك ممن منحوا رعوية مدينة الإسكندرية، فإن المقاصة تجرى أمام المحاكم المخصصة للأجانب فيأخذون مالهم ويدفعون ماعليهم، على أن يتم تنفيذ

(١) الريف هنا بمعناه الواسع ويشمل أى جزء من البلاد المصرية فيماعدا الإسكندرية التى كانت تعتبر المدينة، وما عداها فهو ريف لها يمدها بما يلزمها من حاجيات واقوات لضمان كفايتها الاقتصادية واستقلالها السياسى وذلك طبقاً لما جرى عليه العرف عند اليونان.

الأحكام وفق الأمر الملكى[١] ».

عقوبات التعدي في قانون الإسكندرية[٢]

«التهديد بالحديد: إذا هدد رجل حر زميل له بآلة من حديد أو نحاس أو بقطعة من الحجر أو الخشب فعقابه دفع مائة دراخمة إذا خسر دعواه بيد أنه إذا ارتكب عبد من ذكر أو انثى أو أمة شيئاً من ذلك ضد حر أو حرة فعقابه ضرب السياط، ولا يقل ذلك عن مائة سوط، وإلا فعلى ولى المذنب إذا ما خسر دعواه أن يدفع لمن لحق به الضرر ضعف الغرامة المقررة على الحر.

«إضرار السكير بالغير: إذا تعدى سكير على آخر فأصابه بضرر فى موضع من جسده سواء أكان ذلك فى سكون الليل أم فى حرم مقدس أم فى السوق العامة فجزاؤه دفع ضعف الغرامة المقررة.

«إعتداء العبد على الحر: إذا اعتدى عبد أو أمة بالضرب على حر أو حرة فجزاء المعتدى أن يضرب مائة سوط على الأقل، أما إذا اعترف سيد العبد بالواقعة فعليه هو أن يدفع بدلاً من العبد التابع له ضعف العقوبة المقررة على الحر، أما إذا دفع بعدم صحة الواقعة، فللشاكى أن يرفع الأمر للقضاء ويطلب تعويضاً قدره مائة دراخمة عن كل لكزة أو لكمة اصابته، وإذا أدين سيد العبد فعقابه أن يدفع ثلاثة أمثال هذا المبلغ دون مراعاة لتقدير المحكة. أما فى حالة تعدد الكلمات فللشاكى الحق فى أن قدر قيمة التعويض المطلوب، عند رفع

---

(١) كانت هناك أوامر ملكية تسمى (Prostagmata) , (Diagrammata) وتتناول شتى المسائل من اقتصادية وقضائية وتنظم مناحى الحياة فى مصر البطلمية وهذا الأمر الملكى الذى تشير إليه هذه البردية كان شاملاً للتعليمات الواجب إتباعها فيما يختص بالإجراءات القانونية.

(٢) مقتبس من بردية هالنسيس I، ١٨٦ - ٢١٣ فى «البردى المختار».

القضية، وعلى سيد العبد أن يدفع ثلاثة أمثال ما تقرره المحكمة من تعويض.

«العراك بين الأحرار: إذا تحرش حر أو حرة فتعدى بالضرب على حر أو حرة فعقاب البادى بالعدوان، إذا ما أدين، مائة دراخمة دون مراعاة لتقدير المحكمة.

«وإذا تعدى الضرب لأكثر من لكمة، فللشاكى عند رفع دعواه للقضاء أن يقدر هو نفسه مبلغ الضرر الناجم عن الضرب، وعلى المتهم أن يدفع ضعف ماقد تقرره المحكمة من تعويض.

«وإذا اعتدى أحد على موظف عمومى من موظفى المدينة فى أثناء قيامه بمهام منصبه الإدارى فجزاؤه إذا ما حكم بإدانته دفع ثلاثة أمثال الغرامة المقررة».

«جزاء القحة: إذا تعدى أحد على آخر بالسب غير المنصوص عنه فى القانون فللطرف المعتدى عليه، عند رفع دعواه، أن يقدر ما اصابه من ضرر، وعليه فوق ذلك أن يبين بالذات كيف استهدف للسب وتاريخ حدوث ذلك، وإذا أدين المتهم فجزاؤه دفع ما قد تقرره المحكمة من غرامة».

تلك بعض أمثلة من القوانين المرعية فى مدينة الإسكندرية فى عصر البطالمة، وهى تنظم ناحية من حياة السكان بها، وكان هؤلاء، ولا ريب، يمثلون اخلاطاً وأنواعاً جنسية عديدة، وفدوا على المدينة من شتى الأقطار والأرجاء. ويكفى للتدليل على ذلك أنتذكر الحوار الذى رواه ثيوكريتوس (Theocritus) شاعر بلاط بطليموس فيلادلفوس فى القصيدة الراعوية الخامسة عشر التى تصف أجنبياً ضاق بحديث أمرأة ثرثارة من سيراكيوز بصقلية وكانت تسمى براكسينوا (Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلاً «أيتها

المرأتان! ألا تنتهيان عن هذه الثرثرة حتى لكأنكما زوج من الحمام إن سماع هذه الهجة الدورية ذات اللكنة ثقيل على أذنى ومضن لى حتى لينفذ صبرى قبل نهايته، فأجابته براكسينوا: «ياللعجب من أى أرض جاءنا هذا الشخص؟ وما شأنك بنا؟ وماذا يعنيك من ثرثرتنا؟ عليك أن تشترى عبيدك أولاً قبل أن تأمر وتنهى فيهم - اعلم أن من تتحدث لهن وتصدر إليهن الأوامر هن من أهل سيراكيوز، وأحب أن تعلم كذلك أننا من أصل كورنثى فنحن، كما تعلم، نتكلم اللغة البليبونيزية اسوة بأبناء ملك كورنثة، وأظن أنه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللغة الدورية».

ولابد أنه كان بالإسكندرية لهجات أخرى كثيرة كانت تسمع رطناتها فى الشوارع والأسواق وعلى رصيف الميناء وفى الندوات الثقافية وحلبات السباق وساحات الألعاب الرياضية ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات، كانت تعرف باللهجة المشتركة - كوينى - (Koine) وهى اللغة التى تميز بها ذلك العصر الهيلينى الثانى من عصر ماقبل الاسكندر، وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافاً إليها عناصر من اللهجات الأخرى. وكان فى إلتقاء هذه الأجناس والشعوب بالطبع فى هذه البوتقة امتزاج كبير للثقافات وللأفكار الدينية، وقد انتشرت فى الإسكندرية عبادة ايزيس وسيرابيس وعمت كل أرجاء العالم اليونانى - الرومانى، وفى الإسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة، وإنه لمن حديث الخرافة أن يقال أن هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطليموس الثانى، والحق أنها صدرت تدريجياً كيما ينتفع بها يهود الإسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيلينى وكانوا أعرف باللغة الإغريقية منهم بلغتهم الأصلية. وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة

اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت إلى القبطية والسوريانية والأرمينية واللغات الأخرى - وكانت الإسكندرية أحد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة وادماج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب النزاع الأخير بين الوثنية والمسيحية.

وما انتصف القرن الثالث حتى صارت الإسكندرية أعظم مدينة فى الشرق وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً فى العالم يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجند والمشتغلون بالزراعة والهندسة، ثم السياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها - كل أولئك قصدوا إليها من كل حدب وصوب إما للإستقرار فيها وإما لمتابعة سيرهم إلى مصر الوسطى وبخاصة إقليم الفيوم الذى احبه اليونان ورحبوا بالسكنى فيه واستغلال أراضيه بطرق علمية مستحدثة حتى اصبح من مفاخر البطالمة. وفريق من أولئك الأجانب رحل إلى صعيد مصر وأقاصى جنوبها ووصل بعضهم إلى جزيرة الفنتين وتركوا من بعدهم فى سجل أوراق بردية تعرف «ببردى إلفنتين» أثراً يبين حياة أولئك الأقوام وطرائق معيشتهم وعقود زواجهم ومدى إختلاطهم[1] - وهكذا كانت البلاد المصرية بفضل الإصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التى نهجها ملوك البطالمة قد تحول كثير من أراضيها البائرة إلى مزارع مثمرة وتضاعفت غلات الأرض وثمراتها فى كل مكان، وكانت المنتجات الواردة من مختلف انحاء العالم والحاصلات المصرية ترى على أرصفة ميناء الإسكندرية أو تتجمع فى

(١) البردى المختار، جزء أول، ويحتوى على نبذ من هذه الوثائق توضح عقود الزواج والإلتزامات التى تربط أطراف هذه العقود.

مستودعاتها الملكية (Thesauroi) فالعاج وخشب الابنوس والذهب والتوابل كانت ترد من افريقية، ولم تنقطع عن المدينة حاصلات الهند وكان يباع الحرير الوارد من الصين فى الإسكندرية فى عصر متأخر، وكان يرد من بلاد الإغريق الزيت والنبيذ والعسل والتين واللحوم الباردة المجفف والاسفنج وكانت الفواكه على مختلف انواعها ترد من آسيا الصغرى وجزر بحر الارخبيل وكان القمح والشعير وماليها من غلات مصر تحمل فى النيل فى مراكب الى سوق الغلال العظيمة فى الإسكندرية. وفوق ذلك فان المدينة نفسها كانت تقوم بصناعة مواد كثيرة من عطور وزجاج وكتان وبردى كانت تقوم مصانعه المختلفة فى شتى ارجائها[1] .

أهم معالم المدينة

ولما أصبحت الإسكندرية قاعدة لمصر ونقل اليها جثمان الاسكندر واتجه ملوك البطالمة الأولين الى ناحية فى السياسة، لاهى بالمصرية الصميمة ولاباليونانية الفجة، ركزوا جهودهم فى اظهار مدينة الإسكندرية فى ثوب من الحسن والبهاء يبهرون به ابصار العالم الاغريقى، فنمت المدينة بسرعة فائقة وقامت مبانيها تمتد من القصور الملكية على رأس لوخياس (Lochias) فى قطاع كان يسمى براخيوم (Bruchium) فى الجانب الشرقى من الميناء الشرقى، وبدت على جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح فى أبهى حلة، وكانت أول الأبنية العامة التى أقيمت من هذا النوع حتى عدت إحدى عجائب الدنيا، وضع تصميمها مهندس كيندى مشهور يسمى «ستراتوس» (Sostratus) واحتفل

(١) وتلقى وثائق بردى زينون التى يجرى نشرها تباعاً منذ ١٩٢٠، ضوءاً على ما حظيت به المدينة من تقدم اقتصادى وتذكر الواردات إليها من مختلف أجزاء البحر المتوسط والضرائب التى كانت تجبى عليها.

بافتتاحها فى أول عهد بطليموس من الثانى وبوركت باسم الإلهين المخلصين (Theoi Soteres) وهما بطليموس الأول وزوجته، وكانت تتكون من ثلاث طقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين متراً وكان يشع منها ضوء قوى يرى على مسافة ثلاثين ميلاً فى البحر، ويظهر أنها كانت تحتوى بالإضافة إلى ذلك على شئ أشبه بمنظار مكبر لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للاشعة - وكان من معالم مدينة الإسكندرية ضريح الاسكندر الذى عرف باسم سيما (Sema) وهى تحريف من كلمة سوما (Soma) الإغريقية بمعنى جسد، وإلى جواره، بلا ريب كانت تقوم مقابر ملوك البطالمة المتعاقبين من الآلهين المخلصين وهما بطليموس الأول وزوجته ثم الآلهين الاخوين (Theoi Adelphoi) أى بطليموس الثانى وزوجته ارسينوى الثانية وهى أخته، والآلهين المحسنين (Euergetai) وهما بطليموس الثالث وزوجته، والإلهين المحبين لابيهما (Philopatores) أى بطليموس الرابع وزوجته وهكذا. ثم كان هناك السرابيوم المشهور فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى. وتقوم فيه عبادة الآله الجديد سيرابيس الذى اصطنعه البطالمة الأولون كى يكون وسيلة يوحدون بها الشعب ويوثقون بها الصلات[1] .

الإسكندرية مركز للثقافة:

ولم ينس البطالمة حرصهم على مظاهر العظمة المادية لعاصمة ملكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها، فقد اشتهرت قبل كل شئ بدارالحكمة أو الأكاديمية ودار الكتب، ويظهر أن الأولى كانت فى بادئ أمرها معبداً للتاسوع

(١) بيير جوجيه - «السيطرة والاستعمار المقدونى» ص٢٧٨ - ٢٨١

P. Jouguet Macedonian Imperialism pp. 278 - 281

وقد عدد فى هذه الصفحات معالم المدينة وتقسيمها إلى أحياء خمس سميت باحرف الهجاء الأولى.

الإلهى من أرباب العلوم والفنون (Muses)، له رئيس هو سادن لهذه الآلهة، ثم ما لبثت أن أصبحت جامعة كبرى أو على الأقل محفلاً جامعياً أشبه بإحدى كليات جامعتى اكسفورد أو كمبردج فى نظمها وتكوينها(١)، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الإنتاج العلمى والفكرى، بل وتمنحهم مرتبات من خزائنها الملكية فى سخاء، وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة استطاع علماؤها أن يتوفروا على أعمال البحث والتنقيب، لأن التعليم والتدريس لم يكن عملاً إجبارياً فيها، ولقد وجدوا فى المكتبة الملحقة بهم مورداً عظيماً من الكتب والمراجع فى متناول أيديهم يعتمدون عليه فى متابعة أبحاثهم.

ولقد عنى بطليموس الأول منذ أول الأمر بإدخال الأدب الإغريقى إلى الإسكندرية، وكان هو نفسه رجلاً من رجال الأدب إذ كتب وصفاً لحملات الإسكندر وأحاط نفسه بحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبغ عليهم من الحظوة والمودة ما حبب إليهم الإقامة فى الإسكندرية فقرب إليه علماء النحو أمثال زينودوتوس (Zenodotus)، والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas)، وعلماء الرياضة أمثال أقليديس(Euclid)، وكان سخياً نحو هذه الشخصيات الفذة الممتازة بقدر ما كان لين العريكة، وكان يختص ستراتون (Strato) بقدر من عنايته حتى أنه قدم إليه هدية قدرها ثمانون تالنتات(٢) (نحو ١٨,٠٠٠ جنيهاً) فكان يعرف

(١) انظر مقال ربل (H. I. Bell) فى مجلة الآثار المصرية
(Jouinal of Egyptian Archaeology) vol. XIII, p. 176.

(٢) Diogenes Laertius, V, 3. 58.

تماماً، كيف يجزل العطاء لذوى المواهب فى سخاء ملوكى - ولكن ليس بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائه إلى الإسكندرية، فلابد من الاحتفاظ بهم فيها حتى يتركوا أثراً باقياً دالاً على إقامتهم فى مصر، فعمل على تهيئة الضمان الكافى بأن يحصل هؤلاء العلماء فى الإسكندرية لا على رفقائهم وزملائهم فحسب وإنما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراساتهم، هذا فضلاً عن عطف ملك مستنير، وعندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجياً إلى تلك الكعبة التى كانت تنتظر وفادتهم، وكانت الإسكندرية فى تلك الأزمنة المضطربة ملاذاً يأوى إليه رجال الفكر ومستقراً للعمل المثمر وأخذ الناس يرحلون عن بلاد الإغريق التى عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب وكذلك رحلوا عن أسيا التى لم تكن الحياة مستقرة فيها إلى «أثينا الجديدة» على شاطئ مصر الشمالى وقد اتخذت مقراً للعلوم وأصبحت عظمتها إرثاً مشتركاً للجميع، وكان ملك مصر غيوراً على تأييد هذه النهضة الأدبية وتعضيد القائمين بها خشية أن يسبقه فى هذا المضمار ملوك آسيا من السلوقين أو غيرهم فسارع بإنشاء دار للحكمة ودار الكتب وقد بدتا زميلاتهما فى آسيا.

وهنا قد يعرض لنا سؤال وهو: من يستحق الفخر بأن ننسب إليه إنشاء هاتين المؤسستين، أكان بطليموس سوتر أم بطليموس فيلادلفوس؟ وأنه لمن المستحيل علينا أن نجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة لأن النصوص القديمة متضاربة فى أقوالها[1] ، ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من هذه النصوص القديمة ما يؤيد القول بأنه كان بطليموس لثانى - لقد أوضحنا للشاعر التى دفعت ببطليموس سوتر إلى التفكير فى إنشاء دار الحكمة ومكتبة ملحقة بها، ولكن هذا

(١) Plutarch, Apophthegnata 189 d, Clement, Strom. I, 351.

العمل لم يكن من الأمور التى تتم فى يوم وليلة، ويبدو أنه فى أثناء الجزء الأول من حكمه كان مشغولاً بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه والإنتقال من معركة لأخرى فتارة هو فى برقة وأخرى هو فى رودس أو قبرص أو آسيا الصغرى فلم يتح له من الفراغ أو يجد من المال ماكان يتطلبه القيام بمثل هذا المشروع السلمى أما فى الشق الثانى من حياته فقد كان أكثر هدوءاً، قضاه فى استقرار، وبعد أن أقام ملكه على اسس ثابتة ودعائم قوية كان فى استطاعته أن يكرس جهوده فى كثير من السخاء إلى المنشآت السلمية وصادف فى ذلك الوقت (٢٩٩ ق.م.) أن طلب إليه ديمتريوس الفاليرى (Demetrius Phalerius) أن يأويه بعد أن نفى من أثينا، وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وفكر خصب عرف بالنشاط واشتهر بالعلم فكتب وصنف فى كل موضوع يمكن تصوره من تاريخ ونحو وسياسة وخطابة وأخلاق[1] ولقد أكرم سوتر وفادته وانتفع بعلمه بأن وكل إليه الإشراف على دار الكتب ولايمكن أن يكون معنى ذلك تولية وظيفة رسمية شبيهة بتلك التى تولاها مديرو المكتبة وامناؤها الذين خلفوه لأنه لم يكن لدار الكتب وجود حتى ذلك الوقت وكانت الحاجة ماسة إلى شخص يقوم بتنظيمها وكان ديمتريوس أقدر وأصلح شخص للقيام بهذه المهمة الشاقة، وبناءً على مشورته اشترى بطليموس كتباً كثيرة كان من بينها كل ما كتب عن فن الحكم «والكتب» على حد قول ديمتريوس «أكثر شجاعة من رجال القصر على قول الحق للمملوك»[2] . تلك هى الظروف التى نشأت فيها المكتبة التى اصبحت محتوياتها لا تقل فى نهاية حكم بطليموس سوتر عن مائتى ألف مجلد، ولما

(١) Diogenes Laertius V, 5, 80.

(٢) Plutarch, Apophthegm. 189 d.

تولى فيلادلفوس نفى ديمتريوس هذا لأنه كان يشك فى إخلاصه وبذل الملك مجهودات جبارة فى جمع الكتب من كل أنحاء العالم الإغريقى وفى السنين الأولى من حكمه نقلت الكتب إلى دار الحكمة وفى الحقيقة بدأ منذ ذلك الوقت وجود المكتبة الفعلى وينطبق هذا القول على دار الحكمة أيضاً، والمتفق عليه أن بطليموس الثانى يعتبر المؤسس للمكتبة ودار الحكمة[(١)] ومن الممكن أن التصميمات الأولى لتلك المؤسسة قد وضعت فى عهد سوتر الذى استمد الفكرة من أولئك العلماء الذين أحاطوا به ولكن فيلادلفوس هو الذى نفذ المشروع فجنى فخر نسبته إليه وكرس جهوده منذ تولى العرش «لمتابعة التقاليد الموروثة عن والده»[(٢)] . وعلى ذلك يمكن أن نقول بحق إن بطليموس سوتر هو صاحب الفكرة فى إنشاء المكتبة ودار الحكمة وابنة فيلادلفوس هو الذى أسسها واخرجهما إلى حيز التنفيذ.

وقيل إن بطليموس الثانى أصدر أمراً يقضى بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطئ الإسكندرية ماقد يكون معهم من الكتب وأن يبعث بها إلى دار الكتب ويتسلم أصحابها بدلاً عنها نسخاً رسمية[(٣)] ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وإنما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الأخرى وأصبحت محتوياتها فى العصر الرومانى تعد بمئات الألوف من المجلدات.

وكانت دار الحكمة بالإسكندرية تقوم فى الغالب على أسس مقتبسة من

(١) Couat, Alexandrian Poetry pp. 11-12.

(٢) Callimachus, Hymn, IV, 170.

(٣) Galen ed. Kuhn. XVII, 1, 606.

أنموذج إغريقى وكان يلتقى العلماء فى ساحتها وأبهائها لتأدية أعمالهم وللمناقشة فى الأمور الهامة من درس وبحث. وإذا استطعنا أن نتصور ذلك المبنى الرئيسى الذى وصفه سترابون والأبنية الشاسعة فى خارجه وقد ألحقت بالبناء الرئيسى ودار الكتب، وما كان بهذه الأبنية من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة، أمكننا أن ندرك ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة، ففى ظل الهواء الدافئ فى افنيتها وفى كنف البهو غيرالمسقوف (Exedra) كان ينزل أولئك العلماء ضيوفاً يأكلون وينامون فى تلك الدار ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيداً عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون على كتابة مؤلفاتهم التى ذاع صيتها وطبق الآفاق.

كان أدباء الإسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء، ولكن ألوان الأدب التى تميزت بها الإسكندرية لايمكن أن تقارن بما أخرجه اليونانيون من الأدب فى العصور الزاهرة الكلاسيكية (القديمة)، ومع ذلك فكانت آداب الإسكندرية ذات طابع خاص له قيمته، ومن المسلم به، أن طابع الأدب الاسكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع، فقد أظهر كتّاب مدرسة الإسكندرية من العلم والمعرفة مالم يستطع قراؤهم استساغته، وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس[1] تسمى «الاسباب» تلقى لنا بعض الضوء على طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالساً على مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كيما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة تدل على روح العصر، وكان السكندريون قد طغت عليهم إلى بعيد آداب العصر الزاهر اليونانى فيما يختص بأساليب الشعر وقوافيه وليتحقق الانسجام والتوازن وجهوا وجههم

(١) Callimachus, Aitia, (P. Oxyr. XI, 1362)

شطر التجديد فى الموضوع وطريقة المعالجة لما يعن لهم من موضوعات طريفة فكانوا بإستمرار كمن يصب النبيذ الجديد فى زجاجات قديمة، وفى بعض الأحايين لم يكن عملهم فى ذلك موفقاً، وتحتوى مقطوعة حكمية (epigram) من شعر كاليماكوس الذى كان يضرب الأمثال فيه للناس على خلاصة روح الحركة الفكرية فى الإسكندرية: «إنى أمقت الملاحم ولا أوثر المطولات التى يتشعب فيها القول كما يفعل الكثيرون وأكره الغزل التقليدى فى الشعر ولا انهل من ينبوع ينهل منه الآخرون، وأكره كل ما يتعلق بجمهرة الناس وكثرتهم الغفيرة، وكان من آثار هذه النزعة فى هذا الشاعر أن جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذى لم يبرأ من التصنع، ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب، ومع ذلك فإن أناشيد كاليماكوس وملحمة أبولونيوس الرودى تحتوى على مرايا حقيقية إذا قدرنا ما فيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخواطر مؤلفيها – وأن تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الأثر فقدموا لنا فى الأناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتوس نوعاً جديداً واسلوباً فذاً فى المعالجة لم يجاره فيه أحد فيما بعد، وان موضوع الحب الخيالى، الذى عرفه كتاب الإسكندرية ولكنهم لم يستغلوه بقدر كاف فى ذلك الصر، كان مما أثر فى مجرى الأدب الأوروبى وتوجيهه.

ولكن خدمات السكندريين للأدب لم تقتصر على انتاجهم الخاص منه فإن علماء دار الحكمة أو «المحفل الجامعى» إن صح هذا التعبير وفقوا لإختراع فن النقد الأدبى، وأن علمهم فى هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فإننا مدينون لهم بدين عظيم، وإذا كان من الثابت كما يؤخذ من أوراق البردى أن نصوص بضعة نفر من المؤلفين القدامى قد أصبحت فى القرن الثالث قبل

الميلاد محرفة بما أصابها من المسخ والتشويه، فإلى علماء الإسكندرية وأدبائها يرجع أكبر الفضل فى أعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التى نقرأها اليوم ومن يدرى فكم من نصوص الأدب الاغريقى الذى نستمتع بقراءته اليوم كانت تعبث به أيدى البلى والدثور وتعدو عليه عوادى الزمن لولا ماقام به علماء الإسكندرية ونقادها من غيرة وجهد فى البحث عن أصول ونصوص كتب ذلك الأدب الإغريقى الخالد؟؟.

ولعل الإسكندرية قد برزت فى العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة فى علمى التشريح والجراحة وبزت نظائرها من المدارس الأخرى بمراحل كثيرة، أما فى علم الأحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله فى العلوم الأخرى، على أن دراسة علم الاحياء تقدمت فيها بلاشك بفضل حديقة الحيوان التى أسسها بطليموس فيلادلفوس وكان أكبر نصر أحرزته فى ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا. وفى الإسكندرية سبق أرستارخوس (Aristarchus) العالم كوبرنيكوس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة أن الأرض تدور حول الشمس وقاس اراتسثينيس (Eratosthenes) قطر الأرض ووصل فى بحثه إلى رقم لا يختلف عن طوله الحقيقى إلا بمقدار خمسين ميلاً وكتب اقليديس (Euclides) كتابه المسمى «العناصر» وكان اريشيمديس (Archimedes) من بين الذين درسوا هناك. ولكن الجمود العجيب والخمول الذى اعترى الذكاء اليونانى قبل العصر المسيحى بقليل حال دون أن يوفق اليونان إلى معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل أن هذا الجمود أدى بهم إلى إهمال العلوم التى كشفوها من قبل.

حال المدينة في أواخر عهد البطالمة:

ولقد كانت الإسكندرية ميداناً لكثير من الأحداث الهامة فى مدى القرون الثلاث التى حكم فيها البطالمة مصر، ففى القرن الثالث قبل الميلاد إذ كانت قوة أسرة البطالمة على اشدها شاهدت الإسكندرية كثيراً من مظاهر النشاط السياسى والاحداث الهامة فكانت الإحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب أبرز هذه المظاهر فى ذلك العصر، وهناك وثيقة بردية كشفت حديثاً[١] تحتوى خطاباً من وزير المالية أبولونيوس فى عهد فيلادلفوس إلى وكيله زينون فى فيلادلفيا ينبئه فيه بوصول رسل معتمدين من أرجوس وسفراء من قبل الملك بيريساديس (Paerisades) ملك البسفور كيما يشاهدوا مناظر الفيوم وآثارها وهناك بعثة سياسية ثبت أنها أتت من روما وأخرى من قرطاجة وثالثة من الهند، فقد أرسل الأمبراطور البوذى المسمى أسوكا (Asoka) رسله إلى بطليموس الثانى لينصحوه ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت، فهل استجاب لنصحهم، وهل وجدوا فى قلب هذا الملك المفتون بالنساء وإيثار المسرات وحب الترف والعظمة سامعاً أو مجيباً؟ وعقب موت بطليموس الرابع (فيلوباتور) الذى انهمك فى الملاذ والمجون والفحشاء بدأ الحال يتغير وحدثت اضطرابات فى الإسكندرية عندما ظهرت أمام الشعب حظية الملك الخبيثة وأخوها - بعد قتلهما الملكة المحبوبة - يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم، ولكن ثورتهم لم تنجح[٢] ، وتاريخ القرن الثانى هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلى بين أفراد الأسرة المالكة

(١) Symbolae Osloenses, 1927, "Greek Sightseers in Fayum" by Bell.

(٢) قد ذكر المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الحقبة بإسهاب، فصور ما كان يجرى فى البلاط الملكى من منافسات وما كان يقوم به شعب الاسكندرية من اضطرابات.

وحروب أهلية كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها، والسكندريون – ولاريب – قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر، وفى عهد بطليموس الثامن الذى اشتهر رسمياً باسم يورجيتيس الثانى والذى سماه المعجبون به من رعيته فسكون (Physkon) أى السمين نشبت الاضطرابات وقتل الملك فيها عدداً كبيراً من الوطنيين فنشأ عن ذلك تغيير كبير فى أخلاق الشعب السكندرى، ولقد وصف الإسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذى زار مصر فى هذا العصر فقال «كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان: العنصر الوطنى وهم المصريون وهو نشيط لبيب متحضر، والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل أن يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وقلة كفايتهم أن يحكموا لا أن يطيعوا)، ثم ثالثهم العنصر السكندرى وهؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس الأسباب ولو أنهم كانوا افضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم امشاجاً من بلاد مختلفة كانوا يونانيى الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونانيين[1] ، ويقول بوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى، وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة – وهكذا لا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندريين فى العصر المتأخر من حكم البطالمة بشئ من الإعجاب فكانوا فى نظرهم متقلبين سريعى التأثر عنيديين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك إلى اللهو، وهم ثرثارون فيهم طلاقة اللسان ولذعة، قليلو الإحترام للأديان ومع ذلك كانوا يظهرون تعصباً دينياً شديداً فى بعض الأحيان، وكانوا دائماً معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها فى الهياج والشغب على

(١) Polybius, Book XXXIV, 14 De Alexandria, Aegypti Urbe.

الحكام فكانوا مدة قرن شوكة في جانب السلطات التي كانت مسئولة عن حفظ النظام.

وما وافى القرن الأول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر قد اشرف على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيراً حال البلاد الخاضعة لحماية الرومان ، وعندما ثار شعب الإسكندرية في وجه الملك بطليموس أوليتيس (Auletes) أو الزمار، وكان ماجناً مبذراً، أغرم بالزمر وأهمل شئون البلاد طرده شعب الإسكندرية إلى المنفى، ولكنه ذهب إلى روما باحثاً عن معين يعيده إلى عرشه المسلوب، وأخيراً وجد في شخص جابينيوس (Gabinius) قائد جند الرومان وحاكم الشام ضالته المنشودة، فرشاه بالمال وفي نظير ذلك ساعده على العودة إلى بلاده بل واحتل جند الرومان مدينة الإسكندرية لتأييد عرش الملك سنة ٥٥ق.م.، وفيما بعد ذلك بقليل أتى يوليوس قيصر إلى مصر مقتفياً أثر بمبى المنهزم الفار بعد موقعة فرساليا عام ٤٨ق.م.، ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباترة السابعة إبنة بطليموس أوليتيس السابق الذكر، فتنته بذكائها وروحها وأساليبها التي أسهب المؤرخ بلوتارك في تعدادها والإشادة بها[١] ، ولكن العلاقات بين قيصر وكليوباترة لم تمض دون أن يكدر صفوها شعب الإسكندرية وقواتها المحاربة، فقد شق عليهم وجود قيصر بين ظهرانيهم وتدخله في أمورهم ووقوفه من كليوباترة وأخيها الصغير وهو زوجها موقف الحكم، ثم تطورت الأحوال وحوصر قيصر في القصر الملكي وشدد عليه الخناق أتباع أخيها، وقد ساءت الظروف المحيطة بقيصر فترة من الزمان، كان فيها يعاني مرارة الحصار وقلة الماء للاستسقاء وضعف القوات، ولكن أنقذته قوات حليفة أتت من

(١) Plutarch, The Life of Antony.

الشام يقودها مثريداتيس، وفى أثناء القتال الشديد الذى نشب بينه وبين الثوار عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة بأضرار جسيمة، وخاصة الأجزاء القريبة من القصر الملكى وفيها أغنى الأبنية وأعظمها وقد عمد بعض الكتاب إلى القول بأن أجزاء من المكتبة قد تهدمت وأحرقت كنوزها فى هذه الظروف، ولعل الأمر قد اختلط عليهم فظنوا أن الكتب التى كانت على مقربة من رصيف الميناء أو مكدسة فى مخازن فى هذا المحيط والتى اشتعلت فيها النيران هى بعينها الكتب الموجودة فى دار الكتب الكبرى وليست بديلاً أو فائضاً كان قيصر ينوى أن يبعث به إلى روما، وعلى أى حال فلايزال القول بحريق مكتبة الإسكندرية مفتقراً إلى التأييد بعيداً عن الصواب.

توارى يوليوس قيصر عن الإبصار فى مارس سنة ٤٤ق.م. نتيجة تآمر عصبة من الجمهوريين المشفقين على الروح الجمهورية الحقة من نوايا قيصر فى إعادة الملكية إلى روما فى أثواب فضفاضة، وكان يتلمس السبيل ويتحين الفرص ويجسّ نبض الشعب الرومانى ليتعرف على مبلغ تقبله لذلك التغيير الذى لا نعرف مداه إذ حمل هذا السر العظيم إلى قبره بعد أن خر صريعاً فى مجلس الشيوخ الرومانى أثر طعنة من بروتس (Brutus) وقد آل الأمر إلى اكتافيوس وانطونيوس، فتوفرا على تنظيم إرث قيصر وتنفيذ مشروعاته، ثم بدت بوادر الخلاف بين الزعيمين وكانا قد اقتسما العالم الرومانى فاختص انطونيوس بالشرق بما فيه مصر وانفرد اكتافيوس بالغرب وأصبح ناصره والمدافع عنه ضد الشرق، وقد اتصل انطونيوس بكليوباترة وأغرم بها ثم تزوجها، فلم يرق ذلك فى نظر روما التى اخذت تنظر إليه على أنه مفتون وعبد لكليوباترة يريد أن يغلبها على روما ويجعل من الإسكندرية عاصمة للعالم كله، لها السبق على روما، فقام

العالم الغربي يشن حرباً على كليوباترة ونصيرها انطونيوس ومن ورائهما جل قوى الشرق، ووقعت الموقعة الهائلة في اكتيوم سنة ٣١ق.م. فانتصرت قوات روما وباء انطونيوس بالخذلان وعاد هو وكليوباترة إلى الإسكندرية ومعهما اسطول مصر البالغ ستين مركباً، وكان قد انتهى من قبل ذلك عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين انطونيوس وكليوباترة، ولما قيض الأمر بإنتحار المحبين كليهما عقب هزيمتهما في الإسكندرية وفشلهما في الاعتصام بها، ضم اكتافيوس مصر إلى الدولة الرومانية وسجل ذلك في الوثيقة المشهورة بأثر أنقره (Monumentum Ancyranum) بقوله وهو يشيد بأعماله «أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني»[1] ، وقد أصلح اكتافيوس أغسطس شئون الإسكندرية وأصدر عفواً عاماً وأقر امتيازات المدينة ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) إنه «أمر السكندريين بألا يعولوا في تسيير شئونهم السياسية على مجلس الشورى (Boulê) نظراً لشكوكه في أخلاق السكندريين المتقلبة».

وهكذا شهدت الإسكندرية طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثاً عظيمة تركزت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بجل عنايتهم فكان حظها من النجاح وافرا وتقدمها سريعاً، وإنا لنرجو أن تكشف أعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزهو بها على غيرها من مدن مصر القديمة، ونرجو لها أن تستعيد سيرتها الأولى.

(١) Monumentum Ancyranum, Chapter 27 "Aegyptum imperio populi Romani adieci".

كليومينيس

وسياسته المالية فى مصر
فى عهد الإسكندر الأكبر (*)

دكتور

مصطفى العبادى

* صدرت هذه المقالة في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية في المجلد السابع عشر ١٩٦٣ ص ص ٦٥ - ٨٥ .



كليـومينيـــس
وسياسته المالية في مصر في عهد الإسكندر الأكبر

يعتبر عصر الإسكندر الأكبر من أهم فترات التحول والإنتقال فى التاريخ العام، ذلك أن عالماً جديداً فى سياسته واقتصاده واجتماعه كان على وشك أن يولد. لهـذا كـانت دراسـة الرجـال الذين اعـتـمـد عليـهم الإسكندر والذين شـغلوا مناصب أسـاسـية فى حكمه بالغة الأهمـيـة لفـهم ذلك العصر والتطورات التى حدثت فيما بعد.

ولقـد كـان كليـومـينيس أحـد أولئك الرجـال البـارزين، إذ تركـه الإسكندر للإشراف على مالية مصر فأصبح سيد الموقف بها والمتصرف الأول فى شئونها طيلة حياة الإسكندر، ولكليومينيس فوق ذلك أهمية خاصة بالنسبة للمهتمين بدراسة تاريخ الإسكندرية فقد اقترن إسمه بهذه المدينة منذ أيامها الأولى حتى أن كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو يسميه «كليومينيس الإسكندرى[1]» ، ولم ينسبه إلى موطنه الأصلى نقراطس كما فى الكتابات التاريخية الأخرى. والسبب فى ذلك أنه اتخذ من الإسكندرية مركزاً لنشاطه التجارى الكبير الذى شمل البحر الأبيض المتـوسط فى ذلك الوقت، مما زاد فى أهمـيـة الإسكندرية فى العـالم اليونانى عند نشأتها الأولى.

ونظراً لأن شـخـصـيـة كليـومـينيس كـانت قـديمـاً ولاتزال حـديثـاً مـوضـع إختلاف الكتاب والمؤرخين فلعل من الأفضل أن نبدأ بتحليل المصـادر الأساسية

(١) Ps. Aristot. Oec. II. 33,

التى نعتمد عليها فى دراستنا لشخصيته وأعماله. من سوء الحظ أن الوثائق المعاصرة له تكاد تكون منعدمة حتى الآن بإستثناء عدد قليل من العملة عثر عليه، ولهذا كان اعتمادنا كله على المصادر الأدبية ونقصد بها كتابات المعاصرين والمؤرخين اللاحقين الذين تعرضوا للاسكندر وعصره، وهى تنحصر فى كتب ثلاثة: الأول خطبة تنسب خطأ للخطيب الأثينى الكبير ديموسثنيس، والثانى هو الباب الثانى من كتاب الاقتصاد المنسوب إلى أرسطو، والثالث هو ما كتبه المؤرخ اريانوس عن حياة الاسكندر الأكبر.

أما عن المصدر الأول وهو الخطبة التى نسبت خطأ إلى ديموسثنيس[1] فسبب نسبتها إلى الخطيب الأثينى الكبير أنها أضيفت إلى المخطوطات القديمة لمجموعة أعماله وظلت كذلك حتى أثبت النقاد المحدثون أن هذه الخطبة ليست لديموسثنيس وأنها ألقيت عقب وفاته مباشرة سنة ٣٢٢ق.م. ومع ذلك فهى تعتبر وثيقة معاصرة فى الدرجة الأولى من الأهمية، لأنها كتبت بيد محام أثينى فى قضية ضد أحد أعوان كليومينيس نفسه فى أثينا. وهذه الخطبة تزودنا بمعلومات فريدة عن شبكة السماسرة الذين كانوا يعملون لحساب كليومينيس فى المراكز التجارية الرئيسية فى البحر الأبيض المتوسط للسيطرة على تجارة القمح الدولية. ولكن أمراً واحداً يجب أن نحتاط له عند قراءة هذه الخطبة، وهو أن اسلوبها البليغ فى حملته القاسية ضد كليومينيس قد يجرفنا تياره. فالخطبة كتبها محام محترف، وهى موجهة ضد كليومينيس وأعوانه لتلاعبهم بتجارة القمح فى اثينا. وكما نتوقع فى مثل هذه الظروف فالمحامى ينتحل كل حيلة قانونية ووسيلة بلاغية للنيل من كليومينيس وأعوانه كى يكسب القضية. ولهذا وجب

(١) Dem. Lvl, (O.C.T.)

على المؤرخ المدقق أن يأخذ كلامه بحذر شديد وأن يتبين مقدار المبالغة فيه.

أما عن المصدر الثانى، وهو الفصل الثانى من كتاب الاقتصاد الذى ينسب خطأ إلى أرسطو[١] ، فمن المرجح أنه كتب فى نهاية القرن الرابع ق.م بيد واحد من تلاميذ أرسطو نفسه من المشائين الأولين[٢] . ومع ذلك فيمكننا أن نقبل قيمته التاريخية[٣] بكل اطمئنان نظراً لأنه دراسة معاصرة للأحوال الاقتصادية فى القرن الرابع بأسلوب جاد لم يسبق من قبل. ويقع الكتاب فى جزئين، الأول يعتبر أول محاولة من نوعها لوضع نظرية اقتصادية، والثانى - وهو موضع اهتمامنا هنا - يحوى أقاصيص تتعلق بأعمال ومناسبات إقتصادية. فى هذا الجزء الثانى يذكر المؤلف سبع مناسبات لكليومينيس تمثله شخصية إنتهازية لا تعبأ كثيراً بالوسائل مادامت تؤدى إلى الأهداف التى يسعى إليها. ولكن يجب أن نذكر هنا أن هذه الأقاصيص لا تعطينا وصفاً كاملاً لسياسته الاقتصادية، فكلها تروى إجراءات اتخذت فى ظروف استثنائية، وهو طابع هذا الجزء من الكتاب.

أما المصدر الأخير فهو كتاب المؤرخ أريانوس عن فتوح الإسكندر، ويتضمن معلومات تاريخية قيمة عن عصر الإسكندر وخاصة فى النواحى العسكرية والسياسية والإدارية. ورغم أن إريانوس كتب فى القرن الثانى الميلادى إلا أنه استقى مادته من كتابات اثنين من أصحاب الإسكندر نفسه،

---

(١) أنظر B.A. Van Groningen: Aristote, Le second Livre de I'Economique, leyde, 1933. الذى يعتبر خير طبعة لهذا الكتاب، ويتضمن مقدمة دراسية وحواشى وافية.

(٢) ibid. pp. 34, 43

(٣) ibid. p. 5.

وهما أرستوبولس والملك بطليموس الأول. ويذكر أريانوس أنه اعتمد بنوع أخص على بطليموس، وأن استعانته بأرستوبولس قد اقتصرت على مجرد تكملة أو ملء فجوات فى رواية الآخر. ويبدو أنه شعر أن هذا التمييز بين مصدريه احتاج إلى ما يبرره فقال فى افتتاحية كتابه بما أن بطليموس كان ملكاً فإن تزييف الحقائق كان يسئ إليه أكثر مما يسئ إلى أى شخص آخر[1] . ونحن الآن بعقولنا الحديثة قد نسخر من سذاجة هذا المؤرخ القديم الذى كان لايزال يحسن الظن بالملوك، ولكن الواقع أن أريانوس أسدى للتاريخ خدمة جليلة بإعتماده على بطليموس الذى كتب خير تاريخ للاسكندر على الإطلاق، ولولا اعتماد أريانوس عليه لضاع كل ما كتب بطليموس. وتاريخ بطليموس قيم لا لأنه كتب بيد ملك ولكن لأن كاتبه كان قائداً من الطراز الأول ومن المقربين إلى الإسكندر، وقد استخدم فى كتابة تاريخه يوميات الإسكندر نفسه. لهذا كله كان بطليموس حجة فى الجوانب العسكرية لحملة الإسكندر وثقة فى دراسة شخصية الإسكندر وحياته الخاصة. أما إذا تعدينا ذلك إلى جوانب الإدارة والسياسة فإن ثقتنا فى بطليموس تأخذ فى الإنكماش، والسبب فى ذلك أن مصلحة بطليموس السياسية تدخل هنا فى الاعتبار، لأن سياسة الملك واسلوبه فى الإدارة كان يختلف عن مناهج الإسكندر. والملوك فى ذلك مثل السوقة يضيقون بما يضر بمصالحهم ويحتالون على تغييره أو إخفاء معالمه. هذا من الناحية العامة أما فيما يتعلق بموضوع دراستنا وهو كليومينيس فإن كل ما يذكره بطليموس عنه يجب أن يوضع موضع الشك الشديد، وذلك لما نعرفه عن الخصومة التى نشأت بينهما حين أصبح بطليموس والياً على مصر وكان كليومينيس هو المتصرف فى خزائنها. فضاق

(١) Arrian, I. 1. 2, alsa cf, VI. 2. 4.

كل منهما بالآخر وانتـهى الأمر بأن لفق له بطليموس التهم وحاكمه وقتله. لهذا كان من الطبيعى أن حرص الملك بعد ذلك على تشويه سمعة كليومينيس لتبرير مسلكه وليؤكد أن عهده كان خيراً من عهد سلفه.

هذه بعض مـلاحظات عن مـصـادر دراستنا رأينا أن نقـدم بهـا حـتـى لا نتورط نحن فيما ذهب إليه أصحابها من أحكام ومبالغات عن كليومينيس.

أما عن تاريخ الشخصية التى نحن بصدد دراستها فالغموض يكتنفها فى أكثر من جانب وفى أكثر من فترة. فنحن لانكاد نعرف شيئاً عن حياته بإستثناء العقد الأخير منها. ولكن نعرف من اسمه أنه إغريقى من مدينة نقراطس، ولما كانت الوظيفة الأولى لهذه المدينة هى أنها مركز للتبادل التجارى بين اليونان ومـصـر، فليس من شك فى أن العمل الأسـاسى للجـاليـة اليـونانيـة هناك كـان التـجـارة. لذا فمن المرجح أن كليـومينيس كـان أحد هؤلاء التـجـار الإغـريق فى نقراطس. ولكنه يظهر على مسرح التاريخ المسجل لأول مرة فى النظام الإدارى الذى وضعه الإسكندر الأكبر لحكم مصر[١] . والمعالم الأساسية لهذا النظام هى أن مصر قسمت إلى إقليمين شمالى وجنوبى، وعهد بإدارة كل منهما إلى حاكم يحمل لقب نومارخس Nomarchos. وحينما تنحى أحدهما المسمى بتيزيس -Pet isis، قام الآخر دولاسبيس Doloaspis بإدارة الإقليمين معاً. كما عين الإسكندر بيو(ر)كستيس بن ماكارتاتوس (Peucests son of Macartatus) وبلاكروس بن أمنتاس (Balacrus son of Amyntas) لقيادة الحامية العسكرية التى خلفها فى مصر، أما الأسطول فقد عين بوليمون بن تيراميـنيس -Polemon son of Ther)

(١) أنظر وصف النظام فى Arrian, III. 5. وتحليلاً له فى E. Bevan A History of Egypt under the Ptolmaic Dynasty, 1927, pp. 15 f.

amenes) قائداً له. وكذلك عين ضابطين آخرين لقيادة الحاميتين عند ممفيس والفرما.

بالإضافة إلى هذا النظام اهتم الإسكندر اهتماماً خاصاً بحدود مصر الغربية والشرقية، فعين حاكمين أو محافظين للمنطقتين: أبو للونيوس بن خارينوس (Apollonius son of Charinus) على ليبيا ويقصد بها صحراء مصر الغربية، وكليومينيس النقراطيسى على «الصحراء العربية»[1] ويقصد بها الصحراء الشرقية، شرقى الدلتا إلى البحر الأحمر، ولكن لم تكن هذه هى الوظيفة الوحيدة التى اسندت إلى كليومينيس بل عهد إليه بأخطر وظيفة فى النظام بأسره وهى الإشراف على الخزانة والشئون المالية، وقد أمر الإسكندر حكام الأقاليم أن يستمروا فى إدارة أقاليمهم بنفس الأسلوب الذى اعتادوه من قبل، على أن يجمعوا الجزية التى فرضها عليهم وأن يسلموها بدورهم إلى كليومينيس[2] .

مهمة ثالثة عزيزة إلى قلب الإسكندر عهدت إلى كليومينيس وهى الإشراف على إنشاء وتعمير مدينة الإسكندرية الجديدة[3] .

هذه هى المعالم الأساسية للنظام الذى وضعه الإسكندر لحكم مصر، على أن ظاهرة هامة تثير انتباهنا عند النظرة الأولى لهذا النظام وهى خلوه من منصب السلطة العليا فى البلاد، فليس فيه مكان لحاكم عام أو وال لمصر بأسرها. وإنما وزعت السلطة بعناية بين الموظفين الإداريين والعسكريين والماليين، دون

---

(١) Arrian, III. 5. 4

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وردت هذه الحقيقة فى كل من Justinus, XIII. 4. II, Oec. II. 33 (= 1352a. 28)

وجود رئيس لهم جميعاً. ولقد لاحظ المؤرخ القديم أريانوس هذه الظاهرة وفسرها بأن الاسكندر تعمد هذا الوضع حتى يمنع أى شخص من أن يزداد سلطانه على الآخرين ويستقل بالولاية(١) . ونحن ندرك ما يقصد إليه إريانوس وباستطاعتنا أن نقبل تفسيره دون تساؤل، غير أن الصعوبة تنشأ حينما نجد أن المصادر المعاصرة تصف كليومينيس بأنه «حاكم مصر» فكتاب الاقتصاد يقرن اسمه بلقب «ساتراب»(٢) ، وهو لقب حاكم الولاية فى النظام الفارسى، واستخدمه اليونان أحياناً فى حالة الولايات الشرقية والأسيوية. وتتحدث الخطبة المنسوبة إلى ديمستثنيس عن «كليومينيس حاكم مصر ....، ومنذ أن تولى الحكم»(٣) . ولقد أفاض الأستاذ فان جرونتجن، فى بحث هذه المشكلة وانتهى إلى القول بإنه رغم أن النص الصريح يعوزنا، فمن المحتمل أن يكون الاسكندر قد غير خطته بعد عودته من الهند ومنح كليومينيس ذلك السلطان الأعلى فى الولاية وجعله «ساتراب»(٤) . وأخيراً إتخذ المؤرخ تارن موقفاً مشابهاً حين اقترح أن من المحتمل أن دولاسبس – الحاكم الذى عينه الاسكندر دون أن يكون له منصب ساتراب – توفى بينما كان الاسكندر فى الشرق، فأمر الاسكندر الموظف الذى يليه فى الأهمية – وهو كليومينيس – أن يباشر شئون الحكومة حتى يتمكن هو (أى الاسكندر) من أن يبت فى الأمر .. ويضيف تارن بعد ذلك «وبطبيعة الحال سلك كليومينيس مسلك الحاكم المتمكن»(٥) .

(١) Arrian. III. 5.7

(٢) Oec II. 33 (1352. Q. 15) :

(٣) Dem. LVI. 6 ، وانظر أيضاً Arrian, VII 23.8 حيث يستخدم لفظ حكم، وكذلك فى Arrian, Succ. 5 .

(٤) R.A. Van Gnoningen, De Cleomene Naucratita Mnemos. 53 (1925) 113 ff.

(٥) W.W. Tarn, Alexander the Great, II (1948) 303 n.1.

وكلا الرأيين مُغر، إذ يبدوان وكأنهما يحلان المشكلة فى حين أنهما فى الواقع يتجنبانها. فمن الممكن أن نتصور أن الإسكندر قد غير خطته فى حكم مصر، ولكن ليس لدينا دليل على ذلك فسندنا الوحيد على أن الإسكندر عين كليومينيس والياً هو الكاتب المشهور بوزانياس Pausanias ولكنه لسوء الحظ يقف بمفرده فى هذه الدعوى، كما أن سنده التاريخى يعتبر ضعيفاً فى مثل هذه الأمور، هذا مع العلم أنه كتب فى القرن الثانى الميلادى أى بعد الإسكندر بنحو خمسة قرون. وبإستثناء عبارة بوزانياس فإن جميع المصادر تتفق فى أن نظام الإسكندر لإدارة مصر كان خالياً من منصب «ساتراب»، وأنه من المحتمل أن الإسكندر فعل ذلك عمداً كما يقترح أريانوس الذى كان أكثر دراية بعصر الإسكندر والذى اعتمد فى أحكامه على كتابات معاصرة للاسكندر.

ويؤيد ما ذهب إليه أريانوس أن المؤرخ كورتيوس روفوس[1] ينص على أن مصر تركت فى أيدى القائدين العسكريين، وأن الحاكمين المصريين كانا على رأس الإدارة المحلية، أى بمثابة وسطاء بين المصريين من ناحية والإسكندر وموظفيه من ناحية أخرى.

هذه هى بعض الاعتراضات التى يمكن أن تثار ضد الاقتراحين اللذين اقترحهما فان جرونجن وتارن، ومع ذلك فيحق لنا أن نتساءل لماذا برز كليومينيس دون سائر الموظفين إلى هذه المكانة المرموقة. وللإجابة على هذا السؤال نقول إن إهتماماً كبيراً فى الامبراطوريات القديمة كان يلقى على الجانب المالى ومواد التموين التى يمكن الحصول عليها من الولاية وهذه الناحية بالذات كانت بالغة الأهمية بالنسبة للاسكندر الذى كان لايزال مشغولاً فى فتوحه،

(١) Curtius Rufus, IV. 8. 4

وكان فى حاجة إلى مدد مستمر من المال والمؤن، لهذا السبب كان الشخص الذى أشرف على الشئون المالية فى الولاية أكثر أهمية، وله من السلطات ما يمكنه من أن يبعث للملك بالمال والمؤن اللازمة. وبعض الإشارات المتفرقة تبين أن مثل هذه الإمدادات كانت ترسل من مصر، وأن الإسكندر كان على علم مستمر بسير الأحوال فى الولايتين وكان يبعث إلى كليونينيس بإرشاداته وتوجيهاته عند الضرورة[١] . وبسبب عدم وجود منصب ساتراب فى الولاية كان أمام كليونينيس فرصة هائلة ليملأ هذا الفراغ وأن يصبح المتصرف الفعلى فى شئون الولاية دون أن يتولى منصب الحاكم رسمياً، وقد أعانه على ذلك مواهبه الشخصية وتعدد مسئولياته فى الحكومة.

وإذا قارنا كليونينيس بغيره ممن تولوا الشئون المالية تحت حكم الإسكندر فى الولايات الأخرى نجد أن شخصية كليومينيس لا تختلف كثيراً عن هذه الطبقة من كبار الموظفين فى ولايات الإمبراطورية الأخرى. وخير مثال نستشهد به هو هاربالوس[٢] أبرز هؤلاء الموظفين الذى كان له من شدة الطموح والرغبة فى السيطرة مما جعل الإسكندر يقرر التخلص منه. وإذا أضفنا فى حالة كليومينيس علاقاته التجارية مع بلاد اليونان، لأصبح من السهل أن ندرك إمكان إطلاق ألقاب حاكم وساتراب على الرجل الذى سيطر على شئون مصر فى حياة الإسكندر، فلم يكن هناك مفر من مواجهة كليومينيس عند التعامل مع مصر.

---

(١) انظر Athen, IX. 493. c، رغم أنه قد ثبت أن الخطاب الذى ينسب إلى الاسكندر والمرسل إلى كلومينيس مزيف، إلا أنه من المحتمل أن مثل هذه الخطابات تبودلت بين الاسكندر وكليومنيس. الخطاب ذكر فى Arrian, VII. 24.6 ولنقده انظر
Tarn, Alexander, II. pp. 304 - 6.

(٢) Tarn, Alexander, I. 128 - 9 etc.

هذه الوقفة الطويلة عند النظام الذى وضعه الاسكندر لحكم مصر يمكن إلتماس العذر لها إذا كانت قد وفقت فى تبيان مركز كليومينيس الخاص فى مصر. فعلى اساس مركزه القوى فى الحكومة أمكنه أن يقوم بنشاطه التجارى الهائل فى البحر الأبيض المتوسط. والآن ننتقل إلى وصف هذا النشاط وأسلوبه، ويحسن بنا أولاً أن نذكر أن وظيفة كليومينيس الأولى كمحافظ أو مدير للصحراء «العربية» لم تكن بالغة الأهمية. ويبدو على أى حال أن الاسكندر لأغراض عسكرية أنشأ وحدة إدارية جديدة تشمل جميع المنطقة من الفرما إلى فلسطين بما فى ذلك الساحل ومايليه من الصحراء فى الجنوب، ولعلها شملت أيضاً المديريتين القديمتين شرقى الدلتا[١]. بهذا المعنى تعتبر هذه الوظيفة تجديداً إدارياً استحدثه الاسكندر، كما فعل فى حالة إقليم ليبيا الإدارى غربى الدلتا[٢]. لم ترد لنا أى أخبار عن نشاط كليومينيس فى الصحراء العربية، ولكن يبدو أن الطريق من مصر إلى فلسطين وبابل كان قد أمن للنقل والتجارة وأن البعثات المختلفة تبودلت بين الملك والقائم على خزائن مصر.

على أن المجال الذى أظهر فيه كليومينيس تفوقاً غير عادى كان مجال التجارة والاقتصاد وعلى الرغم من أن الدليل القاطع يعوزنا فقلما يشك أحد فى أن كليومينيس كان أحد كبار تجار الإغريق فى نقراطس أصلاً، وأن معلوماته

(١) على التقسيم الإدارى لمصر القديمة انظر:
H. Gauthier, Les Nomes d'Egypte depuis Hérodote jusqu' à la Conquête Arabe, Le Caire, (1935) pp. 138. gf.

وكذلك كتاب:
A. H. M. Johes, Tho Cities of the Eastern Roman Provinces (1938) pp. 299 gf.

(٢) Drrian. III. 5. 4

الخاصة عن أحوال مصر الاقتصادية كانت الباعث على اختيار الإسكندر له ليتولى الإشراف على خزائن مصر. وما من شك أن ألفاظ مؤلف كتاب الاقتصاد تصف كليومينيس أتم وصف حيث يقول: «يلزم لمن يتصدى لولاية الأمر أن يكون ملماً إلماماً تاماً بأحوال البيئة التى يلى أمرها، وأن يكون متمتعاً بسلامة الفطرة والاستقامة الشخصية وحب العمل»[1] .

كان كليومينيس أشد مايكون حاجة إلى المال ليقوم بمسئولياته المختلفة، وهى إنشاء مدينة الإسكندرية الجديدة وإرسال المؤن والأموال التى كان يأمر بها الإسكندر، ثم يضاف إلى هذا تمويل الإدارة والجيش فى البلاد، وفوق ذلك كله يجب أن نذكر أن مصر كانت تعانى فى هذا الوقت من آثار فترة التدهور والتأخر بسبب الحكم الفارسى الذى سبق عصر الإسكندر ولعل مجرد الضرائب العادية من المزارعين لم يكفى لسد جميع إلتزامات كليومينيس. ومن أجل التغلب على هذه الحالة والتمكن من تنفيذ مشروعاته لجأ كليومينيس إلى بعض الإجراءات الاستثنائية فى المجالين المالى والتجارى للحصول على أكبر قدر ممكن من المال وقد وجد هدفاً مناسباً فى طبقة الكهنة، أغنى وأقوى طبقة فى مصر فى ذلك الوقت. بعض أفرادها يمتلكون ضياعاً واسعة، كما أن المعابد تملك مساحات هائلة من أرض مصر، وتتحكم فى صناعة كبيرة تعتمد على منتجات أرضهم. وقد بدأ كليومينيس بتجريب قوته الجديدة ضد هذه الطبقة، ونجحت المحاولة وأثبتت أن هذه الطبقة كانت آخذة فى الضعف. ولدينا قصتان توضحان مسلك كليومينيس تجاه الكهنة، الأولى تتعلق بكهنه التمساح المقدس فى مديرية التمساح (التى سميت فيما بعد بمديرية أرسنوى فى العصر البطلمى

(١) Oce. II. i. 1 (= 1345. b. 7)

بعد عام ٢٧١ ق.م. وهى الآن محافظة الفيوم) وتروى القصة أنه بينما كان كليومينيس مبحراً ذات يوم فى تلك المديرية، حيث كان التمساح يعبد، إختفى أحد رجاله، على أثر ذلك إستدعى كليومينيس الكهنة وأنبأهم أنه انتقاماً من هذا الإعتداء على أحد رجاله دون سبب سوف يقوم بصيد التماسيح. أمام هذا الإنذار قرر الكهنة – إرضاء لكليومينيس – جمع مبلغ ضخم من المال وإعطاءه له حتى لا تحيق الإهانة بالآلهة. وفعلاً نجح أسلوب الكهنة فى الإعتذار وهدأ المال غضبة الوزير(١) .

أما القصة الثانية فتروى حادثة أخرى أكثر جدية وأكثر قيمة من الناحية التاريخية، فهى تصور لنا حملة واسعة النطاق ضد طبقة الكهنة فى مصر بأسرها. فى هذه المناسبة جمع كليومينيس جمهور الكهنة وأخبرهم أنه يرى أن هناك إسرافاً فيما ينفق على المعابد ومن أجل خفض النفقات يقترح أن تلغى بعض المعابد، وكذلك مناصب عدد من الكهنة. فأسقط فى أيديهم وظنوه جاداً فى دعواه، فجمعوا مبالغ كبيرة من المال من حسابهم الخاص ومن أموال المعابد وقدموا إلى كليومينيس، مما جعله يعدل عن عزمه(٢) .

يجدر بنا عند هذه المرحلة أن نتساءل إن كان يحق لنا أن نصدق كل مايرد فى هذه القصص. ولعل قائلاً يقول إن هى إلا بعض أساطير ومبالغات صدرت عن غير ثقة كما هو الحال فى كثير من قصص هيرودوت. وهو قول محتمل جداً لولا أن أعمالاً أخرى من نفس النوع صدرت عن كليومينيس ورويت فى الكتاب نفسه، وتدعمها أدلة أخرى مستمدة من كتابات معاصرة

(١) Oec. II. 33 (1352. a. 23 f.)

(٢) Oec. II. 33 (1352. b. 20 f.)

أيضاً كما سيرد بعد قليل فيما يتعلق بتجارة القمح. فمن المقبول عقلياً إذن أن هذه القصص - ولو أنها قد زيد عليها قليلاً أو بولغ فيها بعض الشئ ليتسق الإطار القصصى - تصف أعمالاً حقيقية صدرت عن كليومينيس وتصور منهجه واسلوبه فى تدبير السياسة المالية. فهى تكشف لنا عن سياسة موجه ضد المعابد والكهنة، وأن كليومينيس كان يهدف إلى الإقلال من ثروتهم والإضعاف من سلطانهم فى البلاد، حتى يسهل له قيادهم آخر الأمر. هذا الإتجاه يختلف تماماً عن إتجاه الاسكندر الذى كان يظهر للألهة كل إكبار وتقدير، حتى لقد بلغ من شدة عاطفته الدينية بحيث يمكن أن يوصف معه بأنه كان متطيراً أكثر منه ورعاً. ولعل من الغريب أن يقدم كليومينيس على مثل هذه الأعمال دون أن يخشى غضب الاسكندر. ويبدو أن هذا الخاطر قد عرض للمؤرخين القدماء، وفسروه بأن الاسكندر كان شديد الثقة فى كليومينيس، وأوردوا خطاباً نسبوه للاسكندر ووجهوه إلى كليومينيس، يؤكد فيه الاسكندر أنه قد صفح عن كل ماصدر من كليومينيس. ولكن ثبت من النقد العلمى الحديث أن هذا الخطاب غير صحيح وأنه تزييف لاحق على عصر الاسكندر بما لا يقل عن خمسين سنة[١] .

ولكن يمكننا بطريقة أخرى أن نفسر إستمرار ثقة الاسكندر فى خازنه حتى بعد عودته من الهند حين لم يحتمل سلوكاً مشابهاً من أمناء خزائنه الآخرين والذين كانوا أكثر قرباً من الاسكندر[٢] . فمن المحتمل - كما يبدو من لغة القصص ولهجتها - أن هذه الأعمال حدثت فى فترة مبكرة من تولى كليومينيس منصبه، أى فى الوقت الذى كان لايزال يسعى فيه إلى تثبيت مركزه

(١) الخطاب ورد فى Arrian, VII. 23, 6-7 ولنقـده أنظر Tarn, Alexander the Great, II, pp. 304 ff.

(٢) أنظر كتاب تارن المؤلف نفسه.

وإحكام سيطرته على مالية البلاد، وذلك هو الوقت الذى كان فيه الاسكندر مشغولاً كل الانشغال بحروبه ضد فارس والهند.

إن جميع أعمال كليومينيس سواء ضد الكهنة أو غير ذلك كانت تهدف إلى غاية واحدة وهى صالح الخرانة. وهو فى ذلك لم يقصر نشاطه على القيام بأعمال أمين الخزانة، ولكن دبر أمر خزانة الدولة على نحو ما يدبر التاجر حسابه الخاص. فإن أعمال كليومينيس تعتبر تجربة لها أهميتها بالنسبة لدارسى تاريخ الاقتصاد والمال، وكم نحن فى حاجة إلى وصف كامل لسياسته المالية، إذ كل ما وصل إلينا من أخباره لايعدو إجراءات متفرقة - مثل النموذجين الماضيين - تبدو كأنها قد تمت فى ظروف إستثنائية. ومع ذلك فهى تكشف عن نوع من السياسة الاقتصادية ذات طابع معين. فخطته ضد الكهنة كان لها نتيجتان: زيادة فى قوته المالية من ناحية، وإضعاف لطبقة الكهنة كمنافس له فى الداخل. على أن أعمالاً أخرى قام بها كليومينيس تعتبر أكثر دلالة فى هذا المجال لأنها تكشف عن سياسة مرسومة تهدف إلى سيطرة الدولة ممثلة فى شخص كليومينيس على إقتصاد البلاد ومعلوماتنا عن هذه الأعمال مستقاة من كتاب الاقتصاد نفسه ومن الخطبة المشهورة «ضد ديونيسود وروس المنسوبة إلى ديموسثينيس. الأول يزودنا بأعمال إقتصادية ثلاثة، والخطبة تعطينا وصفاً شيقاً لأسلوب كليومينيس فى إدارة تجارته العالمية.

إثنان من أعمال كليومينيس الواردة فى كتاب الاقتصاد لهما دلالتهما، إذ أنهما يمثلان قمة فى سياسته الاقتصادية، ونقصد بذلك إحتكار تصدير القمح المصرى إلى الخارج. فى الحادثة الأولى نرى محاولة محكمة للقضاء على المنافسة المحلية ووضع الاحتكار موضع التنفيذ[١] ، فهو يصدر أوامره فى بادئ

(١) Oec. II. 33 (1352. a. 17 ff)

الأمر بمنع تصدير القمح، ولكن يحدث أن يحتج حكام الأقاليم المصريون ويدعون أنهم سيعجزون عن جمع ودفع الضرائب المطلوبة إذ حظر عليهم تصدير القمح الذى كان مصدر ربح كبير. ففاوضهم كليومينيس واقترح حلاً وسطاً يحقق له كل ما يهدف إليه ويحفظ على المصريين مظهر إمكان التصدير. ذلك أنه سمح بالتصدير مقابل ضريبة عالية جداً، مما أدى إلى الإضعاف كثيراً من المنافسة المحلية، وفى الوقت نفسه سيجنى ضرائب هائلة على الكميات القليلة من القمح التى سيصدرها الأفراد بعد ذلك.

ويذكر مؤلف كتاب الاقتصاد فى تقديمه لهذا النبأ بأن هذا حدث فى وقت كانت مصر تعانى فيه من قلة المحصول بينما انتشرت مجاعة شديدة فى سائر البقاع. وكليومينيس الذى كان يتمتع بكافة صفات الرأسمالى الطموح أراد أن يستغل هذه الظروف إلى أقصى حد، فأتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى أشد خطورة وأبعد أثراً فى أحكام سياسة الاحتكار. فجمع كبار منتجى القمح فى مصر وساومهم فى الثمن الذى به يبيعون له محاصيلهم. وكان سعر السوق آنئذ هو عشر درخمات للكيل الواحد، ومع ذلك عرض المزارعون ثمناً أقل من ذلك – ولعلهم شكوا فى نواياه وظنوه سيعرض ضريبة جديدة بنسبة السعر. ولكن كليومينيس – لدهشتهم الكبيرة – عرض عليهم سعر السوق الأعلى، وبذلك استولى على كافة المحصول وباعه فى الخارج بأثنين وثلاثين دراخمة، أى بأكثر من ثلاثة أمثال قيمته[1] .

فى هذين المثالين حقق كليومينيس سياسة إحتكارية صريحة، لأن علم الاقتصاد يخبرنا أن الاحتكار يمكن تحقيقه بأساليب مختلفة أهمها فرض ضريبة

(١) Oec. II. (33 1352. b. 14 ff,)

عالية جداً، أو بطريق التفرد بحق إنتاج المواد الخاضعة للإحتكار، أو بطريق ثالث وهو أن يصبح الفرد منتجاً أو بائعاً فى ظل ظروف تمنع فى الواقع المنافسة الحرة. ومثل هذه الشروط تتفق تماماً مع أعمال كليومينيس كما أننا إذا أردنا أن نحكم على كليومينيس بالمقاييس الإقتصادية المعاصرة الواردة فى كتاب الاقتصاد بإعتبار أنها تمثل خلاصة علم الاقتصاد السياسى كما فهم فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م. فما من شك أن كليومينيس كان على علم تام وتجربة كافية بالإقتصاد السياسى ودراسته[١] .

وما ينبغى أن تقتصر معرفة المحتكر على العلم بالنظرية وأساليب تطبيقها، بل يلزم عند ممارسته سياسة إحتكارية أن يكون على علم تام بأحوال الأسواق التى يشملها نشاطه التجارى. ودراستنا لكليومينيس تبين أنه كان مدركاً لأهمية هذا الجانب التطبيقى فى عمله وأنه الركيزة التى يتحقق بها نجاحه. فهو لم يقصر أبداً عن متابعة السوق العالمية التى كان يتعامل معها، فإذا ماحدثت مجاعة فى العالم اليونانى[٢] وندر القمح، قام هو بتوريده بأسعار تصل إلى ثلاثة أضعاف قيمته الحقيقية فى الظروف العادية. وذلك أن الحروب المتتالية التى أعقبت موت الاسكندر الأكبر أدت إلى حدوث مجاعة بين عامى ٣٣١ - ٣٢٨ق.م. ونحن نستطيع أن نعين تاريخ إجراءاته الخاصة بتصدير القمح السالفة الذكر فى تلك الحقبة. فقد استبان كليومينيس ماكان حادثاً فى الخارج واستطاع بدقته وسرعته ونظامه أن يواجه الموقف وأن يستفيد منه. وقد استطاع

(١) انظر بنوع خاص Oec. II. 2-3 حيث يتحدث المؤلف عن مسئوليات الحاكم الإقتصادية التى يلخصها فى اربع نقط: العملة والتصدير والاستيراد والنفقات العامة.

(٢) M. Rostovtzeff: Social and Economic History of the Hellenistic World pp. 94 - 105 and 108.

أن يحدد سعر بيع القمح باثنتين وثلاثين دراخمة لأنه كان واثقاً أن انتشار المجاعة هناك ستمكنه من البيع بذلك السعر المرتفع[1] .

ومن حسن الحظ أن لدينا وثيقة هامة جداً وهى الخطبة ضد ديونيسودوروس، (Dionysodoros) التى تبين لنا كيف استطاع هذا المحتكر الفذ أن يدبر شبكة هائلة من الوكلاء والسماسرة فى الخارج، وأن هؤلاء كانوا يزودونه بأحوال السوق فى الخارج وأنهم كانوا يتعاقدون باسمه لتوريد القمح وغيره. والصورة التى ترسمها الخطبة – رغم حرارة اللغة المستعملة – هامة جداً إذ أنها توضح بالمثال كيف كانت تدار شئون هذه التجارة.

كتبت هذه الخطبة لمهاجمة أحد سماسرة كليومينيس فى قضية أقيمت ضده فى أثينا. فقد تعاقد هذا السمسار بالتضامن مع زميل آخر على قبول قرض بمبلغ ٣٠٠٠ دراخمة مقابل توريد قمح من مصر إلى أثينا. ولكنهما نقضا شروط العقد وبدلاً من توريد القمح المتعاقد عليه فى أثينا، أفرغت السفينة حمولتها فى رودس. السمساران اللذان يعملان لحساب كليومينيس هما ديونيسودوروس – المتهم الأول فى القضية – وبارمنسكوس. وكان الأخير قد أبحر بالسفينة عائداً

---

(١) اقترح ريزلر (Riezler, Monopole, p. 33) أن ٣٢ دراخمة كان سعر القمح فى أثينا، مفترضاً أن هذا هو المقصود بعبارة الواردة فى Pollux. IV. 165، ولكن ليس هناك دليل أن هذا هو ما يقصده بولوكس Pollux، فهو يذكر أمثلة لكلمات مركبة من الأرقام واستعمالاتها مثل أو فى قراءة أخرى ولكن بولوكس لا يذكر ولا يقترح أن هذا هو سعر القمح فى تاريخ محدد وهو مانحن فى حاجة لمعرفته بالنسبة لكليومينيس، ونحن نعتمد فقط فى تقدير السعر على ما ورد فى كتاب الاقتصاد (Oec. II. 33 (1352. b. 14 ff. الذى يؤيده ماورد فى الخطبة المنسوبة إلى ديموسثينيس Dem. LVI. 7ff من أن وسائل كليومينيس أدت إلى ارتفاع أسعار القمح.

إلى مصر بينما بقى ديونيسودوروس فى أثينا. ولعل من الأنسب هنا أن نستمع إلى ما تورده الخطبة بشأن هؤلاء السماسرة.

«هؤلاء الرجال هم عملاء وأعوان كليومينيس الحاكم السابق لمصر، والذى منذ أن تولى الحكم هناك كان سبباً فى أذى كبير لحق أثينا وسائر العالم اليونانى عن طريق شراء القمح كله وبيعه ثانية، وتحديد سعره كما يشاء. ولإحكام تنفيذ خطته كان يتخير أعواناً له من هؤلاء الرجال يعملون على هذا النحو، بعضهم يبعث بالسلع من مصر، وآخرون يبحرون بها فى سفنهم، بينما يقيم آخرون فى أثينا لتوزيع الشحنة. ثم يحدث أن يرسل هؤلاء الذين يقيمون فى أثينا برسائل إلى الوكلاء الآخرين يحيطونهم علماً بحالة الأسعار، بحيث إذا كان السعر مرتفعاً فى أثينا أحضروا القمح إليها، أما إذا انخفض السعر فيها ذهبوا بالقمح إلى ميناء آخر. وهذا هو السبب الرئيسى لإرتفاع أسعار القمح، أقصد هذه المراسلات وتلك المؤامرات»[1] .

هكذا تصف الخطبة شبكة الوكلاء الذين كانوا يعملون لحساب كليومينيس، وتورد بعد ذلك تفصيل ماحدث من الوكيلين موضع الاتهام. فعندما عقدا الاتفاق فى أثينا كان السعر مرتفعاً لندرة القمح هناك، ولم يتوقعا تغير أحوال السوق بسرعة، إعتقاداً منهما أن أى قمح سيرد من مصر أى من صاحبهم كليومينيس الذى سيخبرهم، فهم وكلاؤه فى أثينا. ولكن حدث، بعد أن رحل بارمنسكوس إلى مصر لإحضار شحنة القمح، أن وصلت إلى أثينا نتيجة لذلك فأرسل ديونيسودوروس فى الحال رجلاً إلى رودوس ينبئ زميله بارمنسكوس بما طرأ على السوق الأثينى، علماً منه بأن صاحبه سوف يمر بسفينته على رودس

(١) Dem. LVI. 7 ff.

التى كانت محطة أساسية فى الرحلة بين مصر وبلاد اليونان فى ذلك الوقت. وقد أدت هذه المناورات إلى النتيجة المرتقبة وهى أن بار منسكوس أفرغ حمولته من القمح فى رودوس وباعها هناك، حيث كان السعر أكثر إرتفاعاً منه فى أثينا، مخترقاً بذلك شروط الاتفاق. ولكن الغريب فى الأمر أنه بعد بيع القمح فى رودس أبحرت السفينة بما تبقى من بضائع أخرى لبيعها فى أثينا.

يمكننا أن نتخيل من هذا الوصف مقدار النشاط التجارى الكبير الذى استلزم ذلك التنظيم العالى المحكم. وما من شك أن مثل هذا النشاط الهائل كان يستلزم إشرافاً دقيقاً من كليومينيس، الذى لم يفشل أبداً فى القيام بهذا الإشراف على خير وجه. وهناك حادثة طريفة يرويها لنا كتاب الاقتصاد تبين يقظة كليومينيس فى الإشراف على شبكته التجارية، ففى إحدى المناسبات علم كليومينيس عن طريق أعوانه ومخبريه من غير شك أن أحد وكلائه قد عقد صفقة بثمن زهيد وأنه ينوى أن يتقاضى عليها ثمناً غالياً. فأخفى كليومينيس علمه بكل هذا، وقبل أن يعود الوكيل صاحب الصفقة أشاع الوزير أنه سيلغى الصفقة بسبب إرتفاع الثمن. فبلغت الإشاعة الوكيل الذى خشى وأعوانه الخسارة التى ستلحق بهم إذا أصر كليومينيس على رفضه، وما إن عاد إلى الاسكندرية حتى أسرع إلى الوزير وأعلن الثمن الحقيقى للصفقة، فقبله كليومنيس راضياً[1].

هذا هو النظام الذى أنشأه كليومينيس وأدار عن طريق تجارته العالمية. ولكن يجب أن نذكر دائماً أن المصادر التى بين أيدينا لا تعطينا وصفاً كاملاً لسياسته المالية والإقتصادية، وأن كل ما لدينا ليس سوى أمثلة متفرقة من أعماله. هذه الحقيقة قد دفعت بعض العلماء إلى الاعتقاد أن سياسة الاحتكار لم

(١) Oec. II. 33 (1352 b, 4 ff.)

تستمر سوى فترة سنوات المجاعة ٣٣١ – ٣٢٨ق.م[١] ولكن نظرة فاحصة إلى الأخبار التى توردها المصادر تبين أنها تصور أعمالاً مدروسة تهدف إلى إنشاء احتكار مستمر لتصدير القمح الذى تنتجه مصر. وإن الرأى القائل بأن سياسة الاحتكار دامت فقط أثناء الأزمة يغفل أن شبكة الوكلاء قد استمرت حتى آخر عام لكليومينيس فى منصبه فى سنة ٣٢٢ق.م. وهو تاريخ الخطبة ضد ديونيسودوروس السالف ذكرها فصاحب الخطبة يتحدث عن نظام قائم وعن حاكم كان إلى أشهر قليلة سابقة يتحكم فى قمح مصر بأسره. وفى الواقع إن أهمية كليومينيس من وجهة النظر الإقتصادية هو استمرار سياسته الاحتكارية فى تجارة القمح على مصر، فقد اعتاد الفراعنة احتكار الإنتاج من أجل السوق الداخلى وأحياناً للتصدير، ولكن محاولة كليومينيس لإحتكار تجارة القمح العالمية هى الأولى من نوعها فى التاريخ. والجدة فى محاولته تقع فى أنه زاولها على أسس تجارية بحتة، بعكس أثينا التى اعتمدت على قوتها البحرية لإحتكار تجارة البحر الاسود فى القرن الخامس ق.م.

لقد ظلت شخصية كليومينيس وسياسته موضع خلاف بين الكتاب قديماً وحديثاً، فالقدماء جميعاً يناصبونه العداء ويصدرون عليه أقسى الأحكام، أما المحدثون فيختلفون إختلافاً بيناً فى أحكامهم[٢]. ولعل خير موقف نتخذه فى

(١) A. Andréades, Antimene de Rhodes et Cleomenes de Naucratis, B. c. H. 53 (1929) p. 14.

(٢) يهاجم كليومينيس من المحدثين Bouché - Leclergue. Hist. des Lagides I. P. 14, Mahaffy. Ptolemaic Dynasty pp. 20-22, Tarn. C. A. H. VII. PP. 269 وممن يبررون مسلكه Andieades. Loc. cit. p. 17 انظر أيضاً Van Gron-ingen. Mnemos. 53 (1925) p. III وجماعة أخرى من المؤرخين تتخذ موقفاً وسطاً مثل Riezler Monopole p. 33. Bevan Ptolem Dynasty P.

هذه الدراسة هو أن نقدر أعمال كليومينيس على أساس الأوضاع السائدة فى عصره. فنلحظ مثلاً أن أعماله قد لاتتسم وسائلها بمبادئ الأخلاق ولا تتفق ومبادئ العدل والانصاف الدقيقة، ومع ذلك فهى ليست استثناء عند مقارنتها بأمثلة أخرى كثيرة واردة فى كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو. وعلى أى حال فلسنا نقصد هنا أن نصدر أحكاماً أخلاقية على كليومينيس، ولكن هدفنا هو تقييم أعماله إقتصادياً. لقد رأى بعض الدارسين أن سياسته من الناحية الإقتصادية كانت مربحة ولم تكن ضارة على أساس أنه دفع لمنتجى القمح سعر السوق[1] . ولكن عند إعادة النظر فى هذه الإجراءات بالذات نجد أنه نتج أمران: أولاً يظهر من شكوى مديرى المديريات أن التصدير كان حراً فى مصر فى ذلك الوقت، وأن منتجى القمح كانوا يجنون أرباحاً طيبة من التصدير تعينهم على دفع الضرائب المرتفعة فى الداخل. حينما اشترى كليومينيس مجموع محصول القمح[2]، سدد ضربة لهم كمصدرين، وبإستمرار سياسته الاحتكارية فقدوا القدرة تماماً على التعرف والتعامل مع الاسواق الخارجية مباشرة. ثانياً: كانت نتيجة سياسة كليومينيس على السوق الداخلى أشد خطراً، لأن رغبة كليومينيس فى الربح من التصدير جعله يدفع للمنتجين فى الداخل سعر التصدير، كما حاول الاستيلاء على معظم المحصول، فنتج عن ذلك أن شح القمح فى مصر وارتفع ثمنه ارتفاعاً كبيراً مما أدى إلى الإضرار بمجموع الشعب المصرى فى نفس الوقت الذى أضر فيه أيضاً بالتجارة الدولية[3] .

---

(١) Van Groningen, De Cleomene, Mnemos, 53 (1945) 127

(٢) إننى اقصد ما ذكر فى (Oec. II. 33 a & d (1352. a. 16f b. 4

(٣) من البحث المشهور عن القمح فى التاريخ اليونانى Jardé, Les Céreales dans L'Antiquité grecque, p. 179 نعلم أن متوسط سعر القمح فى أثينا فى سنة ٣٣٠ - ٣٢٩ ق.م كان خمس دراخمات، وفى العام التالى أصبح ست دراخمات ثم عشرة دراخمات. ونستطيع أن ندرك مقدار الضرر الذى ألحقه كليومينيس بأسعار القمح حين نذكر أنه اشترى من المنتجين فى مصر بعشرة دراخمات، وباع القمح باثنتين وثلاثين دراخمة. (Oec II. 33 p. (1352. d. 4ff

ويمكننا هنا أن نتساءل عن طبيعة هذه التجارة العالمية، هل كانت لحساب كليومينيس الشخصى، أو باسم الدولة ولصالحها؟ ليس هناك جواب صريح أكيد على هذا السؤال، ولكن الأسلوب الذى تتحدث به مصادرنا يعطينا الانطباع أن كليومينيس قام بالتجارة بصفته الرسمية كرجل من رجال الحكم فى مصر، وقد رأينا من قبل أن كلاً من الخطبة ضد ديونيسودوروس وكتاب الاقتصاد يتحدث عن سياسته التجارية وكأنها صادرة عن حاكم مصر. ومما يؤكد هذه الفكرة هو ما ترويه الأخبار أن بطليموس الأول سوتر الذى تولى حكم مصر بعد وفاة الإسكندر تسلم خزائن الدولة من كليومينيس وبها ٨٠٠٠ تالتوم[١] وهو مبلغ ضخم يثبت أن أرباح كليومينيس كانت تذهب إلى خزانة الدولة.

ومع ذلك فما إن استقر الأمر لبطليموس الأول فى مصر حتى عمل على التخلص من كليومينيس والقضاء عليه، بأن لفق له التهم وحاكمه وقتله، ثم أخذ يعمل بعد ذلك على النيل من سمعته، ولكن مامن شك بعد هذه الدراسة أن ماقام به كليومينيس يعتبر أكبر خدمة قدمت للبطالمة بالذات، فبالإضافة إلى خزانة غنية، أورثهم تجارة خارجية على أسس منظمة، مكنتهم من إنتهاج سياسة مماثلة زمن البطالمة الأول حين كانت تجارة القمح الخارجية هى من أهم عمد سياستهم الاقتصادية. ولكنهم يدركون خطورة المنافسة الأجنبية، وبدلاً من معاداة منافسيهم اتخذو منهم أصدقاء كما فعل بطليموس الثانى مع صقلية[٢].

(١) Diodorus Sic. 18. 14. 1.

(٢) اجتهد بطليموس الثانى على أن يجعل من صقلية حليفة له. انظر البحث القيم N. Hohl-wein, Le Blé d'Egypte, Et. Pap. IV. (1938) 93. n. 2.

حمامات الإسكندريـة الرومانيـة(*)

دكتــــور

فوزى عبد الرحمن الفخرانى

* صدرت هذه المقالة في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية في المجلد السادس عشر، ١٩٦٢ ص ص ٢١٣ - ٢٣١



حمامات الإسكندرية الرومانية

لم تنل حمامات الإسكندرية الرومانية من الباحثين أى قدر يذكر من دراساتهم حتى تكاد تخلو الكتب العديدة التى نشرت عن الإسكندرية باللغات المختلفة - رغم استرسالها فى وصف المدينة، وآثارها ماقام منها وما اندثر - من الإشارة إلى أى من حمامات المدينة وأضحى ما اكتشف بالمدينة من حمامات فى طى النسيان. هذا كله على الرغم من الميزات العديدة التى انفردت بها حمامات الإسكندرية فى اختلاف أشكالها وتباين أغراضها مما لم يعرفه العلم عن حمامات الرومان فى أى مكان آخر، سواء فى إيطاليا أو فى أى من الولايات الرومانية العديدة بما فيها مصر نفسها.

ففى روما عاصمة الإمبراطورية الشاسعة، اتسمت حمامات الأباطرة[١] نيرون وتراجان وكارا كلا (شكل ١) ودقلديانوس بالضخامة، فلم تكن الحمامات مجرد أماكن للاستحمام والاغتسال فحسب بل كانت بها أيضاً الحدائق والملاعب الرياضية والمكتبات إلى جانب صهاريج المياه وما إلى ذلك. أما الحمامات الرومانية التى بنيت فى الأقاليم مثل حمامات بومبيى[٢]

(١) D.S. Robertson, "A Handbook of greek and Roman Architecture", 2nd edition, Cambridg, 1943, pp. 254-262, fig. 110; Sir Banister Fletcher, A History of Architecture on the comparative method," 13th. edition, London, 1946, pp. 164-171.

(٢) Maria J. Sergjenko, Pompcji", 2 Auflage, Leipzig, 1954, pp. 205-222, flg. 84 for the Stabian Baths' fig. 85 for the Forum Baths, Amadeo Maiuri, "Pompeii" translated by V. Priestely, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy), 4th edition, Rome, 1949, pp. 29-32, fig. 5 for the Forum Baths.

وهركولانو[١] بإيطاليا أو حمامات الولايات الرومانية مثل حمامات ليبتس ماجنا (ليبدا) بليبيا[٢] المعروفة باسم حمامات الصيد نسبة لمناظر الصيد المرسومة بها، فلقد كان الاستحمام فى هذه الحمامات على مراحل يمر فيها المستحم بحجرة لخلع الملابس وكانت تحفظ فى فتحات صغيرة مستطيلة محفورة بالحيطان. وتعرف هذه الحجرة باسم Apodyterium. ثم حجرة بها حوض للماء البارد تعرف باسم Frigidarium فحجرة الهواء الساخن وتعرف باسم Tepidarium وحجرة أخيرة بها حوض الماء الساخن اسمها Caldarium. ولقد اتسعت بعض هذه الحمامات مثل حمام ستابيا ببومبى[٣] (شكل ٢) لتضم بين جنباتها ملعباً Palaestra وحوضاً للسباحة Natatio. وكانت هناك حمامات للرجال وأخرى للنساء منفصلة كما فى هركولانو أو متصلة ببعضها كما فى حمامات بومبى[٤]. كما كانت هناك حمامات بسيطة مثل حمامات تمجاد بشمال أفريقيا وهى مشتركة فى استعمالها بين الرجال والنساء ولكن فى أوقات مختلفة[٥].

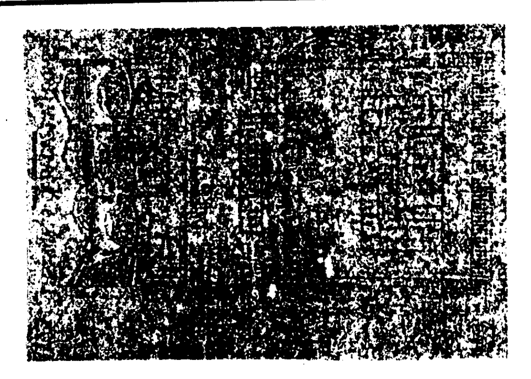
(١) Amadeo Maiuri, "Herculaneum," traslated by V. Priestley, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy) 3rd edition, Rome, 1945, pp. 37-41, fig,. 4.

(٢) J.M.C. Toynbee and J.B. Waed-Perkins, "The Hunting Baths at Lepris Magna", With a survey by R. Fraser, Oxford, 1949.

(٣) August Mau, "Pompeii, its Life and Art," translated into English by F. W. Kelsey, new edition, New York & London, 1902, pp. 186-201.

(٤) Mau / Keley, op. cit., pp. 202-207.

(٥) R. Cagnat et V, Chapot, "Manuel d'Archeologie romaine" I, Paris, 1917, p. 214, fig. 111.



من كتاب Sir. B. Fletcher - History of Architecture
(شكل ١) حمامات كاراكلا بروما
قطاع أفقى يبين توزيع الحجرات المختلفة بالحمامات

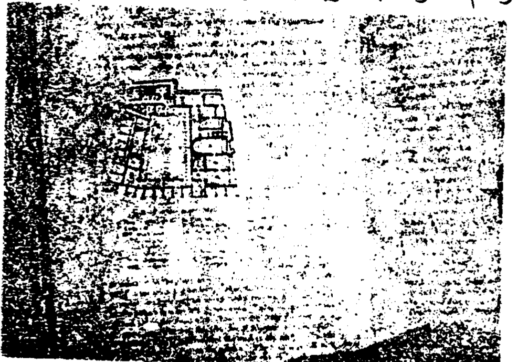
ولقد أسعدنا الحظ حديثاً باكتشاف حمام بالاسكندرية من هذا النوع المعروف فى الأقاليم الرومانية وذلك فى الحفائر التى تجريها حالياً البعثة البولندية للآثار بمنطقة كوم الدكة، رأيت أن أطلق عليه اسم المنطقة وأنشره هنا لأول مرة.

حمام كوم الدكة[١] .

يتفق هذا الحمام والنوع الشائع استعماله من الحمامات الرومانية فى الأقاليم بإيطاليا كما تبدو فى حمامات بومبيى وهركولانو إلا أن حمام كوم الدكة أصغر منها حجماً وأقل زخرفة. كما أنه قد تهدم ولم يبق إلا تخطيط له مع الجدران بارتفاع يقرب من متر ونصف. ولقد تهدمت الأرضية فى بعض الحجرات ولم يبق من زخرفتها إلا أجزاء صغيرة من الموزايكو وجدت فى الأنقاض المجاورة للحمام ومحفوظة الآن بمتحف الإسكندرية اليونانى الرومانى

(١) لم استطع ضم صورة للحمام ولا إعطاء المقاييس بدقة إذ أننى فى إنتظار تصريح إدارة البعثة الأثرية البولندية من وارسو.

كما أن محتويات الحمام الأخرى قد اندثرت. والحمام من الحجم الصغير ينقصه الملعب Palaestra وكذلك حوض السباحة Natatio وحجرة خلع الملابس Apod-yterium وحجرات الإداريين وما إلى ذلك من الحجرات التى كانت تفتح فى حمامات ستابيا ببومبيى مثلاً على الملعب. وحمام كوم الدكة ليس مزدوجاً بمعنى أنه ليس به جناح خاص باستحمام الرجال وآخر خاص بالنساء بل ربما كان الحمام مقصوراً على الرجال دون النساء أو العكس أو ربما استخدمه الرجال مثل حمام تمجاد فى أيام وساعات تختلف عن تلك التى تستخدمه النساء فيها. ويظهر من حجم الحمام وصغره وموقعه المتوسط بمدينة الاسكندرية بعيداً كما يبدو عن ثكنات الجنود الرومانية أن الحمام لم يكن مخصصاً للجنود كتلك الحمامات الرومانية التى نراها بإنجلترا على طول الحائط الرومانى الذى بناه الإمبراطور هادريان بين مدينتى نيوكاسل على بحر الشمال ومارى بورت على البحر الأيرلندى ليصد عن بريطانيا الرومانية هجمات الاسكتلنديين. وربما كان الحمام عاماً رغم صغر حجمه ويستبعد أن يكون خاصاً لعدم وجود بقايا منازل بجواره.



(شكل ٢) حمامات ستابيا ببومبى (فى نابولى)
قطاع أفقى يبين توزيع الحجرات المختلفة كما يوضح حمامات الرجال وحمامات النساء
Mau "Pompeii"

وحمام كوم الدكة لا يتعدى الخمسة عشر متراً فى طوله والستة أمتار فى عرضه ويفتح بابه العام نحو الشمال كما تقع حجراته الثلاثة فى صف واحد والحجرات تكاد تكون متساوية فى أحجامها أما الحيطان فمبنية عند أساساتها من كتل مربعة الشكل من الحجر الجيرى حجم كل منها ربع متر مكعب تقريباً وعلو هذه الكتل صفوف من قوالب الآجر الأحمر المحروق الذى لم يكن معروفاً قبل عصر الرومان فى مصر[١] . واستخدمت المونة للصق الأحجار ببعضها فى إقامة الحيطان وكذلك فى تثبيت زخارف الفسيفساء (المزايكو) التى توجد بقاياها فى حجرة الفريجيداريوم. وسقف الحمام متهدم كما أنه لم يبق من حيطانه ما يزيد عن المتر ونصف تقريباً ارتفاعاً.

يفتح الباب الخارجى للحمام على حجرة الماء البارد Frigidarium مباشرة وهو يقع فى الجانب الشرقى من الحائط الشمالى لهذه الحجرة. أما الحجرة نفسها فمربعة الشكل وتبلغ الأربعة أمتار ونصف تقريباً فى أبعادها ولقد حفر فى الجزء الغربى من أرضيتها (وهو الجانب البعيد عن الباب) حوض للماء البارد تاركاً جزءاً من أرضية الحجرة يبلغ العشرة سنتيمترات تقريباً بينه وبين الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية للحجرة. والحوض فى جانبه الغربى يمتد بطول حائط الحجرة، ويبلغ ٤ أمتار تقريباً بينما يمتد فى عرضه إلى مسافة مترين، وعمقه متر تقريباً وهو مغطى بطبقة سميكة من المصيص المزدوج بمسحوق الرخام حتى يمكن صقل السطح فلا يصاب المستحم بأذى، كما يكسب الحوض متانة، ويحفظ المياه من التسرب. ويستخدم المستحم ثلاثة درجات مبنية فى الركن الجنوبى الشرقى للحوض للنزول فيه. وفى هذا السلم دليل آخر يشير إلى

---

(١) Robertson, op. cit, pp. 232,233 ff.

أن بناء الحمام قد تم تحت حكم الرومان، إذ تميز بالخصائص المعروفة عن السلالم الرومانية كما عرفناها فى فيلا مينوى Villa Minori الواقعة على الطريق بين سالرنو وسورنتو بإيطاليا، وكما نراها ممثلة فى الاسكندرية فى جبانة كوم الشقافة الرومانية. ففى كل هذه السلالم نجد أن الدرجة السفلى أكثر ارتفاعاً، ويقل ارتفاع الدرجات كلما صعدنا حتى يكاد ينعدم هذا الارتفاع فى الجزء العلوى من السلم. والغرض من ذلك أن المرء يكون أكثر نشاطاً وقدرة عند البدء فى الصعود بينما يأخذ منه الجهد كلما صعد ولهذا قل ارتفاع الدرجات حتى يكاد لا يشعر الصاعد بإرتفاع الدرجات أثناء صعوده، بل يحس وكأنه يسير فى منحدر. ويشير استخدام المصيص الأبيض بما فيه مسحوق الرخام إلى عصر مبكر من حكم الرومان لمصر، وربما كان ذلك فى القرن الأول الميلادى، إذ ندر استخدام الرخام فى مزيج المصيص بعد ذلك التاريخ، بل يكاد يخلو الستكو (المصيص) الرومانى كلية من الرخام فى القرن الثانى الميلادى فى مصر، كما نرى فى قطع الزخارف البارزة من هذه المادة المحفوظة بالمتحف.

ولقد غطى جزء من أرضية الحجرة تجاه الباب ببعض قطع المزايكو (البلاط) وربما كان ذلك فى عصر لاحق، إذ أنه ليس كالمزايكو المعروف فى العصر الرومانى بل عبارة عن قطع كبيرة الحجم كما أنها ليست ملونة أو من جزئيات صغيرة كما نرى مثلاً فى القطعة الصغيرة ذات رسوم الأفراد المكتشفة قرب الحمام تجاه حجرة التبداريوم Tepidaruim.

وفى مواجهة باب الفريجيداريوم فى الحائط الجنوبى لهذه الحجرة يقع الباب الذى يفصل بين الفريجيداريوم والتبدرايوم، وهى حجرة الهواء الساخن. ولهذه الحجرة نتوء على شكل محراب niche فى حائطها الغربى إتساعه متر

تقريباً. والحجرة أصغر قليلاً من حجرة الفريجيداريوم (إذ لا يزيد حائطها الغربى عن الثلاثة أمتار ونصف تقريباً) وربما كان ذلك لكى تحتفظ الحجرة بحرارتها ولا تفقدها بسهولة. ووجود الـ niche فى هذه الحجرة شئ معروف فى الـ Tepidaria كما نراها فى حمامات بومبى. وفى الغالب يكون للـ niche سقف مقبب Semi-dome بأعلاه نافذة لتسمح لهواء الحجرة بالتجدد، كما تعمل على مرور الضوء إلى داخل الحجرة أسوة بما نراه فى حمام الفورم ببومبيى وحمام ستابيا. ولقد غطيت جدران هذه الحجرة برسومات من الفرسكو. وتبدو آثار الألوان الحمراء والصفراء والسوداء والزرقاء على طبقة المصيص المزدوج بمسحوق الرخام الذى يغطى حيطان الحجرة كما أننا لازلنا نرى بالقرب من الـniche على الحائط الغربى فى الجزء القريب من حجرة الماء الساخن (caldarium) رسماً تخطيطياً لعمود على الطراز الكورنثى.

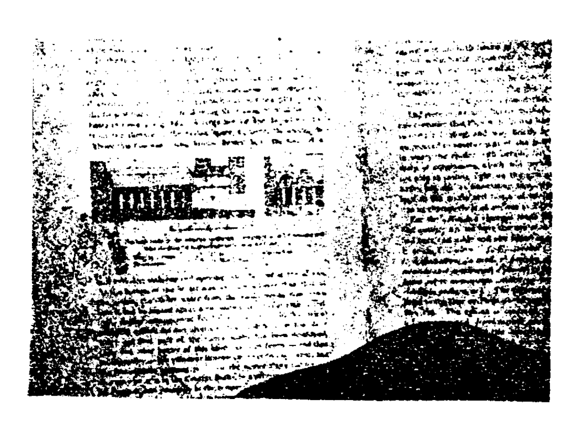
ومما يستوعب الإهتمام فى هذه الحجرة أرضيتها والحائط الغربية لها (المبنية بقوالب الأجر المحروق) وهى الحائط الخارجية للحمام كما يبدو. فلقد بنيت الأرضية على طريقة «الحمامات المعلقة» Balneae pensiles وهى الطريقة التى ابتكرها معاصر شيشرون المسمى sergius Orata واستخدمت منذ القرن الأول ق.م[١] . والفكرة فى هذه الطريقة هو السماح للأرضية بأن تشع الحرارة بالتساوى فى حجرة التبدرايوم وذلك عن طريق تمرير هواء ساخن فى فراغ يترك تحت الأرضية. لهذا كانت تصنع الأرضية من طبقة سمكها ستة سنتيمترات تقريباً من الطين المحروق المعروف باسم التراكوتا. وكانت ألواح

(١) Mau/Kelsey, op. cit, pp. 187, 188; Cagnat/chapot, op. cit., p. 219, fig. 113.

التراكوتا المكونة لهذه الطبقة تعرف باسم Tiles . وكان كل لوح من هذه الـ tiles حوالى نصف متر مربع فى مساحته، ويرتكز على قوائم pilasters مربعة فى مقطعها (شكل ٣) . وتبلغ فى حمام كوم الدكة حوالى النصف متر فى ارتفاعها والربع متر مربع فى مقطعها. ولقد زالت الأرضية فى حمام كوم الدكة ولكن لازال بعض هذه القوائم فى مكانه وكان الهواء الساخن يمر من فتحة مستديرة قطرها نصف متر تقريباً حفرت تحت الباب المتسع الذى يقع فى منتصف الحائط الجنوبى لهذ الحجرة والذى يفصل بينها وبين حجرة الماء الساخن (الكالدرايوم) . والملاحظ أنه بينما نجد الباب الفاصل بين التبدرايوم والكالدرايوم متسعاً ويقع فى منتصف حائط حجرة التبدرايوم الجنوبى، نجد الباب الفاصل بين التبدرايون والفريجيدرايوم ضيقاً ويقع فى الركن الشرقى من الحائط الشمالى لحجرة التبدرايوم. والغرض من ذلك هو العمل على مرور أكبر كمية من الهواء الساخن من حجرة الكالدرايوم إلى حجرة التبدرايوم ثم الاحتفاظ بهذا الهواء دون التسرب بسهولة إلى حجرة الفريجيدرايوم. وزيادة فى الحيطة حتى لا يتسرب الهواء الساخن ويبقى أطول مدة ممكنة فى حجرة التبدرايوم وكذلك فى حجرة الكالدرايوم بنيت الحيطان الخارجية للحجرتين أى الحائط الغربى لكل منهما من قوالب الآجر المحروق مع ترك فجوات فارغة من البناء بين قوالب الأجر المصنوعة منها هذه الحيطان ليتخللها الهواء أى بطريقة أشبه بزجاجة «الترموس» الآن. وهذه الفجوات مستطيلة الشكل وتمتد عميقاً فى الحائط وبارتفاعها ولقد استعملت هذه الطريقة فى الحمامات الرومانية منذ عصر الجمهورية. وربما[1] كانت أرضية الحجرة مزخرفة بالمزايكو إذ أن القطعة

(١) Mau/ / Kelsey, op. cit., p. 187.

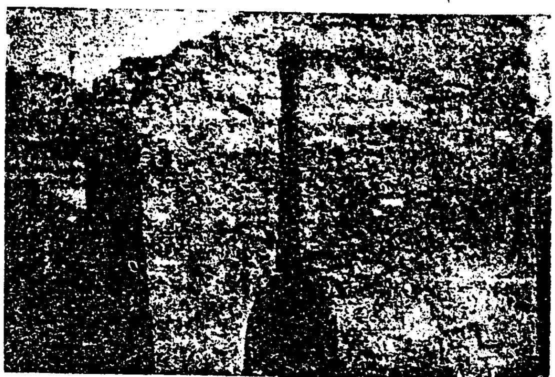
المكتشفة تجاه هذه الحجرة خارج الحمام والمحفوظة بالمتحف وهى من نوع الـtiles ولقد صور عليها شخص رافع يده وظهر وجه شخص آخر بجواره.



(شكل٣)
قطاع رأسى فى حمامات ستابيا بين الدعامات التى تحمل أرضية الكالدرايوم أو التبداريوم وتوضح بينها المسافات التى يتخللها البخار تحت الأرضية.
عن كتاب : Mau "Pompeii"

أما الحجرة الأخيرة فتقع فى جنوب الحمام وهى حجرة الماء الساخن (Caldarium) تلك الحجرة التى بها الفرن hypocausis وكان يقع هذا كما يبدو فى الركن الجنوبى الشرقى من الحجرة. والكالداريوم أصغر الحجرات ولا يزيد عرضها عن ثلاثة أمتار تقريباً. ويلاحظ فى الحائط الشمالى للحجرة على يمين الباب عند الدخول وجود حفرة منتظمة بإرتفاع الجزء المتبقى من الحائط وتكاد تكون بإتساع المسافة التى بين الباب والحائط الغربى مع ترك ١/٤ متر من الجانبين. وربما كان يثبت فى هذه الفتحة حوض للماء الساخن (مغطس) للمستحمين أو ربما كان المستحم يقف فى هذه الفتحة وتصب المياه عليه من

أعلى كما هو الشأن فى حمام تل أتريب الذى لم ينشر بعد (شكل ٤) . ولكنى أرجح الاحتمال الأول ،أى تثبيت حوض للماء الساخن، كما هو متبع فى حمامات ستابيا والفورم ببومبيى.



(شكل ٤) دش فى حمام تل أتريب

أما مياه الحمام فلقد أتت من بئر أو صهريج مبنى أيضاً بالآجر الأحمر ويقع بجوار الحمام قناة فى اتجاه الحمام وتخرج منه ربما كانت متصلة بالقناة التى تخرج من الحائط الغربى للكالداريوم.

ويقارب هذا الحمام الذى اكتشف فى كوم الدكة حماماً آخراً اكتشف منذ زمن بعيد بالقرب من القنصلية الإنجليزية وفى غربها[1] (ولكنه اندثر الآن) . ولقد عرف هذا الحمام باسم «حمامات كليوباترة» أو «قصر كليوباترا» ومبنى بكتل من الحجر الجيرى تعلوها حيطان من الآجر المحروق. والحمام مستطيل الشكل ويشغل مساحة قدرها ١٥٠ متراً مربعاً. كما أنه يتكون من طابقين نحت

(١) Ev. Breccia, "Alexandria at Aegyptum", English edition, Bergamo, 1922, p. 91.

السفلى منها فى الصخر. وتوجد بأسفل أرضيته الزفران. بينما بنيت أرضية الطابق العلوى من شرائح أو ألواح من التراكوتا (الطين المحروق) تعرف باسم Tiles حتى تسمح للحرارة بأن تنفذ من خلالها فترفع درجة الحرارة بالحجرات كما شاهدنا فى حجرة التبداريوم فى حمام كوم الدكة. وكانت هناك انابيب تحمل المياه إلى الحمام من الخزانات.

ولقد انتشر بالإسكندرية حمامات ساخنة كثيراً ما كانت تزخر بزخرفتها وبما تضمه بين جدرانها من تماثيل وأعمال فنية كما كان فى حمامات إيطاليا. ولقد عرفت بعض الحمامات بأسماء التمثايل المشهورة[١] التى بها، فمثلاً هناك حمام ايساوس (وهى ربة من ربات اليم) وحمام الحصان وحمام هيجيا (نسبة إلى آلهة الصحة) وحمام الجعران وما إلى ذلك...

وكما قامت فى إيطاليا الحمامات العامة كحمامات بومبيى وهركولانو على نظام المراحل فى الاستحمام بين الماء البارد والبخار والماء الساخن كذلك قامت الحمامات الخاصة على نفس الطراز كما نراها فى حمام فيلا بوسكوريالى قرب نابولى[٢] وحمام منزل الكريبتوبورتيكو Cryptoporticus فى شارع Via dell'Abbondanza فى بومبيى[٣] . ففى كل من هاذين المنزلين مثلاً نجد الحمام قد أخذ بنظام المراحل، فهناك حجرة للماء البارد وأخرى للبخار وثالثة للماء الساخن..

(١) Breccia , op., cit., p. 91.

(٢) Cagnat et Chapot, op. cit., pp. 210, 211, fig. 108.

(٣) V. Spinazzola, "Pompei alla Luce degli Scavi nuovi di Via dell' Abbondanza" (Anni 1910-1923), I. Roma, 1953, pp. 437 ff.



(شكل٥) حوض للاستحمام استعمل كتابوت من حفائر الورديان محفوظ بالمتحف الرومانى

ولكن فى ذلك اختلفت حمامات الإسكندرية الخاصة إذ اكتفى الأثرياء من سكان المدينة باستخدام الأحواض (بانيو) للاستحمام فى منازلهم. وهذه الأحواض تقارب فى شكلها أحواض الاستحمام المستعملة فى المنازل حديثاً. فكان بعضها مستطيل الشكل أو بيضاوى كتلك الأحواض الموجودة بالمتحف اليونانى الرومانى (شكل ٥) . ومما يلفت النظر أن الأحواض التى اكتشفت من هذا النوع مصنوعة من البازلت الأسود الذى طالما استخدمه الفراعنة منذ أقدم العصور على أوسع نطاق سواء فى مبانيهم العامة أو فى عمل تماثيلهم وما إلى ذلك من الأعمال الفنية. كما أن توفره فى البلاد يعطى هذه الأحواض المكتشفة بالإسكندرية طابعها المصرى. ومما يسترعى الاهتمام أن الحوضين الموجودين بالمتحف قد اكتشفا فى جبانة الورديان حيث استعملا كتوابيت. ولكن فى اعتقادى هناك أدلة تشير إلى أن هذه التوابيت كانت مستخدمة فى البدء كأحواض للاستحمام. وأبرز هذه الأدلة أن لكل حوض فى جانبه الطويل من

أسفل فتحة لتصريف المياه زخرفت بنحت بارز من نفس حجر البازلت الأسود على شكل رأس فهد. كما أن الغطاء الذى صنع لكل تابوت لم يصنع من نفس البازلت الأسود بل استخدم لذلك مثلاً الجرانيت أو خلافه وهذا طبعاً يشير إلى أن الغطاء صنع فى وقت آخر غير الوقت الذى صنع فيه الحوض. ولقد حليت الجوانب الطويلة لكل حوض بنحت بارز من نفس حجر البازلت الذى صنعت منه الأحواض ويمثل رأسان للسبوع وهى فاغرة الفم. ولقد امتازت هذه الأحواض بنسبها المحكمة وسطحها المصقول بما عرف عن الفن المصرى من اتقان فى الحفر، والدرجة العالية فى صقل السطح للأعمال الفنية المصنوعة من الاحجار الصلبة منذ عصور ماقبل التاريخ كما نرى فى أوانى ذلك الزمن.



(شكل٦) حوض على شكل مقعد من الإسكندرية محفوظ بالمتحف اليونانى الرومانى

وقد تكون هذه الأحواض من نوع أشبه بالمقعد بما له من مسند للظهر والذراعين كالحوض المنحوت من الحجر الجيرى والمكتشف بالاسكندرية (الآن بالمتحف السكندرى ويحمل رقم ١٧٨٥٦)[١] (شكل٦). ولهذا الحوض حافة حتى لا تنسكب المياه وقت عملية الاغتسال. كما أن به انخفاض حيث توضع الرجلان وذلك لغسلهما وهى تشبه فى ذلك أحواض الأقدام المحفوظة بمخازن المتحف (شكل ٧) والشبيهة بأحواض الأرجل فى حمامات إدفو والكوم الأحمر[٢] وغيرها من حمامات العصر الرومانى بمصر.

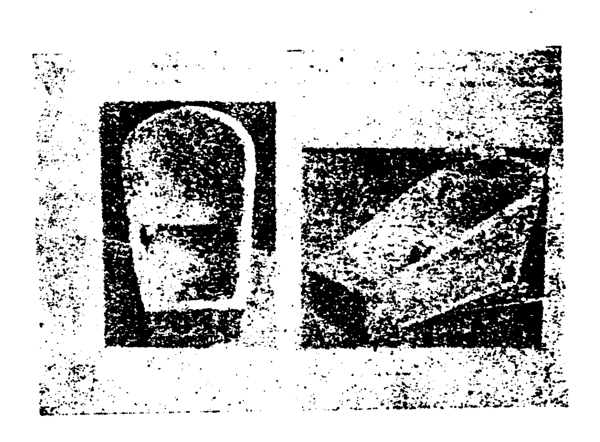


(شكل٧) حوض للاقدام محفوظ بالمتحف اليونانى الرومانى

(١) Breccia, op. cit., p. 210 nr. 31' Ev. Breccia, Le Musée greco-Roman" (1922-23), p. 17; A. Adriani, Repertorio d'Arte dell'Egitto greco-romano," serie A, I, Palermo, 1961, p. 31, nos. 35, 36.

(٢) Alexandria, the Graeco-Roman Museum, Invent. Nr. 17856, prov. Alexandrie, Mex, matiére: calcaire, mesure : 1.20 x 0.79, (Bain en forme de chaise.).

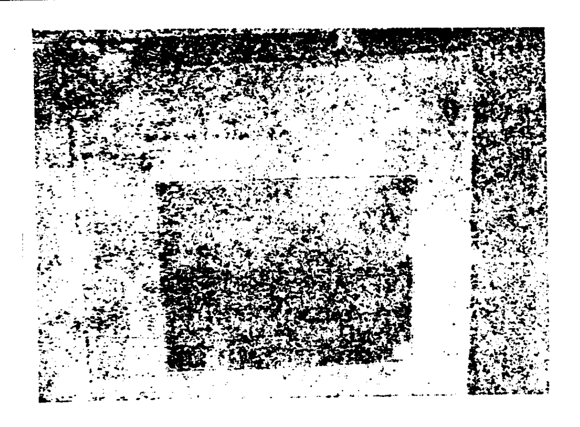
وإن كان الحوض ذو المسند هذا غير معروف فى الحمامات الرومانية سواء تلك التى اكتشفت بإيطاليا أو فى غيرها من الولايات الرومانية المختلفة إلا أن أقرب الأحواض المعروفة لنا فى شكلها لهذه الأحواض ذات المقعد هى التى اكتشفت فى ميسينى Mycenae باليونان والتى ترجع إلى عصر الحضارة الميسينية المرادف للدولة الحديثة بمصر (شكل٨) . ولكننا نتفقد فى أحواض ميسينى مساند الذراعين كالتى نراها فى حوض الاسكندرية .



(شكل٨) حوض للاستحمام من ميسينى باليونان نقلا عن كتاب
Wiegand/Schrader "Priene"

ويبدو كذلك أن أحواضاً قريبة فى شكلها لهذه قد استخدمت فى منازل بريينى Priene باسيا الصغرى والتى ترجع فى تاريخها إلى العصر الهلينيستى وكذلك بمنازل ديلوس التى ترجع إلى القرن الثانى ق.م.، من ذلك اعتقد أن حوض الاسكندرية ربما ساد استعماله منذ العصر الهلينيستى واستمر استخدامه فى العصرو الرومانى وإن كان فى شكله الراهن لانعرف له مثيل بالضبط فى أى من البدان اليونانية أو الرومانية.

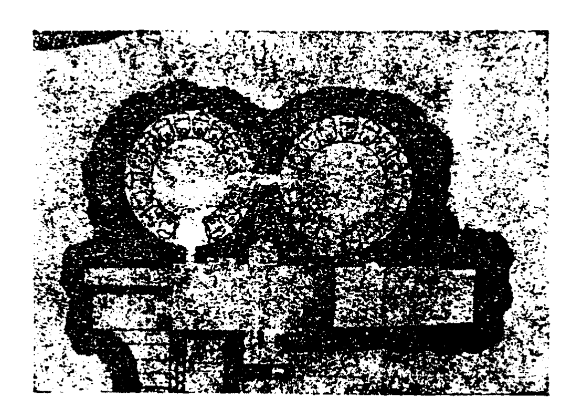
لم يكن استعمال هذا الحوض ذو المسند الخلفى الشبيه بالمقعد Fauteuil مقصوراً على الحمامات الخاصة فحسب بل تعداها إلى الحمامات العامة الدينية كما نرى مثلاً فى حمامات كوم النجيلة ولاد الشيخ قرب أبى المطامير (شكل٩) وحمامات تابوزيريس ماجنا (أبو صير بالصحراء الغربية) وحمامات أبى مينا قرب العلمين. وحيث أننا لم نعثر فى الاسكندرية على المبنى الذى استخدم فيه هذا الحوض لهذا لا يسعنا إلا أن نشير إلى بعض الحمامات المكتشفة بمنطقة الاسكندرية كحمامات ابى صير وحمامات أبى قير (كانوب قديماً)، حتى نستطيع أن نكون صورة لما كانت عليه تلك الحمامات العامة التى استعمل فيها مثل هذا الحوض وحتى نتبين الأغراض التى قامت من أجلها مثل هذه الحمامات.



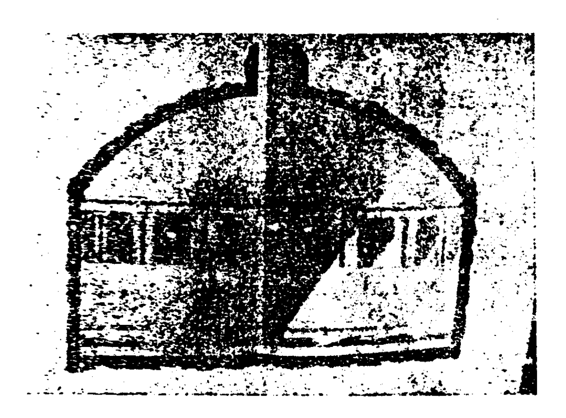
(شكل٩) حمامات كوم النجيلة ولاد الشيخ قرب أبى المطامير نقلاً عن
Breccia, "B S. A. A. 1921"

حمام تابوزيريس ماجنا (أبو صير بالصحراء الغربية)

صمم هذا الحمام على هيئة دائرتين كبيرتين حفرتا فى الصخر ويربط الدائرتين ممر ضيق (شكل ١٠) وكان لكل دائرة سقف كبير على هيئة قبة مفتوحة فى مركزها كما نرى مثلاً فى معبد البانثيون بروما وكما نرى حالياً فى قباب المساجد. ولقد ترك فى القبة هذه فتحة متوسطة لتسمح بمرور الضوء والهواء إلى داخل الحمام. كما تركت فى مركز كل دائرة مساحة خالية تحيطها الأحواض والغرض من ترك هذه المساحة هو سهولة الانتقال للأحواض وللممرات سواء تلك الواصلة بين الدائرتين أو بين احداها والمبانى المستطيلة الشكل الملحقة بها. أما الحيطان الرأسية لكل دائرة فلقد حفرت فيها على ارتفاع قامة تقريباً خمسة عشر فتحة صغيرة مستطيلة الشكل (شكل١١). لم تكن هذه الفتحات لوضع أوانى رماد الموتى بعد حرقها كما يدعى تيرش Thiersch.



(شكل ١٠) حمام ثابوزيريس ماجنا (أبو صير)
قطاع أفقي يبين توزيع الحجرات والأحواض



(شكل ١١) حمام ثابوزيريس ماجنا (أبو صير)
نقلاً عن قطاع رأسي يبين الفتحات التي بالحيطان لحفظ الملابس بعد خلعها عند الاستحمام
Braccia, B. S. A. A. 1921

ولكن تأييداً لبريتشا كانت هذه الفتحات بمثابة دواليب يضع فيها المستحم ملابسه وحاجاته حتى ينتهى من الاغتسال. فهى فى اعتبارى تشابه تلك الفتحات التى نراها فى حيطان الابوديتاريوم فى حمام استابيا أو التبداريوم فى حمام الفورم. كما أن فتحات المقابر التى تحفظ فيها زلع الرماد اتخذت فى العادة شكل نصف دائرة. وإن كانت هذه الفتحات صغيرة أيضاً إلا أنها مستطيلة الشكل.

وفى الحفريات التى أجراها برتشا فى هذا الحمام اكتشف تحت هذه الفتحات الموجودة بالحيطان أحواضاً للاغتسال تشبه تلك الأحواض التى على شكل المقعد والمكتشفة بالاسكندرية وكوم النجيلة ولاد الشيخ. ولقد رصت هذه الأحواض فى مجموعتين تتكون إحداهما من ١٢ حوضاً بينما تضم المجموعة الثانية ثلاثة أحواض وتقع الأخيرة بين ممرين مقببين أحدهما مستقيم ومنخفض ومتصل بالممر الواصل بين الدائرتين أما الثانى وإن كان منخفضاً إلا أنه أكثر اتساعاً ومتصل بممر ينتهى فى حالة إحدى الدائرتين إلى مبانى مستطيلة ذات سقف مقبب وبها فتحة على هيئة محراب niche ربما وضع فيه تمثال. أما الإتصال بين الدائرة الأخرى والمبنى المستطيل الشكل الذى يقع بجوارها فمقطوع. وربما كانت المبانى المتصلة بالمبنى المستطيل المتصل بالدائرة تمثل بعض مكاتب الإداريين إذ أن المدخل العمومى للحمام يفتح على المبنى المستطيل وعليه كان هذا المبنى المستطيل مكان تجمع للمستحمين. وبمقارنة هذا الحمام بحمام أبى قير (كانوب) يمكن الجزم بأن هذا الحمام كان للاغتسال عند إجراء الطقوس الدينية أى بمثابة الميضة للوضوء عند المسلمين اليوم.

وفى اعتقادى يرجع هذا الحمام فى تاريخه إلى العصر الإمبراطورى الرومانى وربما كان ذلك فى القرن الثانى الميلادى وإن كان استخدام الحمامات الدائرية معروفاً فى مصر منذ نهاية العصر البطلمى ولكنى استند إلى أن القبة بهذا الشكل ظاهرة رومانية معمارية كما نراها فى البانثيون وفى حمامات كاراكلا مثلاً كما أن الـniche بدت كظاهرة معمارية فى الحمامات الرومانية منذ عصر كلوديوس أونيرون تقريباً كما تبدو فى حمامات بومبيى.

حمام كانوب (أبو قير)

يقع هذا الحمام جنوب حصن توفيق ويختلف فى تصميمه عن حمام أبى صير فبدلاً من أن تكون الحجرات دائرية كما هو الحال فى أبى صير نجدها هنا مستطيلة الشكل وتضم ١٤ حوضاً مبنياً بقوالب الآجر المحروق مما يرجعها إلى العصر الرومانى. وهى مغطاة بطبقة من المصيص حتى لا تسمح بتسرب المياه. وموزعة بحيث يضم كل جانب طولى كبير أربعة منها وثلاثة لكل من الجانبين القصيرين العرضيين. وتشبه هذه الأحواض تلك التى رأيناها فى كوم النجيلة ولاد الشيخ وتلك التى فى أبى صير. ولقد تهدمت الأجزاء العليا من الحيان وكذلك المبانى المجاورة. ولكن اكتشف بجوار الحمام مباشرة حوض كبير كما لو كان للسباحة. واكتشفت فى الأراضى المحيطة بالحمام أربعة تماثيل من التراكوتا (الطين المحروق) تمثل الإله بس، وهى غير مهذبة فى صنعها من الظهر مما يشير بأنها كانت توضع وظهرها للحائط كما أن ارتفاعاتها متفاوتة تتراوح بين نصف المتر والمتر تقريباً. ويعلو تاج إحدى هذه التماثيل نحت للعجل أبيس فى منظر جانبى. ويدل وجود هذه التمثيل بجوار الحمام على أن الحمام أقيم للإغتسال فى المراسيم والطقوس الدينية أما الحوض الكبير فهو بمثابة

مغطس جماعى لغمر الأفراد أسوة بالتعميد عند المسيحين إذ أن عملية التعمد بالغمر فى المياه كانت منتشرة فى الديانات اليونانية منذ العصر الهيلينيستى. واستمرت عند الرمان وخاصة فى مذهب New Pythagoreanism كما نراها ممثلة فى الفن فى أوائل عصر الامبراطورية الرومانية كما فى سقف المحراب niche للصالة الرئيسية فى باسيليكا بورتا ماجورى المبنية تحت الأرض فى روما Underground basilica at porta Maggiore . أما الأحواض الأربعة عشر فربما كانت حمامات لغسل الأرجل.



فن الشعر لهوراتيوس

النقد الأدبي (*)

دكتورة

فاطمة سالم سيف

* صدرت هذه المقالة في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية في المجلد التاسع عشر، ١٩٦٥ ص ص ١٣٩ - ١٩٢ .



فن الشعر لهوراتيوس

النقد الأدبى

لن نعنى بتعريف النقد الأبى تعريفاً يحدد ماهيته ويكشف عن وظيفته فإن الباحثين فى النقد الأدبى يختلف تعريفهم له إختلافاً يحدده تطور الثقافة واتساع المعرفة والبصر النافذ بالأساليب الأدبية على اختلاف ضروبها وألوانها. ومن هنا كان.

ومادمنا نتحدث عن تاريخ النقد فى العالم القديم فإن دقة البحث وعمقه يقتضيان أن ندرك شيئاً ما عن ماهية النقد عند القدماء ووظيفته بين النقاد منهم. ولانكاد نظفر بتعريف له فيما خلفوه من آثار أدبية غير أن مجموعة النظريات التى جاءت أثناء أبحاثهم ودراساتهم قد تحدد النقد الأدبى تحديداً يكشف عن إحساسهم بالجمال، وتقديرهم له كما يبين الوسائل التى بها يكون النص الأدبى جديراً بالتقدير مؤثراً فى النفس، مثيراً للعواطف المختلفة والإحساسات المتعددة، ومن هنا لم يكن النقد الأدبى عندهم علماً مستقلاً أو فرعاً من الدراسات متميزاً بل كان نتاجاً فرعياً لعلوم مختلفة لها صلتها بالحركة الفكرية كالفلسفة والبلاغة وعلم النحو إلى آخر ذلك. لذا نجد النقد فى عصره القديم الأول إشارات عابرة فى كتابات هوميروس وهسيودوس، كما نلمسه فى الأحكام الأدبية التى تصدر فى الإنشاد والمباريات الغنائية التى أصبحت وسيلة فنية معترفاً بها أيام هسيودوس، ثم نراه فى صورة مناقشات عن وظيفة الشعر

وأهدافه، هل هو للمتعة كما يعتقد هوميروس أم هو للتعليم والنفع كما يراه هسيودوس.

وفى القرن السادس ق.م تطور النقد تطوراً يتجاوب مع تقدم الفكر اليونانى فهو ثورة فكرية قام بها الفلاسفة الأيونيون تزعمها الشاعر الفيلسوف كسينوفانيس الكولوفونى ضد أساطير هوميروس التى تنسب إلى الآلهة والآلهات كل رذائل الإنسان فهو لذلك ملحد ولابد أن يعاقب على إلحاده. وقام تطاحن بين الفلسفة والشعر فأنتج الرمزية التى حاول بها بعض الشعراء والفلاسفة إصلاح ذلت البين وتفسير الأساطير بما تتضمنه منمعنى باطنى فعراك الآلهة مثلاً يرمز إلى الصراع بين الخير والشر وسهام أبولو ترمز لأشعة الشمس.

ثم ازدهر الأدب فى القرن الخامس ووصل إلى قمته ودرس الشعر كفن وقام بنداروس يتحدث عن قوانين الفن، وقوانين الترتيل ويصدر أحكاماً على القيم الخاصة بالإلهام وبفن الشعر فالشاعر يرتكز على الإلهام والموهبة الطبيعية، أما الفن فهو عديم الفائدة فى نظره.

وقام شعراء الكوميديا ينتقدون التقاليد والسياسة والأدب والفن والدين ويصدرون أحكامهم على المسائل العامة المحيطة، بهم وأخذ السوفسطائيون أمثال جورجياس يدرسون الخطابة والبلاغة. كل هذا ساهم مساهمة فعالة فى التمهيد لظهور النقد كعلم مستقل.

وتتحدد البداية العلمية الجدية للنقد بمسرحية الضفادع لأرستوفانيس التى تتلخص فى أن ديونيسوس إله المسرح صمم على الذهاب إلى العالم الآخر ليعود بشاعر مأساة إلى الأرض يعيد إلى المأساة مجدها الضائع فقصد بلوتو وعلم منه أن مناظرة توشك أن تتم بين أيسخيلوس ويوريبيديس من أجل إرتقاء عرش

المأساة وما إن بدأت المناظرة حتى أرهف ديونيسوس السمع وتملكته الحيرة للهجوم الذى كان يشنه كل من الشاعرين على الاخر وكان على ديونيسوس أن يصدر حكمه ويفضل أحدالشاعرين وجئ بالموازين ووزنت أشعار المتناظرين وهنا رجحت كفة أيسخيلوس ومع ذلك فقد تردد ديونيسوس فى النطق بالحكم فهو يحب بيوربيديس أيضاً وأخيراً فضل أيسخيلوس على يوريبيديس ورجع إلى سطح الأرض فرحاً مسروراً.

ثم جاء أفلاطون ولعب دوراً هاماً فى تاريخ النقد فهو صاحب النظرية المثالية فى الفلسفة التى حاول بها أن يفسر ظواهر الوجود المختلفة وبظهور أفلاطون بهذه النظرية الجديدة وبتطور فن النثر نجد مرحلة جديدة فى تاريخ النقد، فقد ظهرت فى كتاباته لزول مرة مجموعة من القواعد الأساسية التى تحدد طبيعة الشعر ووظيفته كما تتناول الفن وتكشف عن جوهره.

ولعل هذه الأصول النقدية التى تطورت عند أفلاطون والتى ضمنها كثيراً من تجاربه الفلسفية والنفسية فزادتها عمقاً وأصالة، كان لها أثرها فى تلميذه أرسطو وعليها اعتمد فى كتابة فن الشعر، وقد حاول أرسطو فى هذا الكتاب أن يحدد طبيعة الشعر ووظيفته الجمالية وأثره النفسى كما أنه تحدث فيه عن أنواع الشعر كالمأساة والملهاة مبيناً أصول كل منهما وإن كان قد خصص جل همه لدراسة المأساة فتناولها من زواياها المختلفة وجوانبها المتعددة وكان النقد الزدبى حتى عصر أرسطو ثمرة للبيئة اليونانية الخالصة ولتجاربها الفلسفية والفنية وحدها فلما فقدت أثينا زعامتها الأدبية نتيجة لهزيمتها السياسية أصاب النشاط النقدى تغيير شامل أقتضيته طبيعة الحياة الجديدة وسكت الشعراء والقناد عن دراسة الدب ونظرياته وانتقلت مراكز الثقافة إلى برجامون ورودوس

والإسكندرية وبهذا الإنتقال يبدأ العصر المتأغرق.

ولا يشتهر العصر المتأغرق بنظرية أدبية هامة ويرجع السبب فى ذلك إلى ضياع وثائق هذا العصر وإن كان تاريخه أمكن جمعه من رءوس كتب مفقودة أشار إليها الكتاب المتأخرون أمثال سترابووبلوتارك ودايوجنيس لائيرتيوس ثم أجزاء من البردى اكتشف حديثاً.

ويرجع أيضاً إلى أن العصر نفسه لم ينتج نظريات أدبية يمكن أن تقارن فى جدتها بنظريات القرن الرابع فى اثينا كما أنه لم ينتج أى فن أدبى يمكن أن يقارن بعصر بركليس أو بفن العصر الهوميرى فقد اشتهر العصر المتأغرق بالدراسات التاريخية الجادة والتشكيل والتكنولوجيا كما أشتهر بظهور المذاهب الجمالية المغالية والريداعات الأدبية والتقسيم فقد اتجه العقل المفكر فى هذا العصر إلى البحث العلمى وإلى تقييم الفهارس المكتبية المتنوعة لمكتبة الإسكندرية كما اتجه إلى إنبات مذاهب فلسفية أو إنبات أنواع معينة من الأدب كالإجرام والإيليچية والإبدليات أو إلى اكتشاف أنواع مجهولة فى الزساطير فكان عصر ازدهار للنحاة والشراح واللغويين. وقد تزعم كاليماخوس مدرسة فى الإسكندرية كما تزعم حركة النقد فيها وقد امتاز بآراذه الأدبية التى جاهر بها وأعلنها فى الناس، وكان من رأية أن يدع الشعراء فن الملاحم وأن يتجهوا إلى القصيدة القصيرة بنوع خاص وألا يسرفوا فى المحاكاة بل عليهم أن يعنوا بصقل ما أنتجته قرائتهم حتى يتوافر لإنتاجهم عنصر الأصالة. ومن أشهر أقوال كاليمتخوس فى النقد «إنى أكره القصيدة الطويلة وأكره الطريق العام الذى سلكه كل فرد. والكتاب الكبير عبء فى الواقع».

واشتهرت فترة العصر المتأغرق أيضاً بنشر نصوص هوميروس ونقدها

ونصوص كتاب المسرحية والشعر الغنائى ومن أهم العاملين فى هذا الحقل أراتوسثنيس البيزنطى وأرستارخوس وزولوس وغيرهم من معاصرى زينودوتوس المتأخرين. ولا نغفل أيضاً زويلوس رجل البلاغة والنقد الذى اكتسب شهرة واسعة فى دراسته لهوميروس ونقده له على ضوء العصر الهوميرى وقد كان هذا العصر عصر شجار بين القديم والحديث، ورغم أن فهم العلماء له غير واضح المعالم إلا أنه يكون مرحلة توحى بنتائج هامة لتاريخ نقدى متأخر.

بعد موت ثيوفراستوس عام ٢٨٧ ق.م انتقلت مؤلفات أرسطو إلى تلميذ له أخفاها فى كهف حتى لا تمتد إليها آل أتالوس الذين اتصفوا بجنون الكتب وظلت هذه النصوص غير معروفة حتى عام ١٠٠ ق،م حين اكتشفت ونقلت إلى أثينا وظلت هناك حتى نقلها سُلا إلى روما عام ٨٦ ق.م ثم أخذ المشاءون يقننون ويحددون بطريقتهم الخاصة النظام الذى كان قد حدد معالمه ارسطو.

ويمكن الوقوف على مدى تحول النقد فى مرحلته الثانية من كتاب فن الشعر للمشائى نيوبتوليموس البارى الذى اكتشفت آراؤه حديثاً فى أجزاء من بردى محروقة والذى تأثر به الفيلسوف الأبيقورى فيلوديموس وقد تناول موضوع الشعر بطريقة منهجية تحت رءوس الموضوعات الآتية: (فن الشعر – القصيدة – الشاعر) وقد عرض الأدب فى هذا الكتاب عرضاً متزناً وتناول أنواع الشعر القديم والخصائص المميزة له وأصوله وناقش بعض القضايا الأدبية مثل أيهما أكثر أهمية للشاعر. أهى الفكرة أو الاسلوب وبالتالى ماهدف الشاعر أو الأديب أهو التعليم أو المتعة؟ وهو فى كل هذا يبين الوسائل التى تعين الشاعر أو الأديب على بلوغ الغاية من فنة، وقد أثبت هذا الكتاب كما أثبتت آراء فيلوديموس الذى تأثر به أن ما وصل إليه اليونان القدماء من فنون الشعر المختلفة

لن يخضع لتغيير جوهرى أو تبديل بل إنها نماذج ثابتة قوية ينسج الأديب على منوالها ويحتذى آثارها. وبعض القضايا الكبرى التى أثارها القدماء مازالت تناقش اليوم فى مصادر النقد الأدبى فى العصر الحديث منها هدف الشاعر ووظيفة الشعر. وعلى العموم وجه النقاد والأدباء همهم إلى صيانة التراث اليونانى القديم وخصوصاً التراث الفنى وشرحه والتعليق عليه وضبط نصوصه.

تلك هى الملامح العامة لحياة النقد الأدبى عند اليونان وهى التى تركت أثرها فيما بعد فى النقد العربى حين ترجم بعض هذا التراث إلى اللغة العربية فى العصر العباسى وتأثر به الأدباء العرب واتبعوا نهجه وأقاموا أحكامهم النقدية والأدبية على هدى منه ثم انتقل ذلك التراث إلى الغرب فأحيى من جديد.

ولم ينته النقد الأدبى من حيث هو فن له أصوله وقواعده فى العالم القديم بإنتهاء العصر المتأغرق بل إن حياته امتدت وتطورت تطوراً ملحوظاً عند الرومان وهم ورثة الحضارة الإغريقية وحفاظها.

ولو أن الباحث فى تاريخ النقد فى هذه الفترة أراد أن يتحدث عن ملامحه العامة ويكشف الإضافات الجديدة التى أضيفت إلى التراث القديم لوجد أن النقد اتجه وجة أخرى تبعاً لنوع الثقافة وطبيعة الحياة الأدبية والفكرية التى كان يعيشها الرومان. والمعروف أن الرومان لم يكن لهم استعداد قوى للدراسات الفلسفية كذلك الاستعداد الذى وجدناه عند اليونان ولكنهم مع ذلك يمتازون بعقلية قانونية قادرة على تشكيل الموضوع تشكيلاً له قواعده وأصوله المنضبطة المحدودة ومن هنا اتجه الرومان إلى تقنين النقد الأدبى مترسمين فى إنتاجهم الفنى آثار اليونان القدماء.

ويعرف هذا العصر لافى تاريخ النقد وحده بل فى جميع مظاهر الحضارة

الرومانية بالإغريقى الرومانى فبعد أن صارت روما سيدة البحر الأبيض واتصلت بالفكر اليونانى وحضارته انتقلت مراكز الثقافة من الإسكندرية وغيرها من مراكز العصر المتأغرق إلى روما فسيادتها ساعدتها على تبوء هذا المركز الممتاز.

وقامت حركة النقد على يد الفلاسفة أمثال بنايتيوس الذى ناقش الأساليب المختلفة ماهو مباشر وما هو صنعه وخصائص كل منها وما يمت إليهما من قضايا أدبية ونحوية ولغوية، كما اسهم فى بلورة النقد مؤرخو هذه الفترة أمثال بوليبيوس وكتاب المسرحية أمثال ليفيوس أندرونيكسو ونايفيوس وبلوتوس وترنتيوس الذين ساروا على نهج الملهاة الإغريقية فى أداء رسالتهم من نقد اجتماعى وأدبى وسياسى، وقد عرض النقد السياسى البعض منهم للنفى كما حدث لنايفيوس، فلم تكن الجمهورية تسمح فى ذلك الوقت بالتعرض لتقاليدها ونقد رجالاتها، وعلى الرغم من هذا لم يقف كتاب الملهاة عاجزين بل لجأوا إلى الباليانا ينفذون من خلالها إلى أهدافهم.

ويتميز ترنتيوس من بين هذه الأسماء بأنه نقد الأساليب الجوفاء فى عصره وثار على الترجمة الحرفية للملهاة الإغريقية وثار على الغموض الذى كان يعترى بعض المسرحيات نتيجة لحرفية النقل وطور الملهاة تطويراً لم يعرفه الرومان من قبل. وبهذه الملاحظات وغيرها ألف ترنتيوس ما يشبه نظرية متكاملة فى النقد الأدبى وهى نظرية تكشف عن القواعد والأحكام المتصلة بفنه بإعتباره شاعراً من شعراء الملهاة المجددين فيها.

هكذا نرى مولد النقد الرومانى حتى جاء شيشرون. وقد كان موضوع النقد فى هذه الفترة يتصل بالخطابة وقد ترك شيشرون أبحاثاً متفرقة عن هذا

الفن إذ كان خطيباً يعالج هذه الصناعة ويفنن فيها وهو فى أبحاثه لم يقنع بالقواعد المدرسية الجافة وإنما اتجه إلى دراسة الأصول كأفلاطون وأرسطو وثيوفراستوس وغيره من فلاسفة الإغريق وخطبائهم وحاول أن يهتدى بأعمالهم وآثارهم ولكنه فى الوقت نفسه حاول التجديد والتبسيط وهو يحاول فى دراسته المتعددة أن يتبع القواعد ويحدد الأصول التى يتوافر بها للخطيب البراعة والقدرة على اجتذاب الجماهير فضلاً عن أن الخطابة وسيلة ناجحة لعرض مظاهر النشاط الفكرى، وهو لذلك يؤكد أن لغة الكلام هى الفصل بين الإنسان والحيوان وأن القدرة على الإقناع هى التى منحت الإنسان حياة أفضل من ناحية إقامة حياة مدنية منظمة تحرسها القوانين والشرائع. ولم ينس شيشرون أن يربط بين جمال الأسلوب ووضح الفكرة وهو يرى أن الفصاحة تكون دائماً نتاج الترابط بين هذا الجمال والوضوح على أنه يرى أن الفكرة يجب أن تسبق الكلام من ناحية ترتيبها والتأمل فى مضمونها ثم إنه يؤكد أن نجاح الخطيب يتوقف على إدراكه لطبيعة النفس الإنسانية ودراسة ميولها ورغباتها حتى تكون لغة الخطيب متسقة مع عواطف الناس وإحساساتهم وحتى ينجح الخطيب فى إثارة الناس، وإذكاء حماسهم لما يقول وانفعالهم به واستجابتهم له، وعلى ذلك حدد شيشرون واجب الخطيب فى ثلاث كلمات وهى أن «يمتع ويعلم[1] ويثير». كذلك يقرر أن نجاح الخطيب وبراعته تتوقفان على توافر الملكة والقدرة الطبيعية وهذه الملكة فى رأيه يمكن أن تصقل وتهذب بالمران والتدريب والدراسة الحرة الأصيلة وقد تأثر فى هذه النظرية بأفلاطون وبغيره من قدامى اليونان وبم يقف

(١) راجع :
Cicero, De optimo genere oratorum, 3, (optimus est enim orator qui dicendo animos audientium et delectat et docet et permovret.

تأثره عند هذا الجانب بل تعداه إلى ما يجب أن يكون عليه سلوك الخطيب وهو أنه يجب عليه أن يظهر فى خطابته النزاهة والبراعة. وكان مادفع شيشرون إلى إثارة كل هذه النظريات حول الخطابة وأصولها وتأثيرها فى النفس، وصفات الخطيب وثقافته، أن يعمل على تهيئة الظروف الممكنة لأن يكون الخطيب بالغاً القمة فى فنه فكان يهدف إلى الجانب المثالى من الخطابة.

وبهذه الدراسات المختلفة احتل شيشرون مركزاً[١] كبيراً فى حياة النقد الأدبى على العموم وفى حياة النقد الأدبى الرومانى على الخصوص، كما أنه كان من أكبر الداعين إلى دراسة الأدب اليونانى فى مهده الأول دون العصر المتأغرق، وبهذه النظرة بدأت دعوة جديدة إلى إحياء التراث اليونانى القديم ومحاكاته والتأثر به وذلك لأن هذا التراث هو الذى يتوافر له عنصر الأصالة، والعبقرية دون سواه من العصور التى تلته. وتلا عصر الخطابة والنثر الشيشرونى عصر الشعر فى عهد أوغسطوس فرأت روما عصراً لم تشهد مثله فى تاريخ أدبها القديم فقد تبلور الأدب واكتمل وتفرع وبلغ الذروة وقمة المجد فى فروعه المختلفة شعراً ونثراً. وماقام به شعراء هذا العصر معروف وغنى عن التعريف. وفى مجال النقد نجد حركة ونشاطاً لم يسبق لها مثيل فنقاد هذا العصر من شعرائهم وكتابهم لم يتركوا فرعاً من فروع الأدب إلا نقدوه وقيموه وفقاً لتقديرهم.

ولو تعمق الباحث فى خطوات تشكيل النقد فى هذا العصر فلن يغفل ذكر مايكيناس الذى ضم تحت لوائه كل ما هو جدير بتأدية رسالة الدولة واختار من

(١) يرى Saintsbury غير هذا الرأى فشيشرون فى نظره لم يكن ناقداً. إذ أنه لم يهتم بنقد كتاب أو شعراء عصره أمثال لوكريتوس وقد نشر كتابه المشهور De rerum natura Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste (Cicero page 212 Seqq).

بين الشعراء والكتاب من توافرت له موهبة حقة وقلم نفاذ كأعضاء لحلقته المشهورة يوجههم توجيهاً صادقاً فى اختيار مادة الكتابة وفى صقل الأساليب وغير ذلك حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه الأكمل ولاشك أن مايكيناس بتصرفه هذا اسهم فى حركة النقد وفى ازدهارها.

ولكن النقد لم يتشكل تشكيله العلمى الأخير إلا بظهور هوراتيوس فى عالم الأدب وقد مهد له فى أهجياته ورسائله بإشارات وعالج بعض القوانين المختلفة ثم توج آراءه المتفرقة فى كتاباته بمؤلف خاص بالنقد يتضمن قوانين عن الشعر ويعرض المسائل الأدبية الهامة.

ونصوص هوراتيوس النقدية الهامة هى هجاؤه الرابع والعاشر من الكتاب الأول وهجاؤه الأول من الكتاب الثانى ورسالته إلى أوغوسطوس وإلى فلوروس ثم رسالته إلى بيزو أو فن الشعر.

وفى هجاء هوراتيوس الرابع من كتابه الأول الذى كان يدافع به عن نفسه وعن شعره يتكلم عن الحرية التى تمتع بها شعراء الملهاة الإغريقية القديمة فى نقد زان أو سارق أو ما أشبه ويطالب بإستعمالها فى الهجاء، ولعل هذه المطالبة تتضمن طلباً لحرية النقد أيضاً فالهجاء ناقد للحياة فى مظاهرها المختلفة. ثم نراه يعرض لمشكلات أدبية فيوجد الصلة بين لوكيليوس مبتكر العجاء الرومانى وبين شعراء الملهاة القديمة فيربط بهذه الصلة بين الهجاء وبين الملهاة ثم ينتقد لوكليوس ولا يقبل إرتجاله لسيل من الأبيات فى زمن قصير ولايقبل خشونة أسلوبه وعدم صقله ويتعرض للهجاء عامة أهو شعر أو نثر أهو شخصى يؤذى الأفراد أم اجتماعى ينقد الحياة المحيطة ثم المسرحية أهى شعر أم نثر ويجيب هوراتيوس بأسلوبه الممتع على كل هذا، فالهجاء فى نظره ليس شعراً رغم تقيده

بالوزن فالشاعر لابد له من موهبة وروح إلهية. وهجاؤه ليس شخصياً إلا بقد الدفاع عن نفسه فهو لا يسب ولا يتصف بنفس سوداء قاتمة، وهجاؤه إجتماعى يبرز المساوئ، وهى عادة أخذها عن أبيه حين كان يقوم أخلاقه فإن انطبقت أوصافه على الأفراد فليس الذنب ذنب الهجاء بل الأشخاص أنفسهم وإن سخر من روفوس الذئ تفوح رائحته الثقيلة كما لو كان زجاجة عطر متحرك فليس هذا سباً منه وله الحق فى أن يسخر.

والكوميديا فى رأيه ليست شعراً إذ ينقص كلماتها ومادتها قوة الوحى وحرارته، لا تختلف عن الكلام النثرى إلا فى تقيدها بالأوزان والإيقاع. وقد يعترض معترض على هذا الرأى ويرى قوة فى الملهاة حين يغفل الأب إذا رفض ابنه الزواج من امرأة لها ثروة لأن له عشيقة، ويجيب هوراتيوس إن ثورة الأب عاطفة طبيعية ولو تخلصنا من قيود الوزن لأصبحت كلماته نثراً يقوله كل أب فى مثل هذا الموقف.

وإذا رجعا إلى الهجاء العاشر من نفس الكتاب نجد المزيد فقد آثار هجاؤه الرابع النقاد فكيف يجرؤ على نقد لوكيليوس الذى هو جزأ من تراثهم القديم ويصمم هوراتيوس على موقفه الأول ويقول إنه يحترم لوكيليوس ويتخذ منه مثلاً يحتذيه ولكن أى معجب بلوكيلوس لا يستطيع أن ينكر عليه أخطاءه ولو تسامح عن أخطاء لوكيليوس لاعتبرت هزليات لابيريوس شعراً ممتازاً.

والهجاء فى نظره فى حاجة إلى الإختصار حتى لا يمل السامع وحتى تجرى الفكرة دون عائق والهجاء فى حاجة إلى أسلوب يتراوح بين الجد والمرح والهجاء خطيب أحياناً وشاعر أحياناً أخرى وهو فى حاجة إلى الصقل والضحك والسخرية، والسخرية المصقولة لها قدرة فى التأثير عن الجهد فبهذه السخرية

نجح شعراء الملهاة ويجب أن يقلدهم الهجاء.

وفى الهجاء الأول من الكتاب التالى يعود هوراتيوس للمرة الثالثة للدفاع عن نفسه متخذاً من هذا الدفاع وسيلة للتعريف بآرائه النقدية. وهو يطلب النصح من ترباتيوس فشعره فى عرف البعض فاق الحد القانونى وفى عرف البعض الآخر خال من الروابط وينصحه ترباتيوس أن يترك الشعر أو يكتب الملاحم (إذا كان ترك الشعر مستحيلاً)، فإذا استمر فى كتابة الهجاء فسوف ينفض عنه أصدقاؤه أو يعاقبه القانون على أشعار تسئ إلى الزفراد. ولا يأخذ هوراتيوس بهذا النصح وسوف يكتب الهجاء فقد كتب لوكيليوس قبله ولم ينفض عنه أصدقاؤه وسوف يكتب الهجاء دفاعاً عن نفسه لا للهجوم على الناس وإنه لن يكتب سباً بل شعراً جميلاً يوافق عليه أوغوسطوس.

ونرى خلال الحوار الذى دار بين الشخصيتين أن هوراتيوس أشار إلى وجود قانون لكل فرع من فرع الأدب ثم إن الكتابة فى أى فرع ترجع لميل الكاتب ومقدرته كما أظهر جانباً من العنصر الشخصى للهجاء وهو الدفاع عن النفس فليس هجاؤه سباً يكيله على الأفراد بل شعر جميل ينقد به من يستحق اللوم فجمع هوراتيوس بهذه اللفتة الهدف الشخصى والاجتماعى من الهجاء. ويرى بعض[1] النقاد الأصالة فى بعض هذه الأهجيات وهذا حق فنقد هوراتيوس للهجاء وتشكيله قوانينه لا نجده عند الإغريق ولا نجده عند نيوبتوليموس كما أن صلة الهجاء بالملهاة لم يعالجها الإغريق أيضاً وهذا واضح

(١) يعتبر بعض النقاد أهجيات هوراتيوس ورسائله النقدية أكثر أهمية من فن الشعر ويرون أن الهجاء الرابع والعاشر من الكتاب الأول أكثر أصالة إذ كتبهما قبل أن يتصل بنيوبتوليموس راجع: Saintsbury, history of Criticism and Literary Taste page 228

إذ أن الهجاء رغم تأثره بالإغريق، رومانى فى نوعه ابتكره لوكيليوس.

ويتخذ نقد هوراتيوس فى الرسالتين مظهراً آخر، ففى رسالته لأوغوسيوس يقول هوراتيوس: إن الرومان يبجلون الأبطال بعد وفاتهم ولكنهم يبجلونه فى حياته وهذا المبدأ الذى سلكوه معه لا يطبقونه إلا عليه فهم فى الأدب لا يقدرون إلا ماهو قديم. إن التقدير يجب أن يكون للقديم والمعاصر على أساس غير أساس الزمن فلم يكن القدماء على درجة من الكمال وليس كل قديم له قيمة فنية وقد يأتى الشاعر الحديث بما لم يصل إليه القدماء، والتمسك بالقديم لأنه قديم لا مبرر له. إن الذوق يتطور بتطور الأزمنة فما قبله الذوق بالأمس قد لا يستسيغه اليوم، لننظر إلى الإغريق فهم يغيرون تسليتهم كالأطفال من واحدة إلى أخرى فقد شغفوا بالمصارعة ثم النحت والرسم والموسيقى ثم المأساة ولكن الرومان كانوا أكثر جدية منهم فقد كرسوا حياتهم للأعمال العامة ولم يهتموا بالشعر والكتابة إلا حديثاً كما يفعل هو اليوم. ولئن كان الشغف بالكتابة له أخطاؤه فضلاً عن هذا أنه جنون خفيف فإن له فوائده ذلك أن الشعراء ارتقوا بتربية النشء وطبعوا النفوس بمبادئ رحيمة وخدموا الدين بتعاليمهم، إن للإغريق فضل صقل الرومان وتهديبهم، والرومان أميل وأكثر قابلية للمأساة منهم للملهاة ولكن كتاب الملهاة أمثال بلوتوس لهم أخطاء كثيرة ولايحكم عليهم بما يلقونه من تصفيق الجماهير فهو لايعترف بحكم الجمهور الذى يطلب المصارعة ويعنى بما يسر عينيه من ألوان وملابس أكثر بما يعنى بالمسرحية، فلو كان ديموقريتوس حياً لضحك من هذا الجمهور الذى يصفق للممثل قبل أن يتفوه بكلمة، وهو بنقده هذا لا يقلل من قيمة فن لا يستطيع ممارسته ولكنه يطلب الكمال، يطلب الشاعر الذى يحرك روحه بإبتكاره.

ورسالة هوراتيوس إلى صديقه فلوروس تضيف إشارات عن الشاعر وكتابته، يقول هوراتيوس، بعد أن شرح لصديقه الأسباب فى عدم الكتابة إليه، إن موضوع كتابة الشعر الجيد موضوع جاد يتطلب ذوقاً وعناية فى اختيار لغة مهذبة وقد تبدو نتيجة هذا الاختيار سهلة ولكن هذا السهل نتيجة عمل مضن طويل، ثم ينهى هوراتيوس رسالته بإبداء رغبته فى الإتجاه إلى الفلسفة ويتحدث عن الثروة والملكية والبخل.

تلك هى الخطوط العريضة للعوامل والعناصر التى بلورت النقد فى تاريخه القديم ومهدت لظهور «فن الشعر» الذى يعتبر المؤلف الرومانى الوحيد فى عالم النقد الرومانى.

ويقع فن الشعر فى الجزء الأخير من حياة هوراتيوس وإن لم يعرف على وجه التحديد تاريخ تأليفه. يعتقد البعض أنه نشر قبل وفاة هوراتيوس بقليل[١] وهذا يعنى أنه نشر عام ٨ق.م. ويرى البعض الاخر[٢] أن تأليفه لايمكن أن يقع بعد عام ٢٦ق.م. ويرى البعض الثالث أنه كتب عام[٣] ١٩ ق.م. ولم يقف النقاش عند هذا الحد فهناك آراء أخرى فى هذا الصدد نورد منها على سبيل المثل رأى الأستاذ أ.ى كامبل الذى يظن أن فن الشعر[٤] كتب بين عامى ٢٣ – ٢٠ق.م واختلف علماء العصر الحديث فى نوع تأليف غن الشعر فاعتبرها فسك نوعاً من أنواع الإيسجوجية. ويعرف نوردن[٥] هذا النوع من التأليف بأنه كتيب

(١)، (٢) راجع: A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica Page 50

(٣) راجع باللغة اللاتينية حياة هوراتيوس (م السلامونى. عبد اللطيف أحمد إلى آخر ذلك) ص١٣٩

(٤) راجع: H.R. Fair-Clough, Horace, Satires, Epistules and Ars Poetica footnote page xiii

(٥) راجع : Fiske, Lucilius & Horace, Page 445

صغير لقوانين معدة للاستعمال وضعت إلى قسمين كل منهما يمت إلى الآخر بصلة الأول هو الفن والثانى هو الفنان. وتكتب الايسجوجية عامة إما فى شكل أسئلة وأجوبة القصد منها الإرشاد أو التعليم أو فى شكل حث يلقن فيه خبير فى فن أو علم قوانيس هذا الفن أو هذا العلم وتعاليمه لتلميذه المبتدئ ليشجعه على دراسة علمية صحيحة. ولقد تأثرت الأيسجوجية بالبلاغة الرواقية تأثراً كبيراً خاصة فى تطور تخطيطها وفى تقسيمها بل تعتبر الأيسجوجيات أمثلة للإنتقال من البلاغة الرواقية إلى فن معين أو علم تعالج فيه نظريات مصوغة لهذا الفن أو العلم.

ويرى بعض الكتاب والنقاد أن «فن الشعر» بحث، ولقد كان لهذا الإعتبارأثر كبير فى توجيه نقد قاس لهوراتيوس فى القرن السادس عشر والثامن عشر فقدكان لزاماً أن تتوج هذه القصيدة نتاج هوراتيوس الأدبى بهالة من فنه الرائع وأن تكون مرآة تعكس نضوجه الفكرى وتجاربه وأن يطبق عليها تلك القواعد التى أملاها على غيره فى التأليف فهى فى نظرهم مفككة الأجزاء وليست بحثاً منظماً لا على الشعر عامة ولا على الشعر المسرحى خاصة يسودها الشرود والإسهاب. ولم يفتقد هوراتيوس فى تلك القرون من يدافع عنه فقام المعجبون بكتاباته ونادوا بأن هوراتيوس لم يقصد كتابة بحث عن الشعر عامة أوالشعر المسرحى خاصة وما هى إلا ملحوظات قليلة دونها لصديق لينتفع بها فهدموا بذلك أساس الإتهام وإن لم يتمكنوا من الدفاع عن جميع المآخذ التى وصمت بها فمازال النقد مسلطاً عليها فى العصر الحديث حتى لدى المعتدلين من النقاد أمثال سانتسبرى.

يقول سانتسبرى فى هذا الصدد «وواضح أنه لا يليق بنا أن نضع عليه

سرجاً ملتاثاً بالاستنباط والتعليقات التى نسبها إليه نقاد القرن السادس عشر والثامن عشر والتى أثقلوه بها فكثيراً من الأحيان لا يستحق هوراتيوس منهم هذا الموقف ولم يكن سبباً فى إثارتها ولكن رغم هذا التساهل العادل الكريم تتعرض القطعة لنقد شديد. أولاً إن عدم ارتباط الموضوع مبالغ فيه وفيه نوع من الإسراف ويجب أن نسمح بحرية من هذه الناحية لمن يمزج بين النافع والضار بواسطة شعر تعليمى ولكت أية حرية نعطيها لهوراتيوس لن تكفى لتغطية طريقته التى يمكن تسميتها باللاطريقة[1] ». ووجه بروكس نقده على هوراتيوس لافى فن الشعر فحسب بل فى كثير من كتاباته الأخرى فهو يرى أن أجزاء من هذه الكتابات لا تتأثر بالنظريات والقوانين التى نادى بها إذ أن هوراتيوس ينسى نفسه كصاحب نظريات نقدية ويتمسك بأى لون من النفع فى كتابة Apologia Poetae وعلى هذا فقد عرض بروكس نظريات هوراتيوس وبين مافيها من مرونة أو مآخذ.

والرأى الأخير فى نوع تأليف «فن الشعر» هو الذى نادى به المتحمسون لهوراتيوس والمعتدلون من النقاد فهى فى نظرهم رسالة أهداها إلى صديق له من آل بيزو لينتفع بها ربما ليحذره من كتابة شعر أو مسرحية تتفق وقوانين الدراما الساتورية الإغريقية إذ أنها محاولة غير مجدية[2] وقد انتهز هوراتيوس

(١) راجع: Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste, Page 224

(٢) كان الشعر المسرحى منتشراً فى عصر أغوسطوس ولكن المحاولات التى قام بها المؤلفون فشلت ولم تكتب سوى مسرحيات عقيمة مقلدة عن الاغريق هذا لأن لغة العصر الاوغسطى والحياة فيه لم تناسبه كما ذكر الاستاذ أ. دالتون فى «فن الشعر» ولم يصلنا من هذه المسرحيات سوى أجزاء للكاتب Varius .

راجع: .A Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica Pages (50-51)

هذه الفرصة لينقذ الكثير من المسائل الأدبية وليجمع الكثير من قواعد النقد والقوانين المعروفة حينئذ.

ولم يتفق علماء هذا العصر على من قصده هوراتيوس بهذا الإهداء فقد كانت فى عصر هوراتيوس أسرتان باسم Piso: الأولى أسرة Lucius Calpurnins Piso الذى ولد عام ٤٨ق.م وكان قنصلاً عام ١٥ق.م ولديه Gaius , Lucius والثانية أسرة Gnaius Piso الذى كان له ابن واحد أرسله الإمبراطور Tiberius إلى سوريا عام ١٧م وانقسم الشراح والعلماء إلى قسمين فمنهم من يزعم أنها الأسرة الأولى ومنهم من يفضل القول بأنها الأسرة الثانية ولكل منهم أدلة لا تصل إلى درجة اليقين والراجح أنها أهديت لآل Lucius Calpurnius Piso لعدة أسباب: كان لعائل هذه الأسرة ولدان ولعائل الأسرة الثانية ولد واحد فلا ينطبق عليه نداء هوراتيوس حين يقول Omaior invenum، ولقد عرف أيضاً عن الابن الأكبر Lucius Calpurnius الاشتغال بالأدب فقد أراد أن يكتب مسرحية لها أساس هوميرى. أما ابن Gnaius Piso فكان يشتغل بالسياسة فمن غير المعقول أن يهدى هوراتيوس قصيدته لرجل لا يعنى بالتأليف وقد نادى بهذا الرأى بورفيريون[1] فى القرن الثالث الميلادى فى شرحه وتعليقه لفن الشعر وقد عزز أيضاً هذا الرأى فى العصور الحديثة بإكتشاف أجزاء محترقة من البردى[2] فى Herculaneum فى منزل Lucius Calpurnius Piso تحتوى على

(١) P.Porphyrion كان عالماً فى أوائل القرن الثالث الميلادى كتب شرحاً وتعليقاً على كتابات هوراتيوس مازال محفوظاً إلى وقتنا هذا فى نسخة A. Holder 1894 وإن لم يكن فى صورته الأصلية. راجع: The Oxford. Classical. Dictionary (Reprinted) 1950 page 719

(٢) اكتشف (C.Jensen) فقرات من كتابات نيو بتوليموس فى سياق كتابات فيلوديموس وقد نشرت عدة مرات وأول نشر لها كان فى "Cramer's Anecdota e. g, by Dübeer, p. XXVI" ولم يتح لى الإطلاع على المراجع الأصلية لعدم وجودها ولكن راجع: H. J. Rose, A Hand Book of Greek Literature page 400 ootnote 17 & 18.

كتاب عن الشعر للفيلسوف الأبيقورى Philodemus لخص فيه آراء Neop-tolemus الكاتب المشائى من بلده باريوم فى بيثينيا، وقد سهل هذا الاكتشاف على المؤرخين أن يتخيلوا هوراتيوس عضواً فى نخبة من مجتمع أدبى يحضر إلى مدرسة الحديقة فى نابولى حيث كان Philodemus أستاذاً أو يجتمع به فى منزل Lucius Piso فى حلقة من الأدباء والشعراء أمثال فرجليوس وجاللوس ليناقشوه فى المذاهب الفلسفية المعارضة للأبيقورية والنفعية المشائية.

وقد أكد اكتشاف هذا البردى أيضاً الصلة التى ذكرها Porphyrion بين اراء هوراتيوس فى فن الشعر وآراء Neoptolemus فى تعليقه المعروف الذى لم يكن واضحاً قبل هذا الاكتشاف "Horatius Congessit praecepta Neop-tolemi" .

ولو درسنا فن الشعر بإمعان لنحدد نوع تأليفه نجد أن هوراتيوس لم يكتب من الوجهة الشكلية بحثاً عن الشعر وقوانينه أوتاريخه وإن كان قد تكلم عن الشاعر والشعر وتاريخه وأنواعه وما عالجه كل نوع من موضوعات وما يتصل به من وزن ونغم إلخ ولم يكتب أيساجوجية ينطبق عليها تعريف نوردن انطباقاً كاملاً فجعل من نفسه إما استاذاً يسأل فيجيبه تلميذه الناشئ أو يعلمه أصول الشعر وقوانينه، بل كتب رسالة إلى صديق تنصف ببعض مميزات الأيسجوجية وخصائصها وتخضع كما بين العلماء والنقاد أمثال بروكس لتقسيم واضح المعالم متأثر إلى حد كبير بتقسيم نيوبتوليموس البارى، فقد بدأ فنالشعر بنداء أصدقائه «آل بيزو» على نهج رسائله التى يهديها إلى ميكيناس وأغوسطوس وفالا وغير أولئك من الأسماء المعروفة لدى قرائه، أو كرر النداء فى ثلاثة مواضع أخرى حتى لا يفقد شكلية الرسالة لطول القطعة.

أما وسط الرسالة فهو استرسال فى سرد ملاحظات أدبية أو هو تاريخ لأنواع من الشعر وخصائص كل منها وما يتعلق بها من وزن ونغم وكلمات وقوانين أو نظريات، قد ينتقل المؤلف من جزء إلى جزء فى شئ من التفكك الظاهرى، أو بإهمال جذاب مفرح بدون طريقة معينة ليقودنا إلى معنى من المعانى كما لو كان المرء يكتب أخباراً لصديق فيقدم جزءاً ويؤخر آخر دون أن يفكر كثيراً فى صلة أحدهما بالآخر.

أما نهاية فن الشعر فهى لوحة رائعة للشاعر المجنون ومصرع أمبودوكليس(١) ، ولو قورنت هذه النهاية بكثير من رسائل هوراتيوس وأجياته نجد تشابهاً كبيراً بينها وبين نهايات كثير من الرسائل والأهجيات، فهى إما حوار أو وصف لاذع يرمى إلى مغزى معين أو فكرة أو رأى ناقشة فى الأهجية أو الرسالة يعززه فى النهاية بهذا الحوار أو الوصف ليأخذ أو ليقتنع به قارئه بطريقة تلقائية إن أراد ذلك دون فرض أو إملاء.

وأعتقد أن هوراتيوس قصد بإنهاء قصيدته بهذا الوصف ليسخر من المتشاعرين الذين يعتقدون فى أنفسهم الموهبة الشعرية ويرون أن مظهر هذه الموهبة لا يتم إلا بعدم إغتسالهم وعدم حلق ذقونهم وبالإلتجاء إلى الأماكن المنعزلة فبدون ذلك كله لا ينزل الوحى عليهم وقد يندفعون فى التأمل والتحديق

---

(١) أمبودوكليس. فيلسوف وعالم وشاعر وخطيب ولد فى صقلية فى الجزء الأول من القرن الخامس ق.م. وقد اهتم بعلم الحياة والطب والطبيعيات واكتشف أن الهواء عنصر يتميز عن الفراغ المحيط بالكائنات واشتهر امبودوكليس بإرجاع المظاهر الطبيعية إلى أربعة عناصر أساسية هى: التراب - والهواء - النار - الماء. راجع: P. Harvey

The Oxford Companion to Classical Literature page 158 & The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 314.

لدرجة الوقوع فى بئر أو هوة فلا يجدون من ينتزعهم منها، ويؤدى شرودهم المفتعل إلى مصير محتوم. وقد يكون الشاعر جن حقاً بموهبته ونسى نفسه فلقى حتفه وقد يكون فى كامل وعيه فيدفع نفسه إلى الموت دفعاً ليخلد اسمه بميتة خالدة كما يسميها هوراتيوس، هذا كما فعل الفيلسوف امبودوكليس الذى رمى نفسه وهو هادئ الأعصاب فى بركان يحترق.

فهوراتيوس يسخر بهذه اللوحة من الإدعاء الذى قد يؤدى إلى الموت أو الموهبة التى قد تؤدى إلى الجنون والموت معاً ويطلب من الشاعر الموهوب أن ينمى موهبته ويصقلها بالدرس والتحصيل والتمرين فتأتى ثمارها شعراً ناضجاً يبلغ درجة الكمال. «فن الشعر» فى نظرى رسالة وقد سميت قديماً باسم «رسال إلى آل بيزو» ولم تعرف باسمها الحديث إلا فى عهد كونليانوس الذى اطلق عليها هذه التسمية. ولهذه التسمية مغزاها من رجل له مركزه فى البلاغة والنقد فلاشك أن محتويات الرسالة دفعت كونتليانوس إلى رفعها إلى مستوى البحث العلمى فى فن الشعر فنوه به بهذه التسمية تمييزاً لها عن بقية أهجيات هوراتيوس ورسائله النقدية المعروفة. والواقع أن «فن الشعر كان تتمة لما بدأه هوراتيوس من إشارات ومحاولات للنقد صاغها فى رسالة كما صاغ آراءه الأخرى فى رسائل وأهجيات من قبل فهى لا تتميز من الناحية الشكلية أوالمدلول عن بقية الرسائل فى هذا الصدد إلا أنها أكثر طولاً.

أما خصائص الأيسجوجية التى رآها فيسك فهى:

١- استعمال المخاطب الذى يقصد به النوع.

٢- التدريس بالقدوة أو بالأمثلة الشخصية.

٣- حديث هوراتيوس عن مثله العليا بإلحاح تعليمى يراه فيسك فى تكرار

كلمة Ego ثم الإلحاح والتشديد على ممارسة أى فن أو علم بالدراسة أكثر من الإعتماد على المواهب الطبيعية التى ضرب لها عدة أمثلة وعززها بوصف هوراتيوس الساخر للشاعر المجنون كل هذا رغم وضوحه فى القصيدة لا يبرر هذه التسمية، ويمكن الرد على الاستاذ فيسك بسهولة، فهى أولاً تفتقد فى شكليتها حوار الاستاذ وتلميذه والسيطرة العقلية، ثم إن هوراتيوس وإن كان فى الواقع يملى قوانينه على صديقه ويعلمها للناس أجمع إلا أنه حاول إيجاد جو من الود والاحترام العميق ولم ينس مركزه الاجتماعى الوضيع الذى عانى منه الكثير فى بدء حياته وبعد اتصاله بميكناس، ذلك المركز الذى لايسمح له بمخاطبة آل بيزو ذوى المكانة البارزة بأسلوب المعلم رغم الصداقة القائمة بينه وبينهم.

ولو رجعنا إلى المواضع الأربعة التى نادى فيها هوراتيوس آل بيزو نجد أنه استعمل فى الموضع الأول صيغة الجمع للاسم Piso تأدباً ووصفهم بأصدقائه «فهل تمتنعون يا أصدقائى، عن الضحك؟ صدقونى يا ال بيزو، إن الكتاب ذو خيالات فارغة...[١]».

فلا يمكن أن يتخذ من آل بيزو جميعاً تلاميذ، ولم يكن الأب على الزقل فى حاجة إلى تلمذته رغم اهتمامه بالأدب إذ كان قنصلاً ثم بروقنصل.

وفى الموضع الثانى استعمل صيغة الجمع للاسم Piso أيضاً وأظهر تقديره لهم. يقول هوراتيوس «إن جمهرتنا نحن الشعراء[٢] ، يأيهاالزب ويزيها الأبناء الجديرون بهذا الأب نخدع أنفسنا بما هو شبيه بالحقيقة».

(١) مقدمة النص (٥ - ٦).
(٢) (٢٤ - ٢٥)

وفى الموضع الثالث استعمل صيغة الجمع من جهة ومن جهة أخرى جعل النصح منسوباً إلى شخصه «أما عن نفسى يا آل بيزو فلو أننى كتبت ساتيرات فلن أحب الكلمات الشائعة السائدة ولن أحاول الابتعاد عن اللون التراجيدى[١]».

وفى الموضع الأخير الذى فرد فيه النداء لأكبر الشبان راعى فى هذا الإفراد أن يكون ممزوجاً بالتقدير العميق[٢]:

«يا أكبر الشبان سنأخذ هذا القول واذكره رغم ذكائك الذى شحذته التجارب وطورته المعرفة ورغم صوت أبيك الذى أعدك للحق».

(ثانياً) استعمال المخاطب الذى يقصد به النوع لازمة من لزوم اسلوب هوراتيوس المعروفة فى كتاباته فالأهجيات مليئة بهذا النوع من الاستعمال. والتدريس بالقدوة وبالأمثلة الشخصية هى عادة أيضاً عند هوراتيوس أخذها عن أبيه الذى كان يعتبره المدرس الأول له والمقوم لأخلاقه والحارس الأمين على عقليته وقد تحدث عنها هوراتيوس بصراحة[٣] وقد حذا هوراتيوس حذو أبيه فكان ينقد الحياة بإبراز مافيها من عيوب اجتماعية بأمثلة حية، ولما كتب فن الشعر لم يتمكن من التخلص من هذه العادة التى كانت منذ طفولته جزءاً لا يتجزأ منحياته.

أما ما ذكره فيسك من تشديد على ممارسة أى فن أوعلم بالدراسة والذى عززه بلوحة الشاعر المجنون فهذا مالا أفهمه من عالمنا، فالسبب فى كتابة هذه

---

(١) (٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) فن الشعر (٣٦٦ - ٣٦٨).

(٣) فى الهجاء الرابع من الكتاب الأول سطر ١٠٣ إلخ، وفى الهجاء السادس من نفس الكتاب سطر ٨١ إلخ.

القصيدة لم يكن للمتعة فقط بل كان للنفع، والغرض منها أن يهتم الفنان أكان شاعراً أم غير شاعر بتعرف أصول فنه وقوانينه بالدراسة والتحصيل ولم يقصد بهذا هوراتيوس أن يشدد على الدراسة لتفوق أهميتها على الموهبة، فالموهبة الفطرية إما موجودة أومعدومة ولايستطيع هوراتيوس أو غيره من الناس أن يعززها ومن وجهة أخرى لم يعزز هوراتيوس الدراسة على الموهبة الفطرية فهو يقول إن كليهما فى حاجة إلى الآخر ولابد من اجتماعهما فى تآلف وود وكلمات[١] هوراتيوس فى هذا الصدد واضحة لاجدال فيها.

وصورة الشاعر المجنون وإن كانت تعزز الدراسة ضمناً فلها مغزى تهكمى أراد به السخرية من المتشاعرين والمجانين من الشعراء، فجميع خصائص الأيسجوجية التى ذكرها فيسك أو معظمها على الأقل ملحوظ فى عدد كبير من أهجيات هوراتيوس ومع ذلك لايمكن تسميتها بالايسجوجيات، ولعل طبيعة موضوع هذه القصيدة دفعته إلى الإكثار من هذه اللوازم فهى قوانين ونظريات جمعها لعصره وللأجيال القادمة.

ففن الشعر إذن خطاب من الناحية الشكلية، أما موضوعه فهو قوانين للشعر والشعراء ثم مشكلات [illegible]ية أثارها النقاد قديماً وحديثاً عرضها هوراتيوس دون مقدمات، يقول: إن تمثيل الفن وتصويره مثل تصوير الطبيعة يجب أن يتميز بالإنسجام بين الأجزاء، فعلى الشاعر ألا يصل أى شئ بآخر لا ينسجم معه، قد يعترض ويقول: إن الرسامين والشعراء يتمتعون بحرية الخيال وهذا حق مكتسب، ولكن يجب مراعاة الدقة والإعتدال فى استعمال هذا الحق. وفى محاولة القيام بشئ صحيح تقع الأخطاء، فالغموض ينتج عن الإيجاز كما ينتج

(١) (٤٠٨ - ٤١١).

الاستطراد عن الإسهاب – على الشاعر أن يختار موضوعاً مناسباً لقدرته. أما الكلمات فالحكم فيها هوالاستعمال فقد يحيى الاستعمال كلمات قديمة وقد يميت كلمات لها عزة وزهو. وهناك أوزان للأنواع المختلفة من الشعر سبق أن اتفق عليها وإن كنا لا نعرف أحياناً مخترعها، فالبحر السداسى التفعلية للقصص ومخترعه هو هوميروس، والإيلجية تعبر عن الشكوى ولانعرف مخترعها والأيامب للهجاء ومخترعه هو أرخيلوخوس وقد استعمل بعد ذلك للتراجيديا والكوميديا، والشعر الغنائى لقصص الآلهة، ثم لكل شخصية أسلوبها وخصائصها وعلينا ألا نضيف ألواناً جديدة على شخصيات أبطال صورهم التقليد على نحو معين مثل أخيليس وعلى الكاتب ألا يسرف فى الموضوعات المألوفة وإذا ابتكر شخصية جديدة فلتكن متكاملة والأفضل التمسك بالقديم، وعلى الشاعر ألا يبدأ بطريقة مفخمة بل ليسرع إلى موضوعه كما لو كان معروفاً، لكل سن خصائص لابد من دراستها حتى لايسند إلى الصبى دور الشاب أو إلى الشاب دور الشيخ، وحوادث المسرحية إما أن تروى وإما أن تمثل وما يرى على المسرح أوقع مما يسمح ولكن على الشاعر ألا يأتى بالأشياء البغيضة إلى النفس أمام الجمهور، ولتكن المسرحية من خمسة فصول، وعلى الشاعر ألا ينزل الإله إلا لحل العقدة وألا يشترك فى الحوار أكثر من ثلاث شخصيات، لينحاز الكورس للخير وينبغى ألا يغنى بين الفصول.

إن الموسيقى تطورت وتطورت القيثارة والناى تبعاً لذلك، على أنه يمكن الجمع فى العرض بين الدراما الساترية وبين التراجيديا دون المزج بينهما للترفيه والتسلية من جهة ولكيلا يستغل ابطال التراجيديا فى القيام بالأدوار الهزلية من جهة أخرى. ثم عرض لأوزان الشعر ومواضع استعمال كل منها

وملاحظات على النقاد والشعراء: إن بعض النقاد لا يميز بين الشعر الردي الموسيقى وسليمها، وإن شعراء الرومان يمتازون بحرية غير محمودة فى كتاباتهم والشاعر فى حيرة بين ذلك كله فأين يقف من هذه الحرية أيخطئ فيغفر له النقاد أم يعمل فى حذر فيتجنب اللوم؟

وللشعر أنواع ولكل نوع مخترع وتاريخ، لقد اخترع Thespis التراجيديا ومثل قصائده على عربات رجال صبغت وجوههم بحثالة النبيذ وجاء بعده Eschylus واستعمل القناع فى التمثيل وغطى المسرح بألواح خشبية. ثم تبعت الكوميديا القديمة التراجيديا ولم يعوزها المديح والإطراء. والواقع أن شعراء الرومان عالجوا كل أنواع الشعر ولم يكن هذا نجاح، ولو أن كل شاعر اهتم بصقل عمله لتفوقت روما فى الأدب كما تفوقت فى الحرب.

إن خروج الشعراء فى حياتهم عن مألوف الناس والمغالاة فى ذلك الخروج سخف، ولئن لم يتمكن هو من تأليف شعر فإنه سيلعم الآخرين كيف يؤلفونه، فعلى الشاعر أن يهتم بموضوعه ويجب أن يهدف شعره للمتعة والتعليم وألا يكتب مبالغات وغرائب – وعلى الشاعر أن يتجنب الخطأ وإن كان الخطأ الناتج عن الطبيعة أو عن ضخامة العمل الفنى مغفوراً. وليكن الأسلوب مناسباً للموضوع خالياً من الكلمات الزائدة عن الحاجة، ولا يعترف بالشعر الوسط عند الشعراء، وينبغى صقل أعمالهم، والتأنى فى نشرها، وللشعراء تاريخ مجيد وموقف مشرف. أورفيوس، أمفيون، هوميروس، ترتايوس سجل لهم التاريخ عظمتهم. شرط القصيدة الناجحة أهو الموهبة الطبيعية، أم الفن ومن يكون الناقد وما أهمية هذا النقد؟ وتنتهى القصيدة بلوحة رائعة للشاعر المجنون ومصرع امبدوكليس.

ومن هذا الملخص يمكن تقسيم فن الشعر إلى تقسيم واضح المعالم.

الجزء الأول (١ - ٧٢) يعالج تأليف الشعر وموضوعاته والصفات العامة التى تخص القصيدة وروابطها العامة.

أما الجزء الثانى (٧٣ - ٢٩٤) فيعرض للأنواع الأدبية المختلفة تاريخها وقوانينها وشكل القصيدة.

الجزء الثالث (٢٩٥ - ٤٧٦) يحدثنا عن بعض نكت الشعراء ويعطى نصحاً لما يجب أن يفعله الشاعر وما ينبغى ألا يفعله وهذا الجزء يمثل بدوره مزيجاً من مجموعة آراء عن الشاعر.

وقد يظهر من ملخص القصيدة بعض التفكك الذى اتهم به هوراتيوس ولكن لو درسنا القصيدة بعناية لرأينا أن التفكك الذى وصفت به ظاهرى فى كثير من المواقع ويمكن إرجاعه إلى أكثر من سبب.

(أولا) كان هوراتيوس يسرد قوانين وملاحظات عن الشعر والشعراء أو يناقش رأياً يمت إليهما بصلة فإذا قدم قانوناً وأخر آخر فلن يمس هذا التقديم أو التأخير الجوهر.

(ثانيا) إن إسلوب هوراتيوس الحى الملئ بالصور والأمثلة يؤدى فى كثير من الأحيان إلى بعض الشرود عن الفكرة الأساسية لقارئ غير حريص على تتبع أفكاره، فهوراتيوس يطلب عادة من قارئه أن يستنبط لنفسه العلاقات الباطنة ويصل هذه الصورة الحية المتتابعة بروابط عقلية ويستنتج وشأنه فى هذا شأن جوفنال الذى تنازل فيه النقاد والعلماء قديماً وحديثاً ووصفوا كتاباته بأنها لا ترتفع عن مستوى موضوعات البلاغة

المدرسية وكاد البعض ينتزع منه لقب الشاعر ومع ذلك أثبت[1] البحث الحديث عظمة جوفنال ونبوغه وبين طريقة تأليفه التى لها تركيب ظاهرى مفكك تربطه صلات من باطن المعنى.

وقد أضافت قوانين الشعر وقيوده شيئاً من هذا التفكك، فقصيدة فن الشعر خضعت لوزن ونغم وتفعيله وما إلى آخر ذلك من شروط علم العروض فمهما بلغت قوة هوراتيوس على التعبير والترتيب فهو لا يستطيع أن يرتب أفكاره أو يرسلها كما يرتب الناثر كلماته.

ورغم هذا النقد، لفن الشعر قيمة علمية كبرى فهى مرجع رومانى هام لا يمكن الإستغناء عنه ولولاه لفقد العلم الحديث حلقة هامة من تاريخ النقد القديم. ولم يخترع هوراتيوس جميع القوانين التى ذكرها فى فن الشعر ولم يؤرخ تاريخاً لأنواع الشعر غير معروف، ولم يخلق مشكلات تمت للأدب أو الشعر بصلة غير معروفة بل استقى كل هذا من نحويى الإغريق ونقادهم القدامى وعن فلاسفتهم أمثال أرسطو وتأثر بهم تأثراً واضحاً كما تأثر بصفة خاصة بنيوبتوليموس وردد أقوال غيره من كتاب الرومان وشعرائهم أمثال يلوتوس وترنتيوس وشيشرون وكثير من الأدباء والنقاد المعاصرين.

وقد اهتم علماء العصر الحديث وشراح نصوص هوراتيوس بدراسة هذه القوانين وردوها إلى أصولها وبينوا مدى تأثير هوراتيوس بهذه الأصول، كما عالج نقاد العصر الحديث نظرياته وقارنوا بينه وبين القديم، فقد قارن بروكس مثلاً بين فن الشعر لهوراتيوس وكتاب الشعر لأرسطو وقال إن هناك فرقاً بين فن الشعر وكتاب الشعر لأرسطو من ناحية تأثيرهما الأخلاقى والميتافيزيقى كما

(١) رسالة الدكتوراه للمؤلف جامعة لندن ١٩٥٥ .The Structure of Juvenal's Satires

يوجد هذا الفرق فى فايدروس أفلاطون فيما يتصل بهذا التأثير.

وقد ذكر بروكس أيضاً الصلة القائمة بين فن الشعر لهوراتيوس وبين اراء نيوبتوليموس ووصل إلى أنه تأثر به كثيراً ولم يتزثر بكتابات فيلوديموس الفيلسوف الزبقورى. وبّين فيسك وجه الشبه بين فن الشعر لهوراتيوس وبين الكتاب السادس والعشرين للوكيليوس فى تخطيطهما البلاغى كما بين مدى تأثره العميق بشيشرون فهو يرى تشابهاً فى معالجة الموضوع بين الخطيب «وفن الخطابة» لشيشرون وبين الشاعر «وفن الشعر» والواقع أن هوراتيوس يهدف إلى الجانب المثالى من الشعر كما يهدف شيشرون إلى الجانب المثالى للخطابة.

تلك هى بعض آراء العلماء الذين تتبعوا آثار هوراتيوس فدرسوها وأصدروا عليها أحكاماً استقرءوها من دراساتهم الطويلة أما مركز هوراتيوس فى حياة النقد الأدبى الذى يمثله كتابه فن الشعر ورسائله وأهجياته النقدية فلا يمكن للمرء أن يتجاهلها ولم يكن هوراتيوس ناقلاً كالعبد الذى لا يحيد شعره عن حرفية ما ينقل ولم يكن جامعاً فقط لما ذكره القدماء المعاصرون، بل ناقش وسخر وأفاض ثم ابرز آراءه مشعلاً ينير الطريق فى لغة تفيض بالقوة والحيوية، ولم ينتقص نقل هوراتيوس لهذه الآراء أو مناقشته لما هو معروف، مركز هوراتيوس كناقد، فهو كغيره من كتاب تلك العصور يتخذ لنفسه فى كل لون من ألوان الكتابة نموذجاً يحتذيه فكما نعرف جميعاً اتخذ لوكيليوس نموذجاً له فى الهجاء وأرخلوكوس نموذجاً لأناشيد الايبودوسافو وألكايوس نموذجاً لشعره الغنائى وفى فن الشعر لم يجد نموذجاً واحداً يفى حاجته فرجع إلى الإغريق نحوييهم ونقادهم وفلاسفتهم بصفة عامة وإلى نيوبتولوموس بصفة خاصة وإلى الحياة الأدبية المعاصرة فاستفاد مما كتب قديماً وحديثاً واكسب كل ذلك ملكية خاصة به وبعض

نصوص هوراتيوس النقدية تعرض آراه الخاصة فى الصورة الأدبية التى كانت شائعة فى عصره والتى كان الأدباء والفنانون يتخذونها وسائل التعبير عن آرائهم وإنتقاداتهم وتصويرهم للحياة فى مظاهرها المختلفة، ثم إن هوراتيوس لم يغفل المشاركة فى المشكلات الأدبية والفنية التى كانت تتنازع فى عصره والتى كان يختلف فيها النقد والأدباء فيتخذ كل منهما موقفاً خاصاً يمثل وجهة نظره، فهل الهجاء شعر أم نثروما صلة الهجاء بالمسرحية وما صلته بالمجتمع؟ ثم ما مقدار الحرية التى يمنحها المجتمع لشاعر الهجاء؟ وما مقدار الحرية التى تمنح للشعر فى صوغ الكلمات الجديدة؟ والخطأ أمغتفر أم غيرمغتفر؟ والشعر الوسط هل يعترف به؟ إلى آخر ذلك فهوراتيوس فى الواقع يكون جزءاً هاماً من تاريخ النقد القديم.



النــص



١- إذا أراد رسام أن يصل رأساً آدمياً برقبة فرس وينثر ريشاً مختلف الألوان على أعضاء جمعت من هنا وهناك فإنه ينتج صورة كما لو كانت صورة لأمرأة نصفها الأعلى جميل وينتهى نصفها الأسفل بسمكة سوداء فلو أنكم دعيتم لمشاهدة هذا المنظر فهل تمتنعون.

٥- يا أصدقائى، عن الضحك؟ صدقونى يا آل بيزو إن الكتاب ذو خيالات فارغة كأحلام المريض، شبيه بهذه اللوحة التى رسمت بشكل لا يمت فيها أجزاؤها كالرأس أو الرجل مثلاً لشكل واحد قد تقول إن كلا من الرسام والشاعر يتمتع بحرية متساوية

(١) لا تتفق مع المترجم الإنجليزى H. R. Fairclough. Horace. Satires & Ars Poetica الذى ترجم "ut" ب "So that" وقال:

"If a painter chose to join a human head to the neck of a horse and to spread feathers of many a hue over limbs ... so that what at the top is a lovely woman ends below in a black & ugly fish".

ولقد ترجمنا بدورنا ut بمعنى utsi حتى نفهم التشابه الذى أراد أن يظهره الشاعر وهو الخلط الكثيب فى كل من الصورتين وحتى تكون الصورة الثانية مؤكدة للأولى فى عدم التجانس فقط أما Sothat فقد جعلت الصورة الثانية نتيجة للأولى وهذا غير معقول. ولقد سببت هذه المقدمة كثيراً من الصعوبات ولعل ترجمتنا هذه تزيل شيئاً من صعوباتها. أما عن تفسير desinat النحوى وهو استعمال صيغة السبجونتيف للمضارع بدلاً من الماضى المستمر أو الماضى الأتم فإنى أورد كلمات A. Hand-ford لأعزز هذا الرأى:

Most of the conjunctions employed in these clauses (clauses of conditional comparisons) are compounded with si quam si, quasi (formed from quam si), ut si ac si .. In particular, when a comparative clause having "unreal" force is combined with governing clause referring to the present or future, (the unreality) is by no with unreality-the imperfect and pluperfect, instead, the subordinate verb often remains (in sequence) ie present or perfect subjunctive is used. "S. A. Hanford, The Latin Subjunctive (Methuen & Co. London.)page 134.

على هذا القياس نجد هنا استعمال المضارع الذى كان معروفاً وشائعاً منذ أقدم عصور الأدب.

١٠- فى محاولة ما يشاء ونحن نعرف هذا الحق ونطلب هذه الحرية ونمنحها
بدورنا لغيرنا ولكن على ألا تستعمل بالدرجة التى تمزج فى تصويرنا
الوحوش الكاسرة والحيوانات المستأنسة أو بالدرجة التى نجعل فيها الثعابين
تتآلف مع الطيور والأحمال مع النمور.

١٥- إن المؤلفات القيمة التى تبشر بجلائل ثمارها ترصع فى كثير من الأحيان
هنا أو هناك برقعة بنفسجية لكى تعطى لها بريقاً يمتد إلى آفاق واسعة
(كذلك البريق الذى تضيفه) حين تصور غابة ديانا ومذبحها والتواء مياه
النهر السريع بين الحقول الجميلة أو حين تصور نهر الراين وقوس قزح.
لقد كان هناك متسع لهذه الموضوعات أما الان فلا يوجد لها مكان. قد
يعرف المرء صدفة كيف يقلد شجرة السرو ولكن ماذا يفعل لو دفع له أجر

٢٠- ليصور بحاراً يعوم بيأس بعد أن تحطمت سفينته؟ يبدأ صنع الأوانى
الفخارية بتشكيل دن كبير للخمر ولكن حين تدور عجلة الاسطوانية لم لا
ينتج غير ابريق صغير؟ بالإختصار ليقم المرء بأى عمل يشاء على أن
يكون على الأقل بسيطاً ومتكاملاً.
إن جمهرتنا نحن الشعراء، يأيها الأب ويأيها الأبناء الجديرون بهذا الأب
نخدع أنفسنا بما هو شبيه بالحقيقة أحاول (كشاعر)

٢٥- أن أوجز وإذ بى اصبح غامضاً أحاول أن اصقل فتخوننى الروح والروابط.
ويعد المرء بجلائل الأعمال وبدلاً من ذلك لا ينتج سوى كلمات جوفاء.
ومن يحذر الإعصار ويخاف منه خوفاً شديداً يزحف على الأرض ومن
يريد أن ينوع الموضوع الواحد بطريقة خارقة يرسم الدولفين فى الغابة

٣٠- والخنزير المتوحش فوق الأمواج. فتجنب خطأ من الأخطاء يقود المرء إلى

رذيلة من الرذائل هذا إذا كان الفن يعوزه.

بالقرب من مدرسة أيميليوس يعيش صانع ردئ يشكل من البرن أظافر ويقلد جدائل ناعمة ولكنه غير موفق فى نتيجة عمله النهائية لأنه لا

٣٥- يعرف كيف يصوغ شيئاً كلياً. فلو عنيت أن أؤلف شيئاً فإن لا أرغب أن أكون هذا الرجل أكثر من أن أعيش بأنف معوج ولو كان لى عينان سوداوان جديرتان بالنظر إليهما والإعجاب بهما ولو كان لى شعر أسود حقيق بالتطلع إليه. فيأيها الكتاب، اختاروا موضوعاً معادلاً لقوتكم ونقبوا

٤٠- طويلاً فيما تستطيع أكتافكم أن تتحمله أو تنوء به. فمن يختر موضوعاً فى حدود طاقته فلن تعوزه خصوبة التعبير أو وضوح الترتيب. إن لم أكن مخطئاً، إن للترتيب هذه الفضيلة وهذه الجاذبية وهى أن كاتب القصيدة الموعودة يقول مايجب أن يقال فى التو ويؤجل معظم الأشياء إلى وقت آخر ويترك أشياء أخرى

٤٥- لا يحسن قولها حينئذ مفضلاً هذا القول أو متجاهلاً تلك العبارة.

وإذا كان المرء حريصاً ورقيقاً فى نسج الكلمات فهو يعبر بطريقة فذة، هذا إذا جعل الشئ المألوف جديداً بمهارته فى نظم الكلمات.

وإذا تصادف أن اضطر الإنسان إلى أن يشرح مفاهيم خفية للأشياء بمدلولات حديثة ويصنع كلمات لم يسمع بها الكثيجيون[١]

٥٠- الذين يرتدون أردية منطقة بحزام فى الوسط، فسوف تعطى له (حرية

(١) ترجمة لكلمة Cethegi وهم مثل من أمثلة المتخلفين عن عصرهم فى الذوق والملبس فبدلاً من أن يرتدوا التونيكا tunica فقد ارتدوا الكينكتوس Chinctus وهو رداء يصل إلى الأقدام بدون أكام وبواسطة حزام. راجع:

A. Dalton, Horace, Epodes and ars poetica, notes page 59.

القيام بهذا العمل) إذا استعمله بحكمة.

وستكتب الكلمات الجديدة والتى صنعت حديثاً ثقة، لو أنها انحدرت من نبع إغريقى وأخذت منه بتحفظ. لم لا؟ ولم يعطى الرومات هذا الحق

٥٥- لكايكيلوس وبلوتوس ويضنون به على فرجيليوس وفاريوس؟ ولم أحسدعلى إضاف كلمات قليلة، لو أن فى استطاعتى هذه الإضافة وقد اكسبت فيه لغة كاتو وإنيوس لغة الوطن ثروة وغنى وجلبت اسماء جديدة للأشياء؟

لقد أحل للكتاب فى الأزمنة الغابرة أن يطبعوا الأسماء بطابع حديث وسوف يباح لهم هذا الحق فى المستقبل كذلك. إن الكلمات كورق الشجر

٦٠- فى الغابات فكما تسقط الأوراق التى تذبل أولاً قبل غيرها كلما تقرب السنة من الأفول كذلك الكلمات فإن أقدمها عمراً يزول، وتزهو وتقوى الكلمات الحديثة الولادة على نمط صغار البشر.

كتب علينا الموت وكتب على أشيائنا الفناء سواء أنزل نبتونوس[١] ضيفاً على الأرض وحمى الأساطيل من الرياح الشمالية أم

٦٥-لم ينزل، فالموت عمل إلهى، وما هو فان سيفنى أكانت بركة صغيرة لاخير فيها زمناً طويلاً بعد أن كانت لائقة للمجداف وأخذت الآن تطعم المدن المجاورة وتحس بوطأة المحراث الثقيل، أم كان نهراً غير مجراه الضار للحقول إذ تعلم طريقاً أصلح، كل الأعمال الفانية سوف تفنى.

٧٠- ومجد الكلام وبريقه أقل مظاهر الحياة صموداً، يولد من جديد الكثير من

(١) Neptunus إله البحر.

الكلمات التى سقطت من الاستعمال ويسقط الكثير من الكلمات التى تعيش الآن محاطة بإكليل من العزة والمجد، إذا أراد الاستعمال لها هذا، فالاستعمال هو الحكم والحق المسيطر على الكلام وناموسه الأول والأخير.

لقد بين هوميروس بأى بحر من بحور الشعر يمكن أن تكتب أعمال الملوك

٧٥- والقواد والحروب المجلبة للحزن. لقد استعملت أبيات غير[١] متساوية فى الطول للتعبير عن الشكوى ثم للأدعية المستجابة ولكن النحاة يتنازعون فى مخترع الإليجية[٢] الناقصة ومازال النزاع قائماً لم يفصل فيه بعد.

لقد سلح الغضب[٣] أرخيلوكوس بأيامبيات تنسب إليه ثم اقتبست.

٨٠- الملهاة والمأساة على السواء هذا الوزن إذ أنه يلائمهما فهو يقمع ضجيج الشعب ويناسب الحدث بطبيعته. وهبت ربة الشعر للقيثارة رواية قصص الالهة وأطفالهم والفائز فى الملاكمة.

٨٥- والجواد الأول فى السباق ومتابع الشباب فى الحب والخمر التى تحرر العقول من القيود، فإذا لن أتمكن من المحافظة على الإختلاف الذى سبق ذكره وعلى ألوان الإنتاج الشعرى واتجاهله لم أدعى بالشاعر؟ لم أفضل أن

(١) البحر الإليجى المثنوى الذى يتكون من بيتين أولهما سداسى التفعلية والثانى خماسيها.

(٢) لقد اختلف نحويو الاسكندرية فى أصل الإليجيه وفى مخترعها وقد وصفها هوراتيوس بالناقصة للنقص الذى يتصف به البيت الخماسى التفعلية ويحتمل أن يكون مخترعها هو كالينوس من بلدة افيزوس حوالى ٧٠٠ ق.م الذى تبعه تيرتايوس.

(٣) Archilochus من باروس وهو معاصر لجاليتوس، خطب نيبولى ابنة لايكامبيز ووعده أبوها بأن يزوجه منها ثم عدل الأب عن هذا الوعد وأخذ أرخيلوخوس يهاجم اسرته كلها بقصيدة أيامبية عنيفة أدت إلى أن شنقت بنات هذه الاسرة أنفسهن. راجع:
P. Harvery The Oxf. Comp. To class. Dict. page 39 .

أكون جاهلاً على أن أتعلم لأننى حيى حياء فى غير موضعه.

٩٠- أن الموضوع الكوميدى لا يقبل أن يعرض فى أبيات تراجيدية وبالمثل الموضوع التراچيدى كمأدبة ثوستيس تأنف أن تروى بشعر جدير بالحياة اليومية وأقرب للملهاة. فلتلزم كل من الكوميديا والتراچيديا المكان المخصص لها واللائق بها، وإن كانت الكوميديا ترفع صوتها أحياناً ويثور

٩٥- كريميز الغاضب فى نبرات منتفخة. كذلك فى التراجيديا كثيراً ما يتألم تلفوس أو ببليوس فى فقره أو فى منفاه بلغة النثر ويلقى الفخامة والكلمات الطويلة جانباً إذا عنى أن يلمس أوتار قلب المتفرج بشكواه.

١٠٠- ولا يكفى أن تكون القصائد جميلة بل لتكن عذبة ولتدفع روح السامع أينما تشاء، فكما تبتسم وجوه البشر لمن يبتسمون كذلك تشارك الذين يبكون، فإذا أردت أن تبكينى فعليك ياتيليفوس[١] أوبيلوس[٢] أن تحزن أنت نفسك أولاً وحينئذ تحز فى نفسى مصائبك وآلامك، أما إذا ألقيت ما عهد إليك بطريقة سيئة فسوف أنام أو أضحك.

١٠٥ - إن الكلمات الحزينة تناسب الوجه الحزين، والمليئة بالتهديدات تليق

(١) Telephus بطل فى قصة ليوربيديس فقدت وقد كان ملك ميزيا حين غزا الإغريق طروادة، جرحه اخيليس فنزل من علياء ملكه إلى أسوأ أنواع الشقاء، وأخيراً وصل به الأمر إلى أن يذهب إلى معسكر الإغريق كسائل حتى يشفى من جرحه على يد أخيليس الذى تسبب فيه راجع:
The Oxford Calassical Dictionary (reprinted 1950) page 881/882

(٢) Peleus ملك الميرميديين ووالد أخيليس قتل أخاهPhocus ثم Eurytion مصادفة وقد نفى عند قتل كلا الرجلين إلى أن استقبله أحد الملوك وطهره من جريمته. ولقد اتخذ هوراتيوس من هذه الاسماء أمثلة لموضوعات التراجيديا. راجع:
The Oxford Classical Dictionary reprinted 1950 page 659.

بالوجه الغضوب، والمرحة تلائم الوجه المرح، أما الكلمات الرزينة فهى للوجه الجاد الرزين، فلقد شكلتنا الطبيعة أولاً من الداخل لنواجه أى مظهر من مظاهر الحياة فهى تفرحنا وتدفعنا إلى الغضب أو تحنيرؤوسنا إلى

١١٠- الأرض وتعذبنا بسبب حزن ثقيل ثم تظهر انفعالات النفس متخذة من اللسان مترجماً لها. فإذا كانت الكلمات لا تتفق مع حالة الإنفعالات الظاهرة سوف يضحك الرومان: مشاتهم وفرسانهم ضحكاً عالياً.

هناك اختلاف كبير بين أن يتكلم عبد[١] أو بطل وبين أن يتكلم شيخ ناضج

١١٥- أو شاب فى ازدهار حيويته وقوته، تغلى دماؤه، وهناك فرق بين أن تتكلم سيدة من طبقة رفيعة ذات جاه وعزة وبين مرضعة دائبة الحركة، وهناك فرق بين أن يتكلم تاجر متجول وبين زارع حقل مخضر يانع وهناك فرق بين الكلدانى أو الأشورى وبين من ترعرع فى أحضان طيبة أو أرجوس. اتبع التقليد أو ابتكر أشياء تناسب بعضها بعضاً إذا تصادف أن كنت كاتباً

١٢٠- لمسرحية تعيد وصف[٢] أخيلليس الشريف فليكن نشيطاً غضوباً لاتهزه المشاعر والتوسلات ولا يعترف بأن القوانين قد سنت له، لا يحتكم فيما

(١) عبد ترجمة للقراءة دافوس Davus ولقد انقسمت المخطوطات بين قرائتين Divus بمعنى إله وDavus وهو اسم شائع يطلق على العبيد ولكل من القرائتين أنصار. والواقع أن كلا من القرائتين محتملة ولا تلغى الواحدة الأخرى فقد أراد هوراتيوس أن يظهر الفرق الموجود فى كلام الشخصيات المختلفة والقرائتان تظهران هذا الفرق فهناك فرق بين كلام الإله والبطل وهناك فرق شاسع بين كلام العبد والبطل وإنى أرجح القراءة Davus للفرق البين الموجود بين العبد والبطل أما مقارنة البطل الذى كان يعتبر نصف إله فلا يحدث التقابل المنشود لما بينهما من أوجه الشبه وما يعزز هذا الرأى استمرار هوراتيوس فى انتقاء كلمات تعبر عن تضاد واضح مثل الشيخ والشاب فى عنفوان شبابه ثم سيدة المجتمع والمرضعة إلى آخر ذلك من الأمثلة.

(٢) هذه إشارة إلى الشجار بين أخيلليس وأجاممنون.

يدعيه لنفسه إلا بالسلاح، ولتكن ميديا[١] متوحشة لا تهزم ولتكن إينو[٢] منهمرة الدموع وليكن إكسيون[٣] غداراً وإيو[٤] متجولة وأوريستس[٥] حزيناً.

(١) Medea هى ابنة آييتيس ملك الكولخيين وقد اشتهرت بالسحر وأحبت ياسون وساعدته على الإستيلاء على الجزة الذهبية وتزوجت ياسون وهربت معه إلى بلاد الإغريق فتبعها أبوها فقتلت أخاها ابسيرتوس وقطعت أوصاله وبعثرتها على أمواج البحر حتى تشغل عنها أبوها فى جمع أشلاء ولده فنجت ميديا وعاشت مع ياسون إلى أن سئمها وأحب ابنه كريون فانتقمت من زوجها انتقاماً شديداً بأن ذبحت ولديها منه وقتلت زوجته الجديدة ثم فرت إلى أثينا فى عجلة تجرها وحوش خرافية ذات أجنحة. راجع:

(A) The Oxford Classical D. p. 547/548

(b) Harvey, The Oxford Companion To Classical Literature page 263

(٢) Ino هى ابنة كادموس وزوجة أثماس كانت حياتها الزوجية مليئة بالأحزان والهموم ومصائبها متعددة، وآخر مصاب ألم بها أن زوجها قتل أحد أبنائها وهو فى نوبة جنون فقذفت نفسها فى البحر مع ابنها الآخر. راجع : Athamas:

The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 112

A. Dalton, Horace, Epodes Ars Poetica, notes page 66.

(٣) Ixion هوملك لابيثا فى تساليا قتل أبا زوجته وقد رفعه زيوس إلى السماء ليطهره من هذه الجريمة إذ لم يجد من يطهره منها على الأرض. حاول أن يتصل بهيرا فخلق له زيوس طيفاً يماثلها وأنجب منها الكينتاور وهو حيوان خرافى وقد عوقب عقاباً شديداً بأن شد إلى عجلة لا تكف عن الدوران. راجع: The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 466

(٤) Io هى ابنة ايناخوس وراهبة لهيرا فى أرجوس أحبها زيوس وشكلها فى صورة بقرة حتى يخفى حبه عن هيرا ولكن هيرا عرفت هذا الحب وطلبت منه البقرة فلم يتمكن من الإمتناع وعهدت بالبقرة إلى آرخوس ذى المائة عين فأرسل زيوس هيرميز ليقتله ويحرر البقرة، ولما أصبحت طليقة سلطت هيرا عليها ذبابة تطاردها من أرض إلى أخرى حتى استقرت فى مصر وحولها زيوس إلى صورتها الإنسانية ثانية وانجبت منه ابنا هو أيافوس. راجع:

The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 456

(٥) Orestes هو ابن اجاممنون وكليتمنتسترا وتقول الروايات إنه انتقم لمقتل أبيه فقتل أمه وعشيقها ايجستوس راجع: The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) page 654

١٢٥ - وإذا عرضت للمسرح موضوعاً لم يعالج من قبل وكانت لك الجرأة على إبداع شخصية جديدة فلنحتفظ بها حتى النهاية ولتكن متوافقة.

من الصعب أن تعالج مادة شائعة بين الكتاب بأسلوب خاص بك فخير لك أن تقسم قصيدة طروادة (المعروفة) إلى فصول من أن تكون أول من

١٣٠- ينتج شيئاً مجهولاً لم ينشر على الملأ بعد. المادة الشائعة تصبح حقاً مكتسباً لك لو أنك لم تتلكأ حول الحلبة الرخيصة المفتوحة، وإذا لم تكن مترجماً أميناً على حرفية الترجمة فتعنى بنقل كلمة بكلمة.

١٣٥- وإذا قلدت فلا تسقط فى هاوية فيمنعك الخجل أو تخطيط العمل أن تنقل منها قدمك خطوة إلى الأمام.

ولا تبدأ كما بدأ الكاتب القصصى[١] فى العصر القديم: سأغنى مصير بريام والحرب المشهورة. أى شئ جدير يقدمه ذلك الذى

١٤٠- يملأ فمه بالوعود؟ سوف تشعر الجبال بآلام المخاض ولا تلد سوى فأر مضحك، ولكم هو أكثر صواباً ذلك الذى لا يخطط أى شئ بسخف (ويبدأ قائلا) «أى ربة الشعر حدثينى عن الرجل الذى رأى عادات رجال كثيرين ومدنهم بعد سقوط طروادة فهو لا يفكر فى إعطاء دخان من الوميض الخاطف بل يفكر فى إعطاء ضوء من الداخل لكى يؤلف من هذا اشياء خلابة

---

(١) Scriptor Cyclicus أو كوكلوس بالأغريقية هو نوع من الشعراء الذين عاشوا بعد هوميروس من ٧٦٦ق.م. فصاعداً كانوا يروون الإلياذة والأوديسا وقد نظموا ملاحم صغيرة راجع:

A. Dalton Horace, Expodes & Ars Poetica notes page 68.

١٤٥- وعجائب مثل أنتفاتيس[١] وسكيلا[٢] أوخاريبديس وكوكلوبس[٣] ولايبدأ عودة ديوميديس[٤] من موت ملياجر[٥] أو حرب طروادة من البيضتين التوأمين[٦] فهو دائماً يسرع إلى الحادثة ويسرع بسامعه إلى وسط قصته كما لو كانت معروفة لديه ويترك الأشياء التى عالجها وييئس من

١٥٠- استطاعته أن يجعل لها بريقاً وعلى ذلك يخترع وبهذه الطريقة يمزج الزائف بالصحيح حتى يتفق أول القصة مع وسطها وينسجم وسطها مع

---

(١) Antiphates هو ملك اللايسترجين الذى بلع احد رفقاء أوديسيوس ودمر سفنه ما عدا سفينة واحدة نجا أوديسيوس بواسطتها. راجع: The Oxford Classical Dictionary (reprinted 1950) page 61 واللايستروجونيون Laestrogones شعب متوحش آكل للحوم البشر يسكنون إيطاليا.

(٢) اختلفت روايات الأساطير حول نسبة سكيلا ونكتفى بهذا الملخص Charybdis, Scylla إسمان لصخرتين عاليتين متقابلتين فى المضيق بين إيطاليا وصقلية ويحكى فى الاساطير أن سكيلا بنت كراتايس وهو حيوان خرافى كانت تعيش فى كهف فى الصخرة القريبة من إيطاليا. أما فى الصخرة المقابلة فقد نبتت فيها شجرة تين تحتها دوامة باسم خاريديس تبلع ماء البحر ثلاث مرات يومياً ثم تقذفه خارجاً ثلاث مرات. وللتفصيل انظر: أوديسا هوميروس، الكتاب الثانى عشر (٨٤ إلخ).

(٣) Cyclops نوع من المردة لهم عين واحدة مستديرة الشكل وقد اختلف الكتاب فى وصفهم وفيما اتصل بهم من اساطير. راجع: The Oxf. Class. Dictionary reprinted 1950 page 247

(٤) Diomedes هو ملك ارجوس وأحد أبطال حرب طروادة، ورجوع ديوميديس الذى يشير إليه هوراتيوس إما من حرب طروادة أو الغزوة التى قام بها أدراستوس وأعوانه السبعة ضد طيبة راجع

A. Dalton Horace, Epodes & Ars poetica notes 68-69

(٥) Meleager هو ابن اونيوس ملك كاليدونيا وأحد الأبطال الذين اشتركوا فى رحلة ياسون على السفينة أرجو للبحث عن الجزء الذهبية وقد اشتهر ملياجر بقتل الوعل المتوحش الذى كان يدمر الزرع فى كاليدونيا وإن كانت هناك روايتان عنه. راجع:

The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) page 554

(٦) بيضتا ليدا وقد ولدت من أحداهما هيلين ومن الأخرى كاستوروبولوكس. راجع:

A. Dalton Horace, Epodes & Ars poetica, notes page 69

نهايتها.

واستمع الآن إلى ما أشتاق ويشتاق الناس إلى رؤيته على المسرح، لو

١٥٥- أردت مصفقاً ينتظر حتى تسدل الستار ويجلس فى مقعده إلى أن يقول المغنى «هيا صفقوا» عليك أن تتعرف على عادات كل عمر وتعطى الطبائع المتغيرة والسنين اللمسات الجميلة اللائقة بها. الطفل الذى يعرف كيف ينطق[1] بالكلام ويمشى على الأرض بقدم ثابتة يفرح للعب مع أقرانه ويغضب ثم يتخلى عن غضبه بغير تعقل ويتغير من ساعة إلى

١٦٠- أخرى. أما الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد، فإنه يجد سعادته فى الخيل والكلاب وعشب ساحة الإله مارس المشمسة بعد أن انتهت مهمة حارسه، وهو مرن كالشمع يسهل ثنيه نحو الرذيلة خشن مع ناصحيه بطئ فى بعد

١٦٥- نظره للنافع من الأشياء مبذر شامخ الرأس له نزعات قوية، سريع فى ترك ما قد أحب. أما فى سن الرجولة وقد تغيرت ميول المرء وأهدافه فإن عقله يسعى وراء الثروة وتبحث نفسه عن الصداقات ويصبح عبداً للمراكز العامة فى الدولة ويخشى أن يأتى شيئاً يعمل على تغييره فى القريب العاجل. أما المسن فتحيط به مضايقات عدة إما لأنه يسعى

١٧٠- وراء خير وإذا ظفر به ذلك الرجل التعس امتنع عنه وخشى من الإنتفاع به وإما لأنه يدير جميع أموره بخوف وبرود وهو متباطئ ومتوان فى تحديد أمله، كسول طامع فى حياة أطول، صعب دائب الشكوى مداح

(١) يقصد هوراتيوس بكلمة Voces الكلام فالطفل الذى يطلق أصواتاً فقط لا يمكنه أن يطأ الأرض بقدم ثابتة تترك آثرها عليه كما يقصد بهذا التعبير الأخير المشى فاللعب مع الأقران على النحو الذى ذكره هوراتيوس يحدث فى مرحلة متقدمة نوعاً من الطفولة.

للأزمنة الماضية حين كان صبياً، مؤنباً لمن هم أصغر منه سناً ورقيباً

١٧٥- عليهم. إن السنين المقبلة تجلب الكثير من النعم وتأخذ الكثير تلك التى تدبر وتنحدر نحو النهاية، وسوف نتمهل دائماً فى معرفة الصفات المتصلة بكل عمر والمناسبة له حتى لا نعهد بالصدفة أدوار الشيوخ للشباب وأدوار الرجل الناضج للغلام.

١٨٠- والحادثة فوق المسرح إما أن تمثل أو تروى وما يصل إلى عقولنا عن طريق السمع أقل تأثيراً على المشاعر مما يطرح تحت الأبصار وأقل تأثيراً مما يوصله المتفرج إلى عقله بالمشاهدة ومع ذلك عليك ألا تجلب على المسرح ما يجب أن يؤءى فى الخلف وعليك أن تبعد عن أعيننا الكثير مما سوف يحكيه الممثل شخصياً للمشاهدين.

١٨٥- فلا تدع ميديا تقتل أولادها أمام الجمهور أو أتريوس[١] الشنيع

(١) Atreus هو ابن بيلوبس وهيبوراميا تزوج من أكثر من امرأة: (كليولا، أيروبيا ثم بيلوبيا) وقد قتل أخاً له غير شقيق وفر مع أخيه الذى ساعده فى القتل إلى ميكينا حيث استقبل بحفاوة وبعد أن مات ملك ميكينيا خلفه اتريوس على العرش ثم اكتشف اتريوس أن اخاه قد اغوى زوجته ايروبيا، فنفاه، فأرسل أخوه ثوستيس ابن اتريوس الذى كان قد رباه ليقتل أباه لكن اتريوس قتله دون أن يعلم أنه ابنه ثم تظاهر بالصلح مع اخيه وطلب منه العودة إلى ميكينا فقتل اتريوس بدوره ولدى أخيه وطهى لحمهما وقدمه إلى أبيهما على المائدة فأكل اللحم دون أن يعرف ثم هرب ثويستيس وأنزلت الآلهة اللعنة على اتريوس وبيته. وقد اصابت مملكة اتريوس مجاعة شديدة فنصحته الكاهنة ان يستدعى ثويستيس فرحل باحثاً عنه حتى نزل ضيفاً على ملك يسمى تسيروتس وتزوج من بيلوبيا ابنة اخيه معتقداً أنها ابنة الملك وأخيراً قتل اتريوس راجع:

(A) The Oxf. Class. Dictionary (reprinted 1950) page 117 Seqq. (Atreus)

(B) Harvey, The Oxford Companion to Classical literature (Peliops) page 311

يطهى لحماً آدمياً أو بروكنيه[١] تتحول إلى طير أو كادموس[٢] إلى ثعبان
فما ترينى إياه من هذا النوع وبهذه الطريقة أمقته ولا أؤمن به.

١٩٠- لتكن المسرحية التى يريد الشاعر أن تطلب ثانية ويعاد عرضها مكونة
من خمسة فصول لا تنقص عنها ولا تزيد ولا تسمح لشخصية رابعة أن
تحاول الكلام أثناء الحوار.

ولتدافع المجموعة عن دور الممثل وواجبه الممتلئ بالرجولة وعليها ألا
يتغنى بين فصول المسرحية إلا ما ينفع تخطيط المسرحية وهدفها

١٩٥- وما ينسجم مع هذا التخطيط والهدف. وعلى المجموعة أن تتحيز للأخيار
وتنصح بود وتقمع الغاضبين وتحب الذين يخافون المعصية ولتمتدح
وجبات المائدة المتواضعة والعدالة والقانون والسلام بأبوابه

---

(١) Procne هى بنت بانديون ملك أثينا تزوجت من تريوس ملك تراقيا. ادعى تريوس أن بروكنيه ماتت وطلب من ابيها إرسال أختها فيلومينا فلما وصلت اعتدى عليها ثم قطع لسانها حتى لا تحكى ما حدث وقد طرزت قصتها على قطعة قماش ونجحت فى إرسالها إلى أختها فلما عرفت بروكنية بالأمر قتلت ابنها اتيس وقدمت لحمه لأبيه تريوس وحين علم تريوس ذلك تعقب بروكنيه ولكن الآلهة حولته إلى هدهد وحولت بروكنيه إلى بلبل وفيلومينا إلى عصفور ويعتقد البعض العكس أى أن فيلومينا تحولت إلى بلبل وبروكنيه إلى عصفور. راجع:

The Oxf. Class Diction. (reprinted 1950) (Philomena p. 683).

(٢) Cadmus هو ابن اجنور ملك صور فى فينيقياو قد ارسله أبوه للبحث عن اخته يوريبا التى خطفها زيوس ولما عجز عن العثور عليها استشار كهنة دلفى. فأشار عليه أبولو أن يتبع بقرة معينة إلى مكان طيبة حيث بنى قلعة الكادمية التى اصبحت فيما بعد قلعهة طيبة ولكى يجد ماء قتل حيواناً خرافياً من سلالة آريس وقد نصحته أثينا بعد أن قتلت رجالة أن يبذر اسنان الوحش الخرافى على الأرض فبذرها على الأرض فنبتت منها رجال مدججون بالسلاح قتل بعضهم بعضاً ولم يبق منهم سوى خمسة انحدر منهم الطيبون. راجع:

The Oxf. Classical Dictonary (reprinted 1950). page 151

٢٠٠- المفتوحة، ولتكتم الأسرار التى عهدت إليها ولتصل للآلهة وتتوسل أن يعود الحظ للتعساء ويبعد عن المتعالين

لم يكن الناى، كما هو الآن، مقيداً بالنحاس ومنافساً للبوق بل كان ضئيلاً بسيطاً ذا فتحات قليلة وكان بعزفه نافعاً للمجموعة ومساعداً

٢٠٥- لها كما كان نافعاً لملء المقاعد التى لم تكن قد ازدحمت بعد والتى يأتى إليها عدد من الناس، يعد لقتله، لا يشرب الخمر، طاهر حيى.

وبعد أن بدأ المنتصر يمد حقوله ويحيط المدن بأسوار أعرض عن ذى قبل

٢١٠- ويهدئ فى الأعياد الروح[1] التى تلازمه بشرب خمر فى واضحة النهار دون عقاب، اكتسبت الموسيقى والأوزان حرية أكبر، فأى ذوق ينتظر من رجل جاهل أصبح طليقاً بعد إنتهاء مشاغله وأى ذوق ينتظر من جمهور امتزج فيه الريفى بالحضرى والرعاع بالنبلاء؟

وعلى هذا أضاف عازف الناى إلى فنه القديم الحركة والمغالاة وأخذ

٢١٥- يتجول فى الجزء الأمامى من المسرح وهو يجر (أذيال) ثوبه ولهذا أيضاً نشأت أوتار جديدة للقيثارة الرزينة وجلبت البلاغة المندفعة كلاماً غير مألوف ولم يختلف الفكر السديد المتصف بالحكمة والخاص بالنافع من الأمور، والمتنبئ بالمستقبل، عن تنبؤات دلفى.

(١) Genius كان القدماء يعتقدون أن هناك روحاً تحمى الإنسان ويرى البعض أن للإنسان روحاً خيرة وأخرى شريرة يلازمانه منذ الولادة وكانت هذه الأرواح تعبد فى الأعياد، خاصة أعياد الميلاد وتقدم لها قرابين من الخمر والزهر ...: راجع:

A Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica notes page 74

٢٢٠- والشاعر[1] الذى تنافس بشعره التراجيدى من أجل جدى رخيص سرعان ما أظهر ساتيرات الغابة سافرة على المسرح وحاول النكتة بخشونة دون أن يمس وقارة بالأذى إذ أن عليه أن يحتفظ بانتباه المتفرج لمدة أطول بمغريات وابتكار جذاب فهو فى حالة شديدة من السكر لايعى معها أى قانون بعد أن قدم قرابينه، بهذه الطريقة.

٢٢٥- تأتى الفرصة المناسبة حقاً لتطلق ساترياتك الضاحكة المثرثرة على المسرح وتحول الجد إلى هزل حتى لا يستغل إله أو بطل فى القيام بالأدوار الهزلية وقد شوهد منذ لحظة فى ثوب ملكى أرجوانى اللون مزركش بالذهب وحتى لا يهبط من هذه العظمة إلى مستوى الحانات الغامضة بكلام رخيص وحتى لا يظل ممسكاً بالسحل أو الفضاء

---

(١) يقصد هوراتيوس Thespis الذى نال جائزة عام ٥٣٤ ق.م. فى اثينا تقول بعض المراجع إنه من ايكاريا وهو أول ممثل ظهر منفصلاً عن المجموعة وقد لبس قناعاً من كتابن ساعده على القيام بأدوار متعددة إذ أنه كا يبدل القناع فى كل دور. وما يراه هوراتيوس من أن ثيسبيس اخرع التراجيديا سطر ٢٧٥ الخ) غير صحيح لأن تيسبس لم يخترعها بل اخترع المسرحية بوجه عام ولم يأخذ تسيبس مسرحياته على عربات كما وصف هوراتيوس ويقول المعجم الكلاسيكى فى ذلك لعل هذا الوصف نشأ من اللبس الموجود بين التراجيديا القديمة والكوميديا القديمة. راجع: The Oxf. Class Dictimary (1950) (reprinted 1950) page 899

. أما كلمة تراجيديا فمشتقة من تراجوس الإغريقية ومعناها جدى وهناك ثلاثة آراء فى نشأة التراجيديا وعلاقتها بالجدى.

أولاً: كان يتنافس شعراء التراجيديا كل عام فى عيد ديونيسوس على جدى على أنه جائزة لهذا النوع من الشعر وهو رأى هوراتيوس.

ثانياً: إن المجموعة التى تغنى فى أعياد ديونيسوس كانت تلبس زى تيوس خرافية تعرف بالساتيرا وهى تشبه الجدى ويرى البعض أن التسمية نشأت من هنا.

ثالثاً: إن القربان الذى كان يقدم فى هذه المناسبة كان جدياً. راجع:

(A) The Oxf. Class. Dictionary (reprithed) 1950) page 915 Seqq. (Tragedy)

(B) Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature page 434

فن الشعر الدكتور لويس عوض هامش ٤٦ ص١٢٨ - ١٢٩ .

٢٣٠- فى الوقت الذى يرتفع فيه عن الأرض، فلا يليق بالتراجيديا أن تقول أبياتاً تافهة فهى كسيدة المجتمع الرفيع حين يطلب منها أن ترقص فى الأعياد، تختلط بساتيرات الغابة فى شئ من الحياء.

٢٣٥- أما عن نفسى، يا آل بيزو، فلو أننى كتبت ساتيرات فلن احب الأسماء والكلمات غير المنمقة الشائعة السائدة ولن أحاول الابتعاد عن اللون التراجيدى للدرجة التى لا اهتم معها فيما إذا كان المتحدث دافوس[١] أو بيثياس[٢] الجريئة التى كسبت مبلغاً من المال بمداهنة سيدها سيمو أم كان المتحدث سيلنوس[٣] حارس ابن الإله أو خادمه.

٢٤٠- فغايتى هى نظم شعر يتخذ مادته من المألوف على نحو يجعل الطامع فى الوصول إلى مثله يرتد من محاولاته الجاهدة دون جدوى. فما اعظم الأثر الذى يحدثه تسلسل الكلمات وقوتها وما أجل الشرف الذى تضفيه الصياغة على ما اختاره المرء من واقع المألوف.

٢٤٥ - وأرى أن التيوس[٤] التى اجتلبت من الغابات ينبغى ألا تكون كمن ولد

(١) Davus هو اسم شائع يطلق على العبد فى الكوميديا.

(٢) Pythias اسم امه فى ملهاه داهمت سيدها سيمو، وكسبت منه مبلغاً من المال اشترت به حريتها.

(٣) Silenus تختلف روايات القدماء وأوصافهم عن سيلينوس، وسيلينوس أصلاً نوع من مخلوقات الغابة له ذقن وأذنا فرس. ويطلق اسم سيلنوس على مؤدب باخوس إله الخمر وخامده (راجع المعجم الكلاسيكى اكسفورد طبعة ١٩٥٠ تحت) (Satyrs & Sileni) ص٧٩٧ .

(٤) هى ترجمة لكلمة Fauni وهى أصلاً أرواح الريف والغابات وقد نشأ منها عبادة Faunus الذى يطابق Pan وهو الذى يحمى المحصول والماشية ويعتبر ال Fauni نوعاً من مخلوقات الغابة التى يطابقها الستيرا لدى الإغريق راجع:

A Dalton, Horace Epodes & Ars Poetica notes page 77. & The Oxf. Class. Dictionary page 358.

فـى مفترق الطرق أو كمتشـردى الأسـواق (الفورم) وينبغـى ألا تمثـل
أدوار الشباب بأشعارها الرقيقة أو تتشدق بـأقوال بذيئة لا حياء فيهـا
فـإن الفرسـان والشيـوخ والأغنيـاء ليتـأذون من ذلك ولا يتقـبلون
بشـعـور الرضـا والاستـحسـان مـا يوافق عليـه مـشـتـرى الفـول
٢٥٠- المحمص أو البندق كما انهم لا يمنحون أكليلاً.

المقطع الطويل الذى يعقب مقطعاً قصيراً يسمى أيامب وهو تفعلية سريعة
ومن هنا اقتضت الأيامب أن تسمى الأيامبيات تراميات رغم أنها من
ستة إيقاعات[1] وتتكرر التفعيلة إلى آخر البيت على نسق واحد.

ولم يمض وقت طويل حتى سمع الأيامب للتفعيلة السبوندية الرزينة
٢٥٥ – أن تدخل ضمن حقوقها الموروثة لكى تصل إلى الآذان بشئ من البطء
والتثاقل فهى مناسبة وثابتة على ألا تقع التفعيلة السبوندية فى المركز
الثانى أو الرابع من التفعيلات إذا اشتركت مع التفعيلة الأيامبية فى تكوين
هذا البحر.

ويظهر الأيامب نادراً فى تراميات أكيوس النبيلة ويشكل لأشعار
٢٦٠- إينياس تهمة شائنة: هى عدم العناية والجهل، تلك التى أرسلها للمسرح
والتى تجر معها حملاً ثقيلاً.

ولا يميز أى ناقد تشاء، القصائد اللاموسيقية وقد منح الرومان حرية

(١) هذا لأن كل تفعيلتين تكونان metrum

٢٦٥ - للشاعر وتسامحوا عن أخطائه تسامحاً غير لائق، فهل قياساً على هذا أخطئ وأكتب دون قيد؟ وإذا اعتقدت أن جميع النقاد سيرون أخطائى أأكون سالماً وحذراً يحوطنى أمل التسامح والعفو عن هذه الأخطاء؟ فى هذه الحالة أتجنب اللوم ولكننى لا استحق الثناء.

قلبوا بأيديكم النماذج الإغريقية ليلاً ثم قلبوها نهاراً، ولكن قدتقولون

٢٧٠- «إن أسلافكم مدحوا موسيقية بلوتوس وملح» وحتى لا أصف إعجاب الأسلاف ببلوتوس بالسخف، اقول إنه كان إعجاب الصابر الذى يفوق صبره الحد، لو أننا - أنا وأنتم - عرفنا فقط كيف نميز بين ما هو غير مصقول وبين ماهو جذاب معجب. وإذا عرفنا بالتجربة كيف نميز النغم المشروع بآذاننا وأصابعنا.

٢٧٥- يروى عن ثسبيس أنه اكتشف نوعاً من الشعر لم يكن معروفاً من قبل خاصاً بربه[1] التراجيديا وأنه قد نقل قصائده على عربات ليلقيها ويمثلها رجال صبغت وجوههم بحثالة النبيذ وجاء بعده أيسخيلوس[2] امخترع القناع والثوب الجميل وغطى المسرح بألواح خشبية وعلم الممثلين الكلام

٢٨٠- الفخم والمشى بالحذاء العالى. تبعت الكوميديا القديمة هؤلاء مباشرة ولم يعوزها المدح والإطراء العظيم ولكن الحرية التى استعملها كتاب الكوميديا وقعت فى رذيلة وعنف يستحقان أن يقمعا بقانون[3] ، وقد رحب الكتاب بهذا القانون وسكتت المجموعة خزية بعد أن سلب منها حق الإيذاء.

---

(١) ارجع إلى هامش (٢) ص١٧٨ .

(٢) الشاعر اليونانى العظيم الذى ينسب إليه أول عمل تراجيدى.

(٣) لقد صدرت عدة قوانين فى هذا الصدد عام ٤٤٠ق.م.، وعام ٤١٥ ق.م. إلخ.

٢٨٥- لم يترك شعراؤنا شيئاً لم يعالجوه وحين جرءوا على عدم اقتفاء أثر الإغريق، والإحتفاء بالأحداث الرومانية سواء أولئك الذين انتجوا تراجيديات يلبس فيها البرايتكستا أو كوميديات يلبس فيها التوجا، فاستحقوا شرفاً ليس بالقليل، ولو أن كل شاعر آلمته مهمة صقل شعره وتهذيبه

٢٩٠- لما تفوقت لاتيوم في الشجاعة والأسلحة الشهيرة على اللغة. فيا أبناء بومبيليوس[١] ، أدينوا أية قصيدة لم تخضعها الأيام العديدة للتنقيح الشديد وتعرضها عشرات المرات لاختبار دقيق كاختبار النحات بآلته لتكشف النتوء الشاذ فوق المرمر الذي يشكله.

٢٩٥ - ولأن ديموقريتوس[٢] يعتقد أن الموهبة الطبيعية أسعد حظاً من الفن التعس وأبعد الشعراء أصحاء العقول من هليكون[٣] لم يهتم عدد كبير من الشعراء بتقليم أظافرهم أو قص لحيتهم وأخذ يبحث عن الأماكن الخفية ويتجنب الحمامات، لسوف يفوز المرء بجائزة الشاعر ولقبه إذ لم يعهد إلى الحلاق[٤] لوكينيوس برأسه الذي لا تستطيع

٣٠٠- الانتكريات الثلاث[٥] شفاءه.

آه لحمقي أنا الذي أطهر عصارتي[٦] الزائدة قبل بدء الربيع فلولا ذلك

(١) نسبة إلى نوما بومبليوس

(٢) ديموقريتوس الأبديري الفيلسوف العظيم الذي مات ٣٥٧ ق.م.

(٣) جبل في بيوتيا، وفقا للأساطير كان يؤمه ربات الشعر.

(٤) كان حلاقاً مشهوراً في ذلك الوقت يحبه الإمبراطور أوغسطوس.

(٥) الانتكريات الثلاث أي جميع الأعشاب التي تنتجها بلده انتيكورا الواقعة على خليج كورنث لعلاج الجنون والعدد ثلاثة ليس له مفهوم.

(٦) كانت زيادة العصارة تعتبر سبباً للجنون وتطهير العصارة الزائدة معناه الإبتعاد عن الجنون.

التطهير لما نظم رجل آخر قصائد أفضل، ولكن ليس هناك حق ما يستحق هذا التقدير العظيم، وعلى هذا سأقوم بدور الرحى التى تستطيع أن تشحذ

٣٠٥ - الصلب وهى فى حد نفسها سلبت القدرة على القطع ففى الوقت الذى لا أكتب فيه بنفسى شيئاً سأعلم وظيفة الشاعر وواجبه، من أين يأتى بالمصادر، وما يغذى الشاعر وما يشكله، ما يليق به ومالا يليق، وإلى أين تقود الفضيلة وإلى أين يقود الخطأ. إن الذكاء الذى أرشدته المعرفة وطورته[1] التجربة هومنشأ الكتابة ونبعها، وآراء[2] سقراط يمكن أن تدلك

٣١٠- على المادة فإذا ما توفرت المادة تأتى الكلمات فى غير امتناع المرء الذى يتعلم ما يجب نحو وطنه وما يجب نحو أصدقائه وبأى نوع من الحب عليه أن يحب أباه وأخاه وضيفه وما واجب عضو السناتو والقاضى وما

٣١٥- هى مهام القائد الذى أرسل للحرب ليعرف حقاً كيف يضفى على كل شخصية ما يناسبها.

إنى لآمر المقلد الذى أرشدته[3] المعرفة وحنكته التجارب أن يهيئ لنفسه نموذجاً من الحياة والعادات يستقى منه عبارات حية.

٣٢٠- فى بعض الأحيان تدخل السرور على الناس بطريقة أقوى قصة لها فقرات بارزة صورت شخصياتها تصويراً صحيحاً وإن كانت خالية من أية جاذبية وإن كانت دون وزن أو فن وتستحوذ عليهم وتثير اختمامهم

---

(١) هذه الترجمة تحليل لكلمة Sapere التى لا يمكن ترجمتها فى لفظ واحد.

(٢) هى ترجمة لكلمة Scripta ويعنى ما كتبه أفلاطون وغيره من آراء سقراط.

(٣) هى ترجمة لكلمة Doctum التى أوصلتها من حيث التسلسل الفكرى إلى مصدرها الأول وهو Sapere فقد توافر للكاتب الذكاء والمادة وقوة التمييز وأصبح مدركاً لما يحيط به.

لمدة أطول مما تثيره أبيات من الشعر خالية من المادة أو مما تثيره توافه
رنانة منحت ربة الشعر الإغريق الموهبة والقدرة على التعبير[1] المتكامل
٣٢٥- والتشوف إلى المجد وحده. يتعلم الصبية الرومانيون كيف يقسمون
الآس[2] إلى مائة جزء بمسائل طويلة فلو طرحت أوقية من خمسة أوقيات
فما يتبقى؟ ليجب ابن ألبانوس، فى استطاعتك أن تكون قد
أجبت «الثلث» حسن، سوف تتمكن من المحافظة على أملاكك، أضف
أوقية (على خمسة أوقيات) ماذا يكون الناتج؟ «النصف»[3] .
٣٣٠ - ولكن حين يلوث الصدأ والإهتمام بإقتناء ملك خاص نفوسنا فهل نأمل
فى ابتكار قصائد تستحق أن تطلى[4] من الخلف بزيت البندق أو تحفظ
٣٣٥- فى علب من السرو المصقول. يهدف الشعراء إما للنفع أو إدخال السرور
أو لقول سار ومناسب للحياة ولتكن موجزاً حين تعلم أى شئ حتى تسبق
العقول المنتبهة فهم كلماتك السريعة وتعبها بأمانة وإخلاص فكل
مازاد عن الحد يسيل من الصدر الممتلئ وليكن ما ابتكر لغرض
الإمتاع قريباً من الحقيقة حتى لا تختار القصة أى شئ وتطلب الثقة به

(١) هى ترجمة Ore rotundo التى شرحها الاستاذ أ. دالتون بالعبارات المكتملة من نواحيها المختلفة A Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica page 84

(٢،٣) الآس عملة رومانية وتساوى ١٢ أوقية وتقسيم الآس إلى مائة قسم هو على سبيل المثال لا الحصر وعلى هذا لو طرحنا ١/١٢ من ٥/١٢ تساوى الثلث ولو أضفنا ١/١٢ إلى ٥/١٢ يساوى النصف كما ذكر هوراتيوس.

(٤) شرح أ. دالتون طلاء القصائد بالزيت من الخلف فقال إن ظهر الكتاب كان عادة يطلى بزيت البندق ويقصد به على ما اعتقد الصحائف الجلدية التى كانت تجلب من برجامون وتطلى بالزيت من الخلف.

٣٤٠- وحتى لا تستخرج طفلاً حياً من بطن اللاميا[1] وقد انتهت من إلتهامه.

إن كثيرين من الكهول يقصون عن المسرح مالا مغزى له أو نفع وقبيلة الرامنيس المتغطرسة تحتقر القصائد الخشنة. لقد نال استحسان الجميع وموافقتهم من مزج النافع بالممتع بإدخال السرور على قارئه وبنصحه

٣٤٥- على السواء. هذا هو الكتاب الجديد بجلب نقود لبائعى الكتب أمثال آل سوسيوس، هذا هو الكتاب الذى يعبر البحر ويقترح امتداد الخلود لكتابة المعروف أزمنة طويلة.

توجد أخطاء من النوع الذى تحب أن تعفو عنه. الوتر لا يؤدى النغك الذى تريده يد العازف أوعقله فكثيراً ما ينتج نغماً حاداً حين يطلب منه

٣٥٠- نغماً ثقيلاً والقوس لا يصيب دائماً ما يهدد بإصابته. فى القصيدة التى يشرق العدد الأكبر من أجزائها لا تؤذينى قطعاً بقع قليلة نتجت عن إهمال أو عجزت الطبيعة بعض الشئ عن تجنبها فما الذى يؤذيك إذا؟

كما أن ناسخ الكتب يفتقد العفو إذا ما ارتكب نفس الخطأ دائماً رغم

٣٥٥ - التحذير منه وكما أن عازف القيثارة الذى يخطئ نفس الوتر يضحك منه الناس كذلك الشاعر الذى يهمل ويخطئ كثيراً، يصبح فى نظرى كوثيريلوس[2] المعروف الذى نتعجب بضحكة لإجادته بيتاً أو

---

(١) اللاميا حية تأكل الأطفال وكلمة لاميا أصلاً كانت تطلق على ملكة فى ليبيا كانت، تتصف بالقسوة الشديدة راجع: A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica page 85

(٢) هو شاعر ردئ تبع الاسكندر وكتب عن أعماله راجع:
The Oxford. Classical. Dicitionary (reprinted 1950) page 187. (Choerilus 3) وille هنا للتحقير.

بيتين فى قصيدته، وأتألم أيضاً حين يغفو هوميروس الذى
٣٦٠- يجيد الكتابة[1] ومن حق الغفوة، لا شك، أن تتسلل فى عمل طويل.
القصيدة مثل الصورة ستجد تلك التى تأخذ بلبك كلما ازددت قرباً منها
وأخرى كلما ابتعدت عنها، هذه تحب الظلام وتلك التى لا تخشى
٣٦٥ - عين الناقد النفاذة وفهمه الحاد تحب أن ترى فى الضوء، هذه تسرك
مرة واحدة وتلك تسرك مهما رجعت إليها عشرات المرات.
يا أكبر الشبان سناً، خذ هذا القول واذكره رغم ذكائك الذى شحذته[2]
التجارب وطورته المعرفة ورغم صوت أبيك الذى أعدك للحق، من
المسلم به أن أشياء معينة لها توسط وطاقة محدودة لايمكن أن تتعداها.
٣٧٠- رجل القانون أو المحامى من الدرجة الثانية ليست له طاقة ميسالا[3]
البليغ وقدرته وجدارته وتفوقه ولا يعرف القدر الذى يعرفه أولوس
كاسكيليوس[4] ومع ذلك له قيمته ولكن لم تعترف الناس ولا الآلهة ولا
بائعو الكتب بالشعر الوسط عند الشعراء، فكما أن اللحن الشاذ
٣٧٥- والدهان السميك وبذور أبى النوم التى تقدم مع عسل سردينيا[5] تؤذينا
فى مأدبة لطيفة لأن المأدبة تستطيع أن تتم بدونها، كذلك القصيدة التى

---

(١) ترجمة لكلمة bouns التى يمكن تشكيلها حسب السياق.
(٢) ترجمة لكلمة sapis ارجع لشرح كلمة Sapere ص٤٧ .
(٣) هو معاصر وصديق لهوراتيوس وخطيب بليغ برز فى ميدان السياسة.
(٤) رجل ضليع فى القانون وقد مات فى أوائل عصر أوغوسطوس، راجع :
A. Dalton Horace, Epodes & Ars Poetica page 86/87 (Messla, Cascellius).
(٥) لأنه ردئ.

نظمت وابتكرت لإرضاء النفوس إن هى نزلت قليلاً عن قمة المجد سقطت فى الهاوية.

٣٨٠- إن من لا يعرف كيف يلعب يتجنب أدوات الرياضة فى ساحة الإله مارس ولجهله باستعمال الكرة أو الطرق أو الحلقة يقبع فى هدوء حتى لا تضحك منه الحلقة المكتظة دون أن يتعرض للوم أو تقريع. من لا يعرف كيف يقرض الشعر يجرؤ أن ينظمه لم لا؟ فهو حر، وحرالمولد وفوق كل هذا مقيد فى السجلات ضمن من يمتلكون ثروة الفارس[١] وأبعد عن كل رذيلة.

٣٨٥ - لن تقول شيئاً ولن تفعل شيئاً مالم توافق الطبيعة[٢] عليه وتقبله، هذا هو حكمك، هذا هو عقلك وتفكيرك، ومع ذلك إذا كتبت شيئاً يوماً ما فلينفذ أولاً إلى آذان ماكيوس الناقد وإلى آذان أبيك وآذاننا ولتخفه وتضع صحائفه[٣] فى الداخل حتى العام التاسع.

٣٩٠- وسوف يحل لك حينذاك أن تدمر مالم ينشر بعد. فالصوت الذى أرسله صاحبه لا يعرف العودة.

خوف أورفيوس المقدس، ترجمان الآلهة، الرجال حين كانوا يسكنون الغابات من سفك الدماء ومن المعيشة المتوحشة، قيل إنه روض النمور والاسود الكاسرة وقيل عن أمفيون مؤسس مدينة طيبة إنه حرك

٣٩٥- الأحجار بصوت قيثارته وقادها حيثما شاء بتوسله الحنون.

---

(١) ٤٠٠٠٠٠ سسترسيس

(٢) invita Minerva مثل شائع فسره شيشرون id est adversante et repugnante natura ولقد ترجمناه بهذا المعنى. ومنيرفا هى إلاهة الحكمة عند الرومان التى تحمى العلوم والفنون.

(٣) من الجلد للكتابة عليها.

كانت هذه هى الحكمة يوماً ما: أن تميز بين العام والخاص من الزشياء
وبين المقدس والنجس منها وتنهى عن الاتصال الجنسى المتنقل. وتعطى
الحقوق الطبيعية للزوجية وتضع قوانين لها وتخطط المدن وتحفر القوانين
٤٠٠- على ألواح خشبية. هكذا جاء للشعر والشعراء شرف الألوهية واسمها. بعد
هؤلاء أثار هوميروس الذى نال شهرة بأشعارهع نفوساً مليئة بالرجولة إلى
حروب مارس وكذلك فعل تيرتايوس وبالأشعار قبلت النبوءات وبالأشعار
وضح طريق الحياة.
٤٠٥ - واستعطاف الملوك حاوله الشعراء بأنغام بيرية[1] واكتشف الإنسان اللعب
ووضع حداً لعمل مضن طويل وقد ذكرت لك كل هذا حتى لا تكون ربة
الشعر صاحبة القيثارة وحتى لا يكون أبولو إله الغناء مصدراً للخجل لك.
ولقد تساءل الناس هل القصيدة الجديرة بالمدح نتيجة الموهبة الفطرية أو
الفن. (إذا سألتنى عن رأيى) فإن أرى أن الدراسة لا تنفع بدون عرق
٤١٠- غنى من الموهبة[2] الطبيعية، والموهبة الفطرية غير المصقولة لا تجدى
بدون دراسة. فكل منهما يتطلب عون الآخر ويتآلف معه فى صداقة وود.
من يحرص فى سباق على أن يصل إلى هدف طالما تمناه، عانى الكثير
وقام بالكثير فى صباه، عرق وانتفض وامتنع عن الحب والخمر.
٤١٥- الزامر الذى ينشد القصائد فى الألعاب البيثية تعلم من قبل وخاف من
أستاذه. ليس بكاف أن يقال إنى أنظم قصائد مدهشة. إن الجرب

(١) الأنغام البيريه هى أنغام ربات الشعر والإشارة هنا إلى بندار وسيمونيدس.
(٢) يقصد بكلمة Natura هنا ingenium وهى الموهبة الطبيعية.

ليصيب[1] المتخلف في السباق وإنه لمن العار أن أكون متخلفاً وأن اعترف بأني أجهل تماماً مالم أتعلمه.

٤٢٠- الشاعر الغني بحقوله والثرى بمال يستخدمه في الربا يأمر المتملقين بالذهاب إليه للكسب، هو كالمنادى الذى يدفع حشداً من الناس لشراء مبيعاته. وإذا كان من النوع الذى يستطيع أن يقدم على مائدته عشاء دسماً أو أن يضمن فقيراً رقيق الحال أو ينتزع رجلاً اشتبك في شجار أو وقع في قضية قائمة، سوف أعجب لو عرف هذا السعيد

٤٢٥- كيف يميز بين الصاحب الحقيقى والمتملق.

وأنت إذا كنت قد اعطيت فعلاً أو نويت أن تعطى لشخص ما هدية فلا تجره وراءك وهو في غمرة فرحته ليستمع إلى ما نظمت من شعر فسوف ينادى بأعلى صوته «جميل» «حسن» «متقن» وسيشحب لونه شحوباً يفوق

٤٣٠- الوصف تأثراً بها وقد تصل به الدرجة إلى أن يستجدى قطرات الدمع من عينيه الودودتين ويرقص ويضرب الأرض بقدميه كالنادبات[2] المأجورات في تشييع جنازة يقلن ويفعلن أكثر ممن يحزن من قلبه، وعلى هذا النحو يبدى المتملق الساخر تأثراً يفوق تأثر المعجب الحقيقى. يروى عن الملوك أنهم كانوا يلحون بكئوس عديدة على من يسعون إلى سبر أغوار نفسه ويدفعونه للشرب لإختباره بخمر خالصة من الماء لمعرفة

---

(١) هذا المثل تردده الصبية في السباق حتى لا يتخلفوا عن غيرهم في السباق. راجع:
A. Dalton. Horace, Exodes & Ars Poetica (notes) page 89 .

(٢) وكمن يسمين Praeficae

٤٣٥- لمعرفة ما إذا كان جديراً بصداقتهم. فإن نظمت قصائد فلا تخدعنك مطلقاً النفوس التى تخفى وراءها مكر الثعالب.

لو أنك أنشدت شيئاً من شعرك على مونتليان لقال لك صحح هذا وهذا أرجوك، فإذا أجبت بعدم إمكانك أن تنظم أفضل منه بعد أن حاولت مثنى

٤٤٠- وثلاث بدون جدوى أمرك أن تسقطه من القصيدة وأن تعيد إلى المنجل الأبيات التى أسأت صياغتها فإن فضلت الدفاع عن خطئك عن إصلاحها لا يضيف كلمة واحدة ولا يبذل مجهوداً غير مثمر بل يتركك لتعجب بنفسك وبشعرك وحيداً بدون منافس.

٤٤٥- فالشاعر[١] الأمين الفطن ينقد الأبيات التى لا حياة فيها ويخطئ الغليظة منها ويضع علامة سوداء بحد قلمه الثقيل أمام غير المصقولة منها ويتخلص من المزينات التى ترمى للتأثير فقط ويرغم نفسه لإيضاح ما قل وضوحه، يدين القول الذى يلتبس فهمه ويعمل على ما يجب تغييره

٤٥٠- فهو يجعل من نفسه أرستارخوس ولا يقول (لنفسه) كما يقول البعض حين يطلب منهم نقد شاعر «لم أجرح صديقاً فى توافه» هذه التوافه تقود الشاعر إلى ضرر جسيم إن سخر منه مرة ولقى استقبالاً مشئوماً.

والشاعر المجنون كالجرب الذى ينغص على المرء حياته أو كمرض الملوك[٢] أو كالكاهن الذى يحوم فى المعبد وقد مسه جنون من وحى

(١) السياق هنا يتجه إلى الكلام عن الشعراء ولقد ترجمنا كلمة Vir بالشاعر.

(٢) مرض الملوك إما الصفراء أو النقرس فكلاهما يحتاج إلى التسلية والركون إلى الراحة والمال وقد سمى بهذا الاسم نظراً لتوفر كل هذه الأشياء للملوك.

٤٥٥ – سبيل أو بللونا أو من غضب ديانا. يخاف العقلاء أن يلمسوه، ويهربون منه وتعاكسه الصبية وتتعقبه دون حذر. أما هو فبينما يلفظ أبياتاً من الشعر وهو رافع رأسه، فلو أنه سقط فى بئر أو هوة عميقة كصقر يحدق فى طيور سوداء – فإنه مهما يصح أغيثونى، أى إخوانى المواطنين فإنه

٤٦٠– لن يجد من يهتم برفعه من تلك البئر وإذا اهتم أحد بمد المساعدة له أو بإدلاء حبل له (فسأقول). كيف تعرف إن كان قد ألقى بنفسه إلى هذا المكان وهو فطن لذلك أو إن كان لا يغرب عن الإنقاذ.

٤٦٥ – سوف أقص عليك نهاية الشاعر الصقلى امبدوكليس[١] فقد ألقى بنفسه إلى بركان أيتنا المحترق وهو هادئ الأعصاب حين أراد أن يعتبر مخلداً، فليكن للشعراء حق إفناء أنفسهم، ليحل لهم هذا الأمر فمن ينقذ شخصاً بغير رغبته فهو يفعل عين ما يفعله القاتل. ولا يفعل الشاعر هذا مرة واحدة، وإن كان هو قد جر من هذه الهوة فهل يصبح فيالتو إنساناً مثل غيره من الناس ويترك حبه لميته مشهورة.

٤٧٠– ولا يظهر لى بوضوح كاف السبب الذى يدأب من أجله على نظم الشعر وعما إذا كان نجس رماد[٢] أجداده بالبول أو حرك وهو نجس، قرباناً حزيناً ضحى لتهدئة مكان ملعون نزلت عليه صاعقة من السماء. وعلى كل حال إن الرجل جن جنونه وهو كالدب إن استطاع كسر قضبان قفصه الحديدية المنيعة يدفع الجاهل والعالم على الهروب من تلاوة أشعاره فإن

٤٧٥ – هو انتزع أحدهم يمسك به ويقتله بالقراءة فهو مصاص للدماء لا يكاد يترك جلد فريسته إلا مليئاً بالدم.

(١) قصة موته التى وصفها هوراتيوس مشكوك فيها.

(٢) كان الرومان يحرقون جثث الأموات.

(١) النصوص والقواميس

H. A. Dalton, Horace, Epodes & Ars Poetica, 1933.

H. R. Fairclough, Horace, Satires, Epistles & Ars Poetica loeb Edition) 1936

P. Harvey, The Oxford Companion To Classical Literature 1951.

The Oxford Classical Dictionary, (repinted) 1950.

(٢) المراجــع

J. W. H. Atkins, Literary Criticism in Antiquity 1934.

B. Bosanquet, History of Aesthetic 1892.

S. H. Butcher, Aristotle's Theory of Poetry and Fine Art. 1895.

L. Cooper, Aristotle on the Art of Poetry 1931.

J. D. Denniston, Greek Literary Criticisns, 1924.

E. Egger, Essai sur L'historire de la Critique Chez les Grecs 1885.

G. C. Fiske, Lucilius & Horace, 1920.

W. R. Roberts, Greek Rhetoric and Literary Criticism 1928.

J. H. Rose, A. Handbook of Greek literature (fourth edition) 1950.

J. H. Rose, A. Handbook of Latin Literature (third Edition) 1954.

G. Saintsbury, History of Criticism and Literary Taste 1900.

E. Sandys, History of Classical Scholarship 1903.

E. E. Sikes, The Greeek View of Poetry 1931.

W. K. Winsatt & J. R. Brooks, Literary Criticism 1957.



استرابون يتحدث عن حملة أيليوس جاللوس على بلاد العرب(*)

الأستــاذ الدكتــور
محمد عبــودى إبراهيــم

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية فى المجلد التاسع والثلاثون، ١٩٩١ ص ص ٥٠١ - ٥٣٤ .



استرابون يتحدث عن
حملة أيليوس جاللوس علي بلاد العرب[١]

تناولنا فى بحث سابق[٢] ما كتبه الجغرافى الإغريقى استرابون عن بلاد العرب، وركزنا فيه على القسم الذى اعتمد فيه كاتبنا كلية على ماكتبه أسلافه من مؤلفى الإغريق وبخاصة أراتوثنيس وأرتميدورس وأجانار خيديس، وذكرنا فى حينه أنه على الرغم من دقة ملاحظات المؤلف ومن التناسق الذى اتسم به فى كل ماكتبه وخصوصاً فى الجزء المخصص فى جغرافيته لوصف مصر والمصريين، نجد وصفه لبلاد العرب وأهلها يعوزه هذا التنسيق وذلك الترتيب، ويرجع عدم الترتيب هذا، على الأرجح فى رأينا، إلى اعتماد كاتبنا على ما كتبه أسلافه من بنى جلدته من الإغريق الذين كتبوا فى مراحل زمنية مختلفة، وكذلك على التقارير الرسمية المتعلقة بحملة صديقه أيليوس جاللوس الوالى الرومانى فى مصر (26-25 B.C) على جنوب بلاد العرب، المعروفة آنذاك بالعربية السعيدة أو المزدهرة أو الميمونة[٣]. وهناك سبب آخر جعل من وصف استرابون لبلاد العرب ينقصه الترتيب والتنسيق، ذلك أن المؤلف كما هو واضح

(١) بدأت هذه الحملة إما فى عام ٢٥ ق.م أو عام ٢٤ق.م. حسب رأى
Richard le Baron & France. Albright Bowen. Jr. Archaeologeal Discoveries in South Arabia. Vol II. P. 38 .

(٢) بحث قدم أمام المؤتمر الثالث للدراسات العربية اليونانية Helleno-Arabica المنعقد فى مدينة أثينا باليونان يوليو ١٩٨٨ .

(٣) لقب اليونان جنوب بلاد العرب (اليمن حالياً) Arabia Eudaimon ومعناها بلاد العرب السعيدة أو الميسورة أو المزدهرة.

لم يرافق الحملة المذكورة[٤] وأدلتنا على ذلك كثيرة، فاسترابون لايخبرنا بصراحته المعهودة بأنه زار تلك البقاع كما حدث عندما حدثنا عن مصر والمصريين[٥] كذلك نجد استرابون يعتمد اعتمادا كليا على كتابات أسلافه وعلى تقارير حملة أيليوس جاللوس على بلاد العرب بينما لايغفل ذلك فى وصفه المفصل والدقيق لمصر وسكانها.

فى هذا البحث سنركز ـ كما وعدنا فى المقال السابق المشار إليه – على المعلومات التى استقاها استرابون بشكل رئيسى من التقارير الرسمية التى صدرت عن حملة أيليوس جاللوس على جنوب بلاد العرب، وهى الحملة التى تمت مع بداية قيام الامبراطورية الرومانية وفى أوائل عهد مؤسس هذه الامبراطورية اكتافيانوس الملقب أوغسطس أى المبجل .(Octavianus Augustus)

وبلاد العرب عامة وجنوبها بوجه خاص كان باستمرار ومنذ أقدم العصور مثالا للثراء الوفير والغنى الجم أو هكذا أشيع عنها بين الاقدمين وقد أدت هذه الشهرة الى خلق الأطماع فيها وإثارة الرغبة فى الاستحواز على ثرواتها من قبل القوى الكبرى المتصارعة فى العالم القديم آنذاك.وقد ظهر صدى هذا الغنى وذاك فى الكتب السماوية. ففى القرآن الكريم نجد طائر الهدهد يخاطب سيدنا سليمان[٦] عليه السلام والذى عرف عنه أن يعرف لغة الطير ـ فيقول[٧] فمكث

---

(٤) هذا الرأى يؤيده أيضاً Nigl Groom. فى كتابه Frankincense and Myrrh (Longman, London and New York, 1981, P73).

(٥) الكتاب السابع عشر من جغرافية استرابون.

(٦) يرجح علماء التاريخ والاديان ان عهد الملك النبى سليمان عليه السلام فى القرن العاشر قبل الميلاد (أنظر: الديانة العربية قبل الاسلام لمؤلفه د. محمد بيومى مهران ص ٢٢).

(٧) القرآن الكريم، سورة النمل من آية ٢٢ حتى آية ٢٥ .

غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم مايخفون ومايعلنون، . وفى مكان يقول تعالى[٨] ،لقد كان لسبأ فى مسكنهم أية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، .

وعندما غزا الاسكندر الاكبر المقدونى الشرق ابتداء من عام ٤٣٣ ق.م حاول هو الآخر أن يغزو شبه الجزيرة العربية نظراً لأهيمتها الاقتصادية والاستراتيجية حتى قيل[٩] إنه فكر فى جعل عاصمة ملكه فيها.

ويؤكد الجغرافى أجاثارخيدس[١٠] فى كتابه عن البحر الأحمر[١١] أنه لاتوجد أمة أكثر ثراء من السبئيين وأهل جرهة، الذين كانوا يتعاملون فى كل شئ يتصل بالتجارة بين آسية وأوربية.

ويقول المؤرخ دويودوروس الصقلى فى هذا الصدد[١٢] ،تتفوق قبيلة أو قوم السبئيين ليست فقط على ماجاورهم من العرب بل أيضا على جميع الشعوب الأخرى فى الثراء والمفاخر الأخرى، .

أما الجغرافى استرابون، موضوعنا فى هذا البحث، فإنه يصف ثراء بلاد

---

(٨) القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية ١٥ .

(٩) أنظر استرابون، الجغرافيا ١٦-٤-٢٧، قارن أريانوس حياة الاسكندر الكتاب ٧ فصل ١٩ .

(١٠) أزدهر أجاثار خيديس فى القرن الثانى قبل الميلاد. ونقل عنه استرابون الكثير.

(١١) K. Mueller, Geographici Graeci Minores (Paris, 1882 Chap. 10).

(١٢) ديودروس الصقلى (ازدهر فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد)، المكتبة التاريخية، الكتاب الثالث، فصل٤٧ .

العرب فى أكثر من موضع فى مؤلفه. ففى الكتاب الأول، بعد أن يقرر أنه فى أيام الشاعر هوميروس (نظم شعره فى حوالى القرنين التاسع أو الثامن قبل الميلاد) لم تكن بلاد العرب غنية[١٣] وبالتالى لم تكن مشهورة، وهذا ما يفسر عدم معرفته بها معرفة جيدة، يقول استرابون[١٤] : «أما الآن (يقصد فى عصر استرابون) من المؤكد، أضحى العرب ميسورى الحال وحتى أثرياء، لأن تجارتهم واسعة ووافرة، لكن من غير المحتمل أن الوضع كان كذلك فى أيام هوميروس. وفيما يتصل بالتجارة فى الطيوب، فإن التاجر أو الحمال (المشتغل بعملية نقل الطيوب) قد يصل إلى نفس درجة الثراء من التجارة أو من نقل هذه الطيوب. وفى مكان آخر يتحدث استرابون[١٥] وهو ينقل عن سلفه أرتميدودورس فيقول: «ومن نقل هذه التوابل والطيوب أضحى السبئيون وأهل جرهه أغنى الناس قاطبة، وامتلكوا أعظم المعدات المصنوعة من الذهب». وفى فقرة ثالثة يبدأ استرابون وصفه لمجريات حملة صديقه أيليوس جاللوس على جنوب شبه الجزيرة العربية بقوله[١٦] : «اتضحت كثير من الملامح الخاصة لبلاد العرب نتيجة للحملة القريبة العهد التى جردها الرومان على بلاد العرب، تلك الحملة التى تمت فى زمنى (أى زمن استرابون فى حوالى ٢٥ ق.م) بقيادة أيليوس جاللوس:

(١٣) الواقع أن هذا الكلام يتناقض مع ما جاء ذكره فى القرآن الكريم عن ثراء قوم سبأ فى وقت حكم النبى الملك سليمان بن داود عليهما السلام وهو ما سبق الإشارة إليه، وهو سابق أو معاصر لتاريخ هوميروميرس، والأرجح فى رأيى أن اليونان لم تكن لهم دراية آنذاك ببلاد العرب وهى أبعد بلاد العالم المتحضر كما يقول هيرودوت (الكتاب الثالث الفصل ١٠٧).

(١٤) استرابون ١ - ٢ - ٣٢ .

(١٥) استرابون : ١٦ - ٤ - ١٩ .

(١٦) نفس المؤلف: ١٦ - ٤ - ٢٢ .

Πολλὰ δὲ καὶ ἡ τῶν 'Ρωμαίων ἐπὶ τοὺς Ἄραβας στρατεία νεωστὶ γενηθεῖσα ἐφ' ἡμῶν, ὧν ἡγεμὼν ἦν Αἴλιος Γάλλος, διδάσκει τῶν τῆς χώρας ἰδιωμάτων.

مما سبق ذكره يتضح من كلام استرابون أن هذه الحملة أضافت إلى معلومات الباحثين والعلماء آنذاك نتيجة لما تجمع لديهم من تقارير عن هذه الحملة لكنها على غير المتوقع كانت إضافات طفيفة كما قلنا فى حديث سابق(١٧) .

يستطرد بعد ذلك كاتبنا معدداً الأسباب والدوافع التى أدت إلى شن الحملة المذكورة. وهو حديث يظهر صارحة استرابون المعهودة – فيقول(١٨): «فقد أرسله جاللوس القيصر أوغسطس لإكتشاف القبائل والأماكن، ليس فقط فى بلاد العرب، بل أيضاً فى أثيوبية(١٩) ، حيث لاحظ قيصر أن بلاد ساكنى الكهوف (Trgglodytes) وهم سكان الساحل الشرقى للسودان وأريترية والصومال المتاخمة لمصر تقترب من بلاد العرب، ولذلك أن الخليج العربى (البحر الأحمر بمفهومه الضيق)، الذى يفصل العرب عن ساكنى الكهوف، ضيق للغاية. بناء عليه اختمر فى ذهنه هدف كسب العرب الى جانبه (سلما) أو اخضاعهم (بالقوة

(١٧) قارن أيضاً . Bunbury, A History of Ancient Geography, Vol. II. P. 320

(١٨) استرابون نفس المكان السابق.

(١٩) المقصود بأثيوبية فى كتابات اليونان والرومان: المنطقة الواقعة جنوب مصر وحتى تنزانية، والاثيوبيون يعنى الوجوه السمراء البنية التى لوحتها الشمس وهى تقابل بلاد السودان بمفهومها الواسع عند العرب الأقدمين.

المسلحة) . وهناك إعتبار آخر وهو الفكرة التى ذاعت[٢٠] طوال الزمن من أنهم قوم أغنياء جداً، وأنهم كانوا يبيعون الطيوب وأنفس الأحجار مقابل الذهب والفضة، ولكنهم كانوا لا ينفقون أى شئ مما حصلوا عليه من الأجانب، لأنه (أى آغسطس) توقع إما أن يتعامل مع أصدقاء أثرياء (عن طريق المحالفة) أو أن يسيطر (عن طريق الحرب) على أعداء أغنياء وشجعه على ذلك أيضاً توقع المساعدة من الأنباط، لأنهم كانوا على لات صداقة به ووعدوه بالتعون معه بكل وسيلة.

τοῦτον ὁ ἔπεμψεν ὁ Σεβαστὸς Καῖσαρ διαπειρασόμενον τῶν ἐθνῶν καὶ τῶν τόπων τούτων τε καὶ τῶν Αἰθιοπικῶν, ὁρῶν τήν τε Τρωγλοδυτικὴν τὴν προσεχῆ τῇ Αἰγύπτῳ γειτονεύουσαν τούτοις, καὶ τὸν Ἀράβιον κόλπον στενὸν ὄντα τελέως τὸν διείργοντα ἀπὸ τῶν Τρωγλοδυτῶν τοὺς Ἄραβας· προσοικειοῦσθαι δὴ διενοήθη τούτους ἢ καταστρέφεσθαι. ἦν δέ τι καὶ τὸ πολυχρημάτους ἀκούειν ἐκ παντὸς χρόνου, πρὸς ἄργυρον καὶ χρυσὸν τὰ ἀρώματα διατιθεμένους καὶ τὴν πολυτελεστάτην λιθίαν, ἀναλίσκοντας τῶν λαμβανομένων τοῖς ἔξω μηδέν· ἢ γὰρ φίλοις ἤλπιζε πλουσίοις χρήσεσθαι ἢ ἐχθρῶν κρατήσειν πλουσίων. ἐπῆρε δ' αὐτὸν καὶ ἡ παρὰ τῶν Ναβαταίων ἐλπίς, φίλων ὄντων καὶ συμπράξειν ἅπανθ' ὑπισχνουμένων.

(٢٠) قارن ما قاله هيرودوت وآجاثار خيديس وادتميدوروس ودبودودوس الصقلى فى هذا الخصوص فيما ورد أعلاه.

لاستكشاف ومعرفة الشعوب والقبائل وطبيعة سواحل البحر الأحمر وهى بالتالى وسيلة وغاية لتأمين الطريق التجارى البحرى مع شرق أفريقية وبلاد العرب والهند التى سنلاحظ أن التجارة معها ستزداد وتنشط فى عصر الإمبراطورية الرومانية[٢١]. وثانى السببين لشن الحملة هو أن الرومان وفى مقدمتهم الامبراطور أوغسطس بالذات قد تأثروا بما قرأوه وبما سمعوه عن ثراء جنوب بلاد العرب التى أطلق عليها بإستمرار بلاد العرب السعيدة أو المزدهرة[٢٢]. بسبب ثرائها فى الطيوب والبخور والمعادن النفيسة، من تجارتهم مع البلاد الأجنبية فى الشرق والغرب. ولذلك عقد الرومان العزم على الاستحواز على ثروة تلك البلاد بأية وسيلة سلماً أو حرباً. وقد اعتمدوا فى تحقيق مآربهم على قوتهم الذاتية الى جانب توقعهم تلقى المساعدة من أصدقائهم عرب الشمال، وهم الأنباط الذين كانوا على علاقات تحالف مع الرومان[٢٣].

كان إعتماد الرومان على توقع المساعدة المجردة من عرب الأنباط لهم ضد بنى جلدتهم عرب الجنوب أول خطأ جسيم وقعوا فيه. فقد فاتهم أن العرب الشمال هم أخوة لعرب الجنوب، وبالتالى فمن المؤكد - كما يتضح بشكل جلى

(٢١) قارن بلبنيوس الأكبر: التاريخ الطبيعى الكتاب السادس، فصل ٢٦ فقرة ١٠١، قارن كذلك Bunbury المرجع السابق، ج٢ ٢٧، استرابون ص٣١٩ .

(٢٢) لقب اليونان جنوب بلاد العرب (اليمن حالياً) Arabia Eudaimon ثم ترجمها الرومان Aabia Felix ومعناها بلاد العرب السعيدة أو الميسورة والمزدهرة اقتصادياً.

(٢٣) نلاحظ هنا أن الرومان كانوا حتى هذه اللحظة لم يتمكنوا من السيطرة على الأنباط بل كان الأنباط على علاقات تحالف وصداقة مع الرومان. وأنهم لم ينضموا إلى الامبراطورية الرومانية إلا فى وقت متأخر وذلك فى أوائل القرن الثانى الميلادى (انظر ..
Pierre Grimal and others, Hellenism and the rise of rome, P. 290, cf. also Nigel Groom, op. cit., pp. 202,203)

مما يقوله استرابون بعد ذلك – ألا يسلم الأنباط أشقائهم عرب اليمن إلى الأجانب وهم الرومان. فسرعان ما تكشفت الحقائق أمام قائد الحملة أيليوس جاللوس، وأنه بدلاً من مد يد المساعدة للرومان فى إنجاحهم حملتهم، استطاع الوزير العربى النبطى سولايوس[٢٤] Syllaios أن يضللهم وأن يجعلهم يتكبدون خسائر فادحة. يقول استرابون فى هذا الصدد بناءً على هذه الاعتبارات بدأ جاللوس حملته، لكنه وقع ضحية لخديعة من قبل مساعدة النبطى سولايوس، الذى على الرغم من أنه كان قد وعد بإرشادهم فى زحفهم ويمدهم بكل احتياجاتهم وبمعاونتهم، تصرف بطريقة غادرة فى كل الأمور، فلم يشر عليهم بسلوك الطريق السليم المحاذى للساحل ولا بالدرب الآمن عبر البر، مضللاً أياهم عبر أصقاع لا تحوى طرقاً البتة أو عبر مسالك متعرجة وخلال بقاع خالية من كل شئ، أو عبر شواطئ صخرية تفتقر إلى وجود الموانئ أو خلال مياه ضحلة أو مملؤة بصخور قابعة تحت الماء، وخاصة وأنه فى أماكن من هذا القبيل كانت حركة المد وكذلك حركة الجزر تسبب أشد المحن،[٢٥] .

السبب الأول إذن وراء فشل الحملة الرومانية على بلاد اليمن يعود إلى اعتماد الرومان على ارشاد العرب المتمثل فى الوزير النبطى سولايوس لهم، وهذا لم يتم بالطريق الصحيح والسليم كما يذكر اسْترابون صراحة. أما السبب

(٢٤) نظراً لعجمة الاغريق وعدم قدرتهم على نطق الأسماء العربية نطقاً صحيحاً فإننا احترنا – كما احتار غيرنا – فى معرفة النطق السليم لاسم سولايوس Syllaios فقد ذكره أحد المراجع الأوروبية الحديثة على أنه شولاعى Pierre Grimal (Shyllay) نفس المصدر السابق ص٢٩٥، وسماه لطفى عبد الوهاب يحيى (العرب فى العصور القديمة ص٣٦٤) «الصلاء»، أما كاتب هذه السطور فيميل إلى القول بإن هذا الاسم إما أن يكون «الصولة» أو «شلويح» أو «صلويح» أو «الصل» وكلها أسماء عربية موجودة فى البلاد العربية.

(٢٥) استرابون ١٦ ، ٤ ، ٢٣ ،

الثانى فيعززه استرابون لجهل صديقه قائد الحملة ايليوس جاللوس بطبيعة البلاد التى سيغزوها. ويوضح الكاتب هذا عندما يقول[٢٦] «الخطأ الأول الذى وقع فيها جاللوس هو أنه بنى سفناً طويلة Makeaλoîa أى سفناً حربية[٢٧]. حيث لم تكن هناك حرب وقتذاك أو حتى لم تكن متوقعة، لأن العرب ليسوا محاربين ممتازين حتى على البر، بل بائعون (متنقلون) وتجار، ناهيك عن الحرب فى البحر (فهم يجهلونها)[٢٨] . لكن جاللوس لم يبن أقل من ثمانين سفينة من تلك الأنواع الثنائية والثلاثية[٢٩]، وقوارب خفيفة عند ميناء كليوبترس (أو هيرونبوليس وهى مدينة السويس حالياً) القريبة من القناة القديمة[٣٠] التى تمتد من النيل، لكنه عندما أيقن أنه خدع تماماً، بنى مائة وثلاثين سفينة من سفن النقل (ισKευaƒωγà) أبحر على ظهورها وبصحبته عشرة آلاف جندى من المشاة مكونين من الرومان فى مصر، وكذلك من حلفاء الرومان، الذين كان من بينهم

(٢٦) نفس المرجع السابق.

(٢٧) السفن الطويلة Makeaπλoîa هى ترجمة اللاتينية للكلمتين naves longae التى تعنى السفن الحربية وليست سفناً طويلة بالمعنى الحرفى للكلمتين.

(٢٨) لا يتفق ديودوروس الصقلى الذى كتب عام ٦٠ ق.م مع استرابون (٢٥ق.م) فى وصفه للعرب بأنهم قوم يجهلون الحرب على البر وفى البحر بل يصرح (المكتبة التاريخية ٢-١) بأن بلاد العرب كانت زاخرة بالرجال الشجعان، وبأن العرب قوم يعشقون الحرية ولا يقبلون الخضوع تحت أى ظرف من الظروف لحاكم أجنبى. وفى مكان آخر يقول (نفس المؤلف ٢-٥٤) أن العرب كانوا يحاربون من على ظهور جمالهم وكل جمل كان يحمل فوق ظهره رجلين يجلسان ظهراً إلى ظهر لمحاربة الأعداء القادمين من الأمام والمهاجمين من الخلف.

(٢٩) السفن القديمة أنواع منها المكون من طابق واحد من المجدفين، ومنها ثنائية وثلاثية الطبقات، والثلاثية أسرعها جميعاً، وهى التى طورتها أثينا إبان حرب الإغريق مع الفرس فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وكان لهذا التطوير أثر بالغ على هزيمة الفرس.

(٣٠) يتضح من كلام استرابون هذا أن هذه القناة لم يعد لها وجود فى عصره وإلا لذكرها صراحة ولكانت سفن الحملة قد استخدمتها فى حالة الحاجة الى تعزيزات من الإسكندرية أو روما مثلاً.

خمسمائة من اليهود، وألف رجل من (عرب) الأنباط تحت قيادة الوزير سولايوس وبعد محن ومصاعب جمة وصل بعد أربعة عشر يوماً إلى ليوكى كومى (القرية البيضاء – الحوزاء حاليا)، فى أرض الأنباط، وهى ميناء ضخم، على الرغم من أنه فقد كثيراً من سفنه، حتى أن بعض هذه السفن فقدت بمن عليها من بحارة وكل شئ فيها بسبب صعوبة الملاحة (فى القسم الشمالى من البحر الأحمر) وليس بسبب أى عدو وبالرغم من أن استرابون يتهم الوالى الرومانى ايللوس جاللوس قائد الحملة بأنه ارتكب خطأ جسيماً عندما وضع ثقته فى الوزير النبطى سولايوس، إلا أنه وبحكم صداقته لهذا القائد يحاول تبرئته من سوء التقدير من ناحية وبجهله بطبيعة البلاد التى كان يقصد غزوها من جهة أخرى ونراه ينحى باللائمة على الوزير النبطى سولايوس الذى يتهمه بالغدر والخيانة والتآمر وسوء القصد فى هذا الصدد: كان السبب فى ذلك (أى فى الخسائر التى لحقت بالجيش الرومانى) غدر سولايوس، الذى قال إنه لاتوجد طريق (أخرى) يسلكها الجيش إلى ليوكى لومى برا من البتراء الى هذا المكان (ليوكى كومى) فى أمان وسهولة، وبإعداد هائلة من الرجال والجمال لدرجة لايختلفون فيها بأى حال من الأحوال عن الجيش(٣١) .

ويعلل استرابون نجاح خطة الوزير سولايوس فى الإيقاع بالقائد الرومانى أيليوس جاللوس بتضليله وخداعه بسببين: أولهما هو أن الملك النبطى عبادة ترك زمام أمور الدولة. بما فيها المسائل العسكرية فى يد وزيره سولايوس، وثانيهما

(٣١) يشير استرابون إلى استخدام هذا الطريق فى مكان آخر من مؤلفه (١٦-٤-٢٤) انظر كذلك Ptolemaic Alexandria; Peter Fraser, Vol. II. p. 176 كما يشير القرآن الكريم إلى هذا الطريق فى سورة قريش ورقمها ١٠٦، وكان النبى (ﷺ) يسافر إلى بلاد الشام سالكاً نفس الطريق إبان عمله فى التجارة نيابة عن السيدة خديجة رضى الله عنها.

نتج عن دهاء سولايوس وتفوقه على إيليوس جاللوس فى النواحى الاستراتيجية والعسكرية وكل شئ. فى هذا الصدد يقول استرابون(٣٢):

«مر هذا الأمر (أى خداع سولايوس لجاللوس) لأن الملك عبادة لم يكن يولى اهتماماً كثيراً للشئون العامة، خصوصاً للنواحى العسكرية (وهذا مسلك عام لجميع ملوك العرب)، ولأنه ترك كل شئ فى يدى سولايوس، ولأن سولايوس تغلب بوسيلة غادرة على جاللوس فى الناحية الاستراتيجية فى كل شئ.

يحق لنا أن نسأل هنا عما يعنيه استرابون عندما يذكر أن الملك عبادة شأنه فى ذلك شأن كل الملوك العرب، لم يهتموا بالشئون العامة بما فيها النواحى العسكرية. أيعنى هذا القول أن هؤلاء الملوك كانوا يهتمون فقط بمصالحهم الخاصة وأمور حياتهم الذاتية تاركين شئون الدولة لوزرائهم وعمالهم؟ أم أنهم كانوا ملوكاً ديموقراطيين يملكون ولا يحكمون مثل ملوك الدول الديمقراطية فى العصور الحديثة؟ فى رأى كاتب هذا البحث يبدو الإحتمال الثانى أكثر رجحاناً خصوصاً وأن استرابون نفسه يمتدح(٣٣) ملوك الأنباط، ويثنى على روحهم الديمقراطية وتواضعهم الجم، وخضوعهم للمحاسبة أمام مجالسهم وجمعياتهم الشعبية.

ويطلعنا استرابون على معلومة فى غاية الأهمية والإثارة تتعلق بالهدف الذى رسمه سولايوس لنفسه عندما اشترك فى حملة أيليوس جاللوس فيقول(٣٤):
«كان سولايوس يهدف، على ما اعتقد (والكلام على لسان استرابون)، إلى

(٣٢) استرابون: ١٦-٤ - ٢٤ .
(٣٣) استرابون: ١٦ - ٤ - ٢٦ .
(٣٤) استرابون: ١٦ - ٤ - ٢٤ .

استطلاع البلاد بمساعدة الرومان بهدف تدمير بعض مدنها وقبائلها، ثم ينصب نفسه سيداً على الجميع، بعد أن يكون قد قضى على الرومان بسبب الجوع والإرهاق والأمراض وكل المصائب التى دبرها سولايوس للغدر بهم».

كان سولاسيوس إذن رائداً للوحدة العربية، أى أنه سبق إلى المناداة بتوحيد شبه الجزيرة العربية التى بذلت محاولات عديدة لتحقيقها[٣٥] حتى قيض الله لها أن تتحقق بعد ظهور الإسلام وانتشاره فى طول البلاد وعرضها.

يستأنف استرابون حديثه عن سير الحملة بعد أن عانت ماعانت من مخاطر الملاحة فى خليج السويس وعبر القسم الشمالى من البحر الأحمر، وبعد أن دمر قسم كبير من سفنه بمن فيها من جنود وما بها من عتاد بالإضافة إلى ما أصابهم من جوع وإرهاق وأمراض.

يقول المؤلف[٣٦] : «على أية حال بقى جاللوس فى ليوكى كومى بعد أن ابتلى جيشه آنذاك بمرض الشلل والعرج فى الأرجل وهما مرضان محليان، يظهر الأول نوعاً من الشلل حول الفم بينما يصيب الآخر الأرجل بالعرج، كلاهما ينتج من تناول الماء والأعشاب المحلية. وعلى كل الأحوال اضطر جاللوس إلى قضاء فصلى الصيف والشتاء[٣٧] هناك فى انتظار المرضى أن يتماثلوا للشفاء».

(٣٥) عن المحاولات التى بذلت لتكون ممالك وإمارات فى شبه الجزيرة العربية وبالتالى إلى قيام وحدة شاملة فى المنطقة قبل الإسلام. انظر كتاب لطفى عبد الوهاب يحيى: العرب فى العصور القديمة من ص ٣٤٥ إلى ص ٣٥٤ .

(٣٦) استرابون: نفس المكان السابق.

(٣٧) يلاحظ هنا أن الكاتب هو جغرافى مدقق يتحدث عن فصلى الصيف والشتاء ولم يذكر فصل الخريف الذى يتوسطهما. هل فطن الكاتب إلى ملاحظة أن منطقة البحر الأحمر لا تعرف الفصول الأربعة كما هو الحال فى المناطق المعتدلة. بل أن المنطقة المذكورة لا تشهد غير فصل صيفى طويل وفصل شتوى قصير. وهذا ما يعتقد كاتب هذه السطور أن استرابون قصده.

ولا يفوت كاتبنا الذى عرف عنه دقة الملاحظة أن يسجل هنا[٣٨] حقيقة مهمة تتصل بمدينة وميناء ليوكى كومى كمركز تجارى تتجمع عندها قوافل الجمال المحملة بالطيوب وغيرها من السلع، ومنها تنقل هذه الأحمال الى البتراء، حاضرة الأنباط، ومن هناك إلى رينوكولورة[٣٩] . Rhinocolura وهى العريش الآن) التى تقع فى فينيقية بالقرب من مصر، ثم ينقل من هناك إلى الشعوب الأخرى. وهنا يضيف استرابون ملاحظة أخرى فيقول[٤٠] إنه فى عهده (أى فى أوائل عصر الحكم الرومانى فى مصر) أصبحت البضائع فى معظمها تنقل عن طريق النيل إلى الإسكندرية، فبعد وصول البضائع إلى ليوكى كومى تفرغ (البضائع الواردة) من بلاد العرب والهند (فى سفن تنقلها من ليوكى كومى عبر البحر الأحمر) فى ميناء ميوس هرموس (ميناء أبو شعر القبلى على الساحل المصرى)، ثم يتم نقلها على ظهور الجمال إلى مدينة قفط (Koptos فى وادى النيل) فى منطقة طيبة وهى تقع على قناة (موصلة إلى النيل) ومن هناك إلى الإسكندرية (عن طريق النيل).

بعد هذا الاستطراد يواصل استرابون وصفه لمسار الحملة داخل بلاد العرب قائلاً[٤١]: «ومرة أخرى حرك جاللوس جيشه من الحوراء وزحف عبر مناطق

(٣٨) استرابون: نفس المكان السابق.

(٣٩) ومعناها مدينة ذوى الأنوف المقطوعة. وقد جاءت هذه التسمية كما تقول القصة التى رواها كل من ديودوروس الصقلى: الكتاب الأول فصل ٦٠، واسترابون ١٦-٢-٣١ من أن الملك الاثيوبى (النوبى) شاباكا Shabaka الذى حكم مصر إبان حكم الاسرة النوبية، كان ينفى إليها ما يقبض عليهم من المجرمين واللصوص بعد جذع انوفهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم ويكونوا معروفين لدى الآخرين.

(٤٠) استرابون: نفس المكان السابق.

(٤١) استرابون: نفس المكان السابق.

معينة حتى أن الماء كان يلزم نقله بالجمال بسبب سفالة الأدلاء[٤٢] ، لهذا السبب استغرق السير أياماً كثيرة للوصول إلى أرض (الملك) الحارث (Aretas) وهو من أقارب الملك عبادة، فى هذا المكان استقبله الحارث استقبالاً ودياً وقدم إليه الهدايا، لكن غدر الوزير سولاسوس جعل الرحلة عبر ذلك الإقليم صعبة كذلك، وعلى أية حال، تم اجتياز المنطقة فى ثلاثين يوماً، وهذه المنطقة لا تنتج سوى الذرة (Zeia) فقط، وينمو فيها القليل من نخيل البلح، وتنتج الزيدة الحيوانية بدلاً عن الزيت، (أو السبب فى طول الوقت الذى استغرقته الرحلة عبر هذا الإقليم)، وهو لأنهم مروا عبر أصقاع تخلوا من الطرق الممهدة.

فى الفقرة السابقة تستوقفنا عدة ملاحظات حول كلام الكاتب منها جهله بالمنطقة التى مرت بها الحملة الرومانية بعد مغادرتها ليوكى كومى، فهو لا يذكر أى مدينة من المدن بل اكتفى بالقول إن المنطقة يحكمها الملك الحارث وهو قريب عبادة ملك البتراء، وهذا يفسر فى رأيى الاستقبال الودى الذى قوبل به جاللوس وصحبه من قبل هذا الأمير، الذى يحكم منطقة كانت إما مستقلة أو أنها كانت تشكل جزءاً من مملكة الأنباط، حلفاء الرومان وأصدقاؤهم. شئ آخر نلاحظه هو استمرار استرابون فى هجومه على الوزير سولايوس متهماً إياه بالغدر والخيانة المتعمدة لأهداف الرومان الذين وثقوا به واعتمدوا عليه، وهذا التحامل من جهة استرابون على سولايوس منطقى وطبيعى لأنه صديق لقائد الحملة ومواطن رومانى. ولكنه من وجهة نظر محايدة موقف متحيز ويبدو هذا التحيز فى تجاهله للوجه الآخر من القضية، وهو ما اعترف به الكاتب صراحة قبل ذلك عندما صرح بأن سولايوس كان يريد توحيد قبائل العرب ومدنهم

(٤٢) مرة أخرى يشير إلى الوزير سولايوس ورجاله.

وقراهم تحت إمرته بعد أن يكون قد تم له إخضاعهم بمساعدة الجيش بتضليله عبر الطرق الصحراوية الوعرة والخالية من الماء وكل أسباب الحياة.

الملاحظة الثالثة هى أننا لا نستطيع أن نكّون فكرة واضحة عن منطقة الحارث التى أشار إليها الكاتب. ولاندرى إن كانت هذه المنطقة هى الحجاز حيث واحة المدينة المنورة (يثرب آنذاك) أو مكة المكرمة حيث يقع وادى فاطمة على مقربة منها، وكلها مناطق تجود ببعض المحاصيل الزراعية وبنخيل البلح وبقدر معقول من الثروة الحيوانية، التى يحصل منها السكان على حاجاتهم من الزبدة واستخدامها بديلاً عن الزيوت النباتية كما يشير بذلك استرابون.

تواصل الحملة تحركها، فيقول الكاتب(٤٣): «الإقليم التالى الذى عبره جاللوس كان يقطنه قوم من البدو، وهو فى حقيقة أمره إقليم صحراوى فى معظمه، وكان يطلق على هذا الإقيم أرارنيه (Ararene)، ويحكمه الملك صعب (Sabos) وفى مروره خلال هذه المنطقة عبر جاللوس، أجزاء خالية من الطرق، وبعد أن قضى خمسين يوماً فى مسيرته، وصل بعدها إلى مدينة نجران».

فى الفقرة السابقة من وصفه يطلعنا استرابون على بعض المعلومات: منها أن المنطقة التى عبرها الجيش الرومانى هذه المرة صحراوية فى معظمها ويسكنها قوم من البدو، ويقول إن اسمها أرارينة ونحن لانستطيع تحديد هذا الاسم بشكل دقيق فلربما كان عرعر أو عرار وكلها أسماء معروفة فى شبه الجزيرة العربية. كذلك لم يحدثنا استرابون عن ملك تلك المنطقة صعب وموقفه من الحملة، كما هو الحال عندما ذكر إقليم الملك أو الأمير الحارث وكيف أنه من

(٤٣) استرابون: نفس المكان السابق.

أقرباء عبادة ملك البتراء وبالتالى فهو حليف للرومان، أما عن صعب فقد لزم الكاتب الصمت. على كل حال يبدو جلياً أن المنطقة التى كانت تحت نفوذ صعب لم تكن خاضعة للأنباط وإلا لكان استرابون ذكر ذلك. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هناً هو هل كان إقليم أرانيه الذى يحكمه صعب محايداً فى موقفه من هذه الحملة؟ هنا لانجد إجابة صريحة من الكاتب، لكننا نستطيع الاستنتاج من أن سكوت استرابون عن تبيان موقف صعب أنه (أى صعب) إلتزم الحياد فعلاً، وإلا فلماذا إذن لم يرحب بمقدم الجيش الرومانى إذا كان مؤيداً كما فعل الحارث أو لماذا لم يتصدى له ويقاومه إذا كان معارضاً لزحفه كما فعل عرب الجنوب بعد ذلك؟.

بعد ذلك، يخبرنا استرابون «وصل (الجيش) الى مدينة نجران (Ne-grani) وإلى إقليم يسود ربوعه السلام ويمتاز بخصوبته، وهنا هرب الملك (يقصد حاكم نجران) وتم الاستيلاء على المدينة فى أول هجوم».

فى نجران إذن، حسب رواية استرابون، اختلف الوضع عنه فى أرانية منطقة نفوذ صعب، ففى هذه المنطقة الأخيرة لم يعترض الملك سبيل الحملة بينما فى الأولى تحدد بداية الصراع بين عرب الجنوب والغزاة الرومان، لكن للأسف لم يبذل ملك نجران أية مقاومة للغزو، بل نجده على عكس ما كان متوقعاً منه يتخلى عن قومه ويلوذ بالفرار تاركاً مدينته تفتح للغازى أبوابها بدون بذل أدنى مقاومة.

بعد نجران، على كل حال، يواجه الجيش الرومانى مقاومة حقيقة من أهل الجنوب العربى، فى هذا الصدد يقول استرابون[٤٤]: «ومن هناك (من نجران)

(٤٤) استرابون: نفس المكان السابق.

وصل (جاللوس) إلى النهر (لم يذكر استرابون اسم هذا النهر) بعد ستة أيام، فى هذا المكان اشتبك البرابرة(٤٥) (يقصد العرب) فى معركة مع الرومان، فسقط منهم حوالى عشرة آلاف قتيل، بينما لم يفقد الرومان غير فردين فقط، لأنهم (أى العرب) لم تكون لديهم دراية بإستعمال السلاح، لكونهم غير لائقين البتة للحرب، فقد كانوا يستخدمون الأقواس والحرب والسيوف والمقاليع، وإن كان معظمهم يستعمل البلطة، بعد ذلك مباشرة استولى على المدينة المسماة أسكة (Aska) وهى نشق(٤٦) التى كان ملكها قد هجرها، ومن هناك زحف صوب مدينة تدعى اثرولة (Athrula) وهى ياثل، وبعد أن سيطر عليها بدون قتال، ترك حامية فيها، وقام بعمل الترتيبات لمؤنة من القمح والتمر استعداداً لمواصلة الزحف، ثم تقدم اتجاه (مدينة مارسيابه Marsiaba أى مأرب) التى تتبع قبلية (قوم، عشيرة) ردمان (Rhammanitae) رعايا (الملك) الأعصر أو الاعسر أو العسيرى(٤٧) (Lliasaros) عندئذ هاجم أيليوس جاللوس المدينة وحاصرها لمدة ستة أيام، لكنه انسحب منها نظراً لنقص ما لديه من امدادات المياه، لقد كان فى الحقيقة على مسيرة يومين فقط من المنطقة التى تنتج الطيوب (وجهته ومقصده) كما أبلغه أسراه، ولكنه كان قد قضى ستة أشهر فى زحفه (إلى أن وصل إلى هذه المنطقة) بسبب فساد الدليل، ولقد عرف أيليوس الحقيقة عندما قفل راجعاً، وعندما أبلغ مؤخراً بالمؤامرة (التى حيكت) ضده، وفى طريق

(٤٥) تعنى كلمة (Barbaroi) فى اللغة اليونانية القديمة وما يقابلها فى اللغة اللاتينية "Barbari" أولئك الذين يتكلمون لغة غير مفهومة لهم، من ثم تعنى الأجانب، وهى تساوى عند العرب كلمة الأعاجم. والكلمة فى الأصل لم تكن تحتمل المعنى السئ الذى اكتسبته بعد ذلك فى اللغات الأوروبية الحديثة.

(٤٦) أنظر Pierre Grimal, op. cit. p. 295 كذلك Nigel Groom

(٤٧) قد يعود تسمية منطقة عسير (والعسيرى) الحالية op.cit., p. 186 إلى هذا الرجل.

العودة سلك طرقاً أخرى (غير التى جاء منها) لأنه فى اليوم التاسع (من مغادرته لمأرب) حل بنجران حيث حدثت المعركة».

فى القتال الذى دار بين العرب من جهة والرومان وحلفائهم من جهة أخرى قرب مدينة مأرب يبرز استرابون تفوق الرومان على أعدائهم سواء من ناحية الإعداد الجيد أو التسليح المتطور(٤٨). أضف إلى ذلك أن معظم الحكام العرب تخلوا عن مواطنيهم فى وقت الشدة كما حدث عندما هرب ملكا نجران ونشق. وهذا ولاشك أدى إلى إضعاف الروح المعنوية للسكان هنا. ومع ذلك يعترف استرابون بأن العرب قاتلوا ببسالة عند نجران وأوقعوا بالرومان بعض الخسائر. من جهة أخرى يبدو أن السكان العرب أخذوا فى معظم الأحيان على غرة.

هذه الأسباب مجتمعة تعزز رأينا فى أن المعركة بين الطرفين لم تكن متكافئة.

ومع ذلك فإنه بالرغم من انتصارات الرومان فى وبالقرب من نجران وفى نشق وبائل إلا أنهم فشلوا فى اقتحام مدينة مأرب. وهذا الفشل يعزوه المؤلف إلى نقص فى إمدادات المياه لدى الرومان وهو غير صحيح إلى حد بعيد. فالمنطقة التى تقع فيها مدينة مأرب تعد من أخصب بقاع بلاد العرب وبها ينابيع عديدة وغزيرة المياه(٤٩) لكن استرابون - وهو متعاطف مع

(٤٨) كان الرومان يتفاخرون بأنهم أمة محاربة وهم يزعمون بأنهم انحدروا من مارس إله الحرب عندهم. والمعروف أن الشعب الرومانى اعتمد منذ بداية تأسيس دولته فى روما على إعداد نفسه للحرب والقتال ومن ثم الغزو والتوسع. وكان جنودهم محترفين يقضون حياتهم فى التدريب الشاق ومزاولة الحرب الفعلية وهذا سر انتصاراتهم المتكرر وحروبهم العديدة.

(٤٩) انظر Nigel Groom, op. cit., p. 75

الرومان بحكم وضعه وصداقته لقائد الحملة - ربما لم يشأ القول أن الرومان وجدوا فى مأرب الصخرة الصلبة التى تحطمت عليها أحلامهم بعد أن صمدت أمام حصارهم ستة أيام. فلو كان لدى الرومان مقدرة حقيقية لما استطاعت هذه المدينة الصمود فى مواجهتهم ولاستمروا فى زحفهم لبلوغ هدفهم فى الاستيلاء على جنوب شبه الجزيرة العربية الغنية بمنتجاتها من الطيوب والتوابل والبخور والمعادن النفيسة خصوصاً وأنهم علموا من أسراهم، كما يشير استرابون، بأنهم باتوا على مسافة قريبة منها قدرها الكاتب بمسيرة يومين فقط، ويعلق استرابون[٥٠] على سبب انسحاب الرومان وتراجعهم عن مواصلة الحملة إلى ما عانوه من ويلات فى طريق زحفهم من أمراض خطيرة وأوبئة فتاكة ووعورة فى المسالك وطول الوقت الذى استغرقه زحفهم وهو ما يعزوه الكاتب إلى تضليل سولايوس المتعمد لهم. وقد تكشف صحة هذا الإدعاء لدى جاللوس فى طريق العودة وقد أبلغ ساعتها بالمؤامرة التى حيكت ضده من هذا الوزير المسئول عن ارشاد الحملة وتدبير وسائل الإنتقال لها. فعندما تنبه جاللوس لذلك سلك طرقاً مغايرة تماماً لتلك التى جاء منها. وقد تأكد للقائد الرومانى صحة المؤامرة النبطية عندما استغرقت رحلة العودة من مأرب إلى ميناء الحجر (Egra الوجه حالياً) وهى تقع إلى الشمال من ليوكى كومى التى بدأ منها الزحف ستين يوماً فقط فى حين قضى ستة شهور فى طريق الذهاب.

يقول استرابون عن طريق العودة[٥١] : «عرف «أيليوس» الحقيقة عندما قفل راجعاً، وبعد ما أحيط علماً مؤخراً بالمؤامرات التى دبرت ضده سلك فى طريق العودة مرة أخرى، لأنه حل فى اليوم التاسع بنجران، حيث نشبت

(٥٠) استرابون : نفس المكان السابق.

(٥١) استرابون: نفس المكان السابق.

المعركة (أول معركة يخوضها الرومان ضد العرب)، ثم فى اليوم الحادى عشر (وصل) إلى المنطقة المسماه «الآبار السبعة» كما كان يطلق عليها، من كون أنه وجدت فى هذا المكان سبعة آبار، ومن هناك، أخيراً سار خلال منطقة آمنة، فوصل إلى قرية شالة (شعلة Chaala)، وكذلك إلى قرية أخرى يقال لها مالوثة (MAlotha)، وهى تقع على مقربة من نهر، وبعدها سار عبر منطقة صحراوية، ليس فيها إلا مصادر قليلة للمياه، حتى حل فى قرية تسمى الحجر. وهى تقع ضمن أراضى عبادة (ملك الأنباط) وتطل على البحر الأحمر وفى طريق العودة أكمل (ايليوس) رحلته كلها فى ستين يوماً، فى حين أنه قضى فى رحلة الذهاب ستة أشهر، ومن هناك نقل (بالسفن) جيشه إلى ميناء ميوس هرموس (ميناء أبى شعر القبلى على ساحل البحر الأحمر من الجانب المصرى) فى أحد عشر يوماً، وسار براً (بقوافل الجمال) إلى قفط (فى وادى النيل)، وصل ومعه جميع الذين واتاهم الحظ الكافى للنجاة إلى الاسكندرية (عن طريق النيل). أما البقيّة (من رجاله) فقد فقدهم لافى الحرب ولكن بسبب المرض والإرهاق والجوع وسوء الطرق، لأنه لم يمت فى هذه الحرب سوى سبعة رجال، لهذه الأسباب، أيضاً لم تضف هذه الحملة إلى حد بعيد إلى معرفتنا بتلك المناطق، لكنها مع ذلك أسهمت إسهاماً طفيفاً فى هذه المعلومات. من جهة أخرى نال الرجل الذى كان مسئولاً عن هذا الفشل وأعنى به سولايوس، عقوبته فى روما، حيث على الرغم من تظاهره بالصداقة (لروما) تمت محاكمته وإدانته بالإضافة إلى صفاقته فى هذا الأمر، بمخالفات أخرى، وأعدم بقع رأسه.

مما سبق نلاحظ أن أيليوس بعدما علم بتآمر سولايوس عليه لإفشال حملته توقف عن استخدامه دليلاً له ومرشداً فى طريق العودة مع أن استرابون

لم يصرح بذلك ولم يقل لنا أى شئ عن رد فعل جاللوس عندما عرف خيانة حليفه النبطى، ولم يتعرض لسولايوس إلا عندما أبلغنا بإدانته فى روما وإعدامه. فهل قبض أيليوس على سولايوس فى طريق العودة؟ وأين ومتى؟ المثير للملاحظة أن استرابون لزم الصمت حيال هذا الموضوع.

الذى يلفت النظر هنا أن نجد أيليوس جاللوس يسلك فى طريق الإنسحاب طرقاً غير تلك التى سلكها فى طريق التقدم صوب الجنوب العربى، لدرجة أنه اختصر وقت العودة إلى الثلث. ففى حين قضى ستة أشهر فى الذهاب استغرقت رحلة الإياب ستين يوماً فقط حين قضى ستة أشهر فى الذهاب استغرقت رحلة الإياب ستين يوماً فقط هذا على الرغم من أنه تجاوز نقطة البدء (ليوكى كومى) ووصل إلى الحجر، إلى الشمال منها. يلاحظ كذلك أنه لم يواجه أية مقاومة فى طريق العودة ولم يجر أى اتصال لا بالملك الحارث ولا بغيره، فلربما يكون قد تلاقى أن يمر على مدن معادية. ونلاحظ أنه بسبب مالاقاه من صعوبة فى الملاحة فى القسم الشمالى من البحر الأحمر وفى خليج السويس نراه يعبر البحر الأحمر من الشرق (من الوجه) إلى ميناء ميوس هرموس على الساحل المصرى ويقطع المسافة فى أحد عشر يوماً، ومن هنا (بقوافل الجمال) عبر الصحراء الشرقية إلى مدينة فقط فى منطقة طيبة فى الصعيد الأعلى بمصر ومنها عن طريق قناة ملاحية موصلة إلى النيل ثم يركب النيل حتى الاسكندرية ومن هناك إلى روما عبر البحر الأبيض المتوسط.

لكن لماذا جعل أيليوس عودته من بلاد العرب ميناء الحجر مع أنه كما سبق القول كان أبعد نقطة من ميناء ليوكى كومى حيث ميناء الحجر إلى الشمال من ليوكى كومى؟ يمكننا أن نستنتج بسبب ذلك من كلام استرابون الذى

أوردناه فى بداية مقالنا هذا، وهو أيليوس كان قد تنبه إلى خطورة الأمراض المنتشرة آنذاك عندما وصل إلى ليوكى كومى خصوصاً بعد أن عانى منها فى بداية الحملة.

وهناك مسألة أخرى برزت فى كلام استرابون تتعلق بدور اليهود فى تلك الحملة، فقد استعان بهم الرومان وكانوا، كما يقول استرابون، كالأنباط حلفاء للرومان، ويتضح أيضاً أن اليهود كانوا أشد إلتصاقاً بالرومان وأقرب إليهم من عرب الأنباط، ويبدو أن الرومان كانوا بدورهم يفضلونهم عن العرب بدليل ورود ذكرهم فى كلام استرابون قبل العرب بالرغم من أن عدد اليهود الذين اشتركوا فى الحملة المذكورة بلغ نصف عدد عرب الأنباط فيها. فاليهود كانوا قبل الرومان بإستمرار يضعون أنفسهم تحت خدمة القوى الكبرى المسيطرة على المنطقة.

فقد فعلوا ذلك مع الفرس والبطالمة السلوقيين(٥٢) ، والملاحظ أن اليهود ظلوا طوال العصور فى اتباع نفس السياسة وهى الإلتصاق بالقوى الكبرى. فقد فعلوا ذلك مع الألمان وحاولوا نفس الشئ مع الدولة العثمانية لكنهم فشلوا ثم ارتبطوا بفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

نعود مرة أخرى لأخبار الحملة الرومانية، فقد لاحظنا فيما سبق أن سير الحملة توقف عند مدينة مأرب عاصمة السبئيين، بعدها قفل الرومان عائدين إدراجهم بعد أن صمدت المدينة لحصارهم الذى دام ستة أيام وعز عليهم اقتحامها عنوة. معنى ذلك أن الرومان لم تتح لهم الفرصة فى دخول بلاد اليمن الحقيقية ومن ثم لم يتمكنوا من معرفة تلك البلاد على الطبيعة وقد ذكر ذلك صراحة المؤلف كما أشرنا سالفاً. والذى أضاف أن الرومان استقرت معلوماتهم

عن تلك البلاد من أسراهم العرب.

مما سبق يتضح أن حملة الرومان بقيادة أيليوس جاللوس التى وجهوها للإستيلاء على بلاد العرب الجنوبية منيت بالفشل الذريع ولم تحقق أغراضها المنشودة. وتعود أسباب الفشل إلى أسباب وعوامل متعددة منها:

أولاً: سوء التخطيط للحملة من جانب الرومان كما أشار بذلك صراحة استرابون ويتمثل ذلك فى بناء سفن حربية كبيرة الحجم. بأعداد ضخمة مع أنها لم تكن ضرورية على الإطلاق نظراً لأن الصراع لم يكن فى البحر إنما على البر.

ثانياً: إقلاع الاسطول الرومانى من عمق خليج السويس فى الشمال ومروره بشمال البحر الأحمر المعروف بصعوبة الملاحة فيه إلى حد كبير وكان بالإمكان جعل السفر عن طريق النيل جنوباً وحتى قفط فى صعيد مصر ومن هناك عبر الصحراء إلى ميناء ميوسى هرموسى (أبو شعر القبلى) على البحر الأحمر ثم الإبحار من هناك إلى سواحل شبه الجزيرة العربية الغربى.

ثالثاً: نزول الجيش الرومانى فى ميناء ليوكى كومى (الحوراء) العربى النبطى والمنطقة كما يصفها الكاتب موبؤة بالأمراض المتوطنة التى فتكت بالعديد من رجال الحملة وقد استفاد الرومان من هذا درساً جلعهم يتفادون هذا الميناء فى طريق العودة. وهم منهكين مهزومين – يتعدونه شمالاً ويستخدمون ميناء الحجر (الوجه) نقطة انطلاقهم فى طريق العودة بحراً إلى الشاطئ المصرى المقابل عند ميناء هرموس. وهنا أيضاً استفادوا من تجربتهم فى طريق الذهاب فتفادوا منطقة الخطر المتمثلة فى خليج السويس.

رابعاً: اعتماد الرومان فى تعزيز قوتهم على الأجانب وعرب الأنباط

وعلى قيادة وارشاد الوزير العربى النبطى سولايوس، الذى - على حد زعم استرابون - غرر بهم فى مسالك ودروب وعرة وغير آمنة، لأنه كان يضمر لهم الهلاك والهزيمة، وفى نفس الوقت أراد الاستفادة لنفسه من هذه الحملة. فقد أراد سولايوس - بعد هلاك الرومان - أن يقيم لنفسه مجداً، ملكاً على حساب الرومان الذين وضعوا ثقتهم الكاملة فيه واعتمدا عليه. فخطط لتوحيد العرب الذين كانوا متفرقين فى دويلات وقبائل متناحرة كما هو واضح من وصف استرابون لهم. وهذه لعمرى فكرة رائدة لإقامة كيان عربى موحد. وقد اتضح جهل الرومان وقائد حملتهم جاللوس بجغرافية بلاد العرب وأحوالها عندما ساروا خلف سولايوس فى أرض قفراء وطرق وعرة ومتعرجة وأماكن خالية من المياه وأسباب الحياة.

خامساً: فالبرغم من أن حملة الرومان لم تجد مقاومة كافية فى المناطق التى جاست خلالها إلا أنها فى المرحلة الأخيرة وُجهت بأشد المقاومة وأعنفها بدءاً من نجران وانتهاءاً بمدينة مأرب عاصمة السبئيين التى صمدت لحصار الرومان مما اضطرهم لفكه والعودة من حيث أتوا يجرون أذيال الخيبة والفشل الذريع وبذلك لم يتحقق هدفهم الذى جردوا حملتهم من أجله ألا وهو الاستيلاء على جنوب شبه الجزيرة العربية ذات الصيت الواسع فى الغنى والثراء والمتحكمة كذلك فى طرق التجارة البرية والبحرية خصوصاً الطريق الذى يخترق البحر الأحمر وباب المندب والتى تنتقل عبره البضائع القادمة من بلاد الشرق كالهند وبلاد العرب وشرق أفريقية وغيرها.

ملاحظة أخرى ترتبط بتركيز الكاتب وصفه على الجانب الغربى لشبه الجزيرة العربية وهو تقليد دأب عليه الكتاب الكلاسيكيين بصفة عامة،

فاسترابون كغيره ركز على منطقتين اثنين من شعوب غرب الجزيرة ألا وهما الأنباط فى الشمال، وقد كانت حكومتهم وقت كتابة استرابون حليفة الرومان. وهو سبب رئيسى جعل حديثه عنهم يتسم بدرجة كبيرة من الدقة والوضوح، هذا إلى جانب كونها أقرب المناطق العربية إلى ولايات الامبراطورية الرومانية. فى حين ظهر فى وصف الكاتب لبلاد اليمن عدم توخى الدقة ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها أن معلومات استرابون عن بلاد العرب الجنوبية استقاها من مصادر مختلفة – لكتّاب اغريق سابقين عليه. وأن هذه المصادر كتبت فى فترات زمنية متباعدة مما يجعل صورة البلاد وأحوالها تبدو مختلفة ومتناقضة، أضف إلى ذلك أن استرابون نفسه – كما أسلفنا – لم يرافق الحملة كما سبق أن أشرنا. كذلك لم يدخل الرومان بلاد العرب الجنوبية بعد أن فشلت حملتهم المذكورة فى اقتحام مأرب عاصمة السبئيين. وهذا يفسر قلة المعلومات التى أضافتها الحملة عن هذه المنطقة المهمة من بلاد العرب.

ملاحظة أخرى يجدر بنا ذكرها وهى الأسباب التى جعلت الكاتب استرابون يركز على غرب الجزيرة فى حين لم يعر إلا الاهتمام القليل للمناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى الفارسى.

تفسير إهماله لهذه المناطق، فى رأيى – يعود إلى كون الخليج وشرق شبه الجزيرة بعيدين عن متناول الرومان نظراً لسيطرة دولة الفرثيين (Parthi) على شمال الخليج، وأن بلاد الرافدين كانت ضمن ممتلكاتهم، ولذها فقد تركزت اتصالات الامبراطورية الرومانية ببلاد الهند والشرق بصفة عامة فى طريق البحر الأحمر ومضيق باب المندب وبحر العرب والمحيط الهندى وأصبح طريق تجارتها هو الطريق الوحيد المار عبر هذه البحار. وهذا يفسر الأسباب والدوافع

الكامنة وراء محاولة الرومان السيطرة على بلاد اليمن التى كانت ولاتزال فى هذا الطريق.

ملاحظة أخيرة تتعلق بإشتراك قوتين من عرب الأنباط واليهود. فى هذه المسألة لم يخبرنا الكاتب صراحة عن كيفية انضمامهم إلى الحملة المذكورة. فهل التحقوا بها فى ميناء ليوكى كومى النبطى؟ أم أن اليهود على الأقل قدموا مع الحملة من مصر التى كانت تعيش فيها جالية يهودية كبيرة فى ذلك الوقت؟

ملخص القول إن الحملة الرومانية بقيادة أيليوس جاللوس على بلاد العرب فشلت فشلاً ذريعاً فى تحقيق أهدافها للأسباب المتعددة التى ذكرناها، لكنها كما ذكر استرابون، افادتنا لبعض المعلومات الطفيفة عن بلاد العرب. عن هذه المعلومات التى جمعتها الحملة عن بلاد العرب سنخصص بحثنا الثالث عن استرابون وبلاد العرب إن شاء الله.

مصـــادر البحـــث

1- Diodoros siculus, Library of History, L.C.L.

2- Herodotos, Histories, (L.C.L).

3- F. Jacoby, Die Fragmente der Griechischen Historiker, Vol. 3.C.

4- Strabon, Geography, (L.C.L) BK : XVI.

5- Theophrastos, Historia plantorum (L.C.L.).

٢- مراجع البحث العربية

- د. لطفى عبد الوهاب يحيى: العرب فى العصور القديمة، مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الإسلام (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٩).

- د. محمد بيومى مهران: الديانة العربية قبل الإسلام. الاسكندرية.

٣- مراجع البحث الأجنبية

- Bunbury, E.H., A History of Ancient Geography II Vols (Dover - New York, 1959).

- Cary, M. and Haarhoff, T.J., Life and Thought in the Greek and Roman World. (Methuen U.P London, 1966).

- Fraser, P., Ptolemaic Alexandria. Vol. I. (Oxford 1972).

- Grimal, Pierre and Others, Hellenism and the Rise & Rome. (Weidenfeld and Nicolson - London 1968).

_Hourani F., Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabica, Journal of Near Eastern Studies, II - 12 - (1952 - 1953) PP. 295

_ Walton, Brian G. and Higgins William R. The Greek and Roman Worlds, (U.P. of America, 1980).



المكانة الأدبية
لمدينة الإسكندرية فى عهد البطالمة (*)

دكتور/ حسن عون

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية فى المجلد الخامس، ١٩٤٩
ص ص ٨٣ - ١٠١ .



المكانــة الأدبيـــة
لمدينة الإسكندرية في عهد البطالمة

فى شهر ديسمبر من عام ٣٣٢ ق.م دخل مصر الإسكندر الأكبر لطرد الفرس ويضم إلى ملكه أغنى وأخصب قطر فى العالم القديم..

وبعد أن تم له النصر السريع على الفرس توجه إلى الصحراء الغربية ليزور الإله (آمون) - وكان يمثل أكبر إله عند اليونان - وذلك هو ما كان مشهوراً عندهم باسم «زوس Zeus» كما كان يعرف عند الرومان باسم «جوبيتير Jupiter».

ولعل الإسكندر الأكبر كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض سياسى بعيد إذ أنه قبل تلك الزيارة قدَّم إلى آلهة المصريين الضحايا، وأظهر لقسهم إجلالاً واحتراماً كبيرين، وكان ذلك على العكس مما عرف عن الفرس من تخريبهم للمعابد واستهانتهم بديانة المصريين وآلهتهم.

يروى لنا أحد مؤرخى الرومان، وهو المسمى (Quintus Curtius)، أن الإسكندر أثناء عودته من معبد الإله (آمون) عرج على مكان مدينة الإسكندرية وأعجب بجمال الموقع إعجاباً شديداً، ومنذ ذلك الحين ساورته الرغبة فى بناء مدينة تحمل اسمه فى هذا المكان. ولم يكن هناك فى تلك المساحة من الأرض إلا قرية ساحلية صغيرة، يسميها الفراعنة (راكونداه) ويسميها اليونان (راكوتيس Rhacotis)، وكان يسكن هذه القرية بعض الرعاة وصائدى الأسماك، ويذكر لنا هذا المؤرخ نفسه أن الإسكندر وجه نظره أولاً إلى بناء تلك المدينة التى كان

يحلم بها فى الجزيرة الصغيرة المواجهة لذلك المكان والتى كانت تعرف باسم (فاروس Pharos) ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك الرأى، إذ وجد أن بناء مدينة فى هذه الجزيرة الصغيرة لا يمكن أن يحقق أغراضه التى يهدف إليها من عظمة ومجد مرجوين لتلك المدينة المنتظرة، وعلى هذا فقد وجه عنايته إلى الجزء من الأرض المحصور بين البحر وبين بحيرة مريوط. ثم أنه فى عهد البطالمة وصلت جزيرة (فاروس) بالشاطئ، وذلك بواسطة اللسان من الأرض الذى يفصل الآن الميناء الغربى من الميناء الشرقى.

فى عام ٣٣١ ق.م. عهد الإسكندر الأكبر إلى أكبر مهندسيه (دينوقراطيس Dinocrates) مهمة تنفيذ مشروع بناء المدينة، ولقد كان لطبيعة المكان من الناحية الجغرافية أثر فى تخطيطها فجاءت فى أغلب مؤسساتها وفى تقسيمها على شكل مثلثات، وهانحن حتى اليوم لا نزال نرى أثر ذلك فى كثير من شوارعها وبيوتها، وهناك اسطورة يتناقلها مؤرخوا الرومان قد صاحبت تنفيذ مشروع بناء المدينة، فهم يروون أن (دينوقراطيس) خطط المدينة أولاً بواسطة دقيق الشعير، إما لأن ذلك من عادة اليونان فى تخطيط مدنهم، وإما لأن الجير أعوز المهندس إذ ذاك، فجاءت جماعات الطير وأكلت هذا الدقيق، وقد اختلف الناس حينئذ فى تفسير هذه الظاهرة وتباينت فيها آراء المنجمين ففسرها بعضهم تفسيراً يدعو إلى التشاؤم وكاد العمل يقف لولا أن جاء أحد القساوسة المصريين ورأى فى تلك الظاهرة فألاً حسناً إذ قال إن هذه المدينة سيتم بناؤها، وسيرتفع شأنها، وستكون مصدر خير ونعمة لكثير من الناس. ونحن لا تعنينا هذه الأسطورة ولا قيمتها التاريخية بقدر ما يعنينا درس عقلية القدماء وطريقتهم فى فهم بعض الظواهر الطبيعية.

لقد تم بناء الإسكندرية وتركزت فيها بسرعة حركة ثقافية من علم وأدب وفن، ثم أنها قد بلغت أوج عظمتها فى فترة يسيرة من الزمن، ولو كان صاحب المشروع حياً إذ ذاك لوجد أن هذه المدينة قد تجاوزت بكثير ما كان يساوره بالنسبة لها من أحلام. ولقد اتجهت عناية القائمين بالأمر أولاً إلى الناحية الثقافية، ففى نفس الوقت الذى تأسست فيه مدينة الإسكندرية تأسس فيها معهد للعلم فلنترجمه بمدرسة الإسكندرية إن أحببنا أو بجامعة الإسكندرية إن آردنا، وبجانب هذه الجامعة أنشئت دار للكتب ومساكن للطلبة والأساتذة، ومراصد لملاحظة النجوم الكواكب السماوية، ومعامل للعلوم التجريبية.

ولم يجد ملوك البطالمة الأوائل صعوبة فى استدعاء العلماء من مختلف البلاد وفى مختلف الفنون كى يعمروا جامعة الإسكندرية وينشروا لواء معارفهم على مدن العالم المتحضر إذ ذاك. وتلك ظاهرة امتاز بها الفاتحون من اليونان على الرومانيين الفاتحين فيما بعد، فبينما نجد هؤلاء يحاولون جهدهم تركيز سلطانهم السياسى والأدبى فى روما وحدها فيجلبون إليها العلماء من سائر الأقطار، والآثار من سائر الفنون. إذ نرى أولئك يهتمون بإنشاء المدن والمؤسسات العلمية والفنية فى سائر البلاد التى يفتحونها ومن هنا تتحقق العبارة المشهورة التى قالها أحد النقاد الفرنسيين (لقد غزا اليونان الدنيا وأعينهم فى السماء، أما الرومان فقد غزوا الدنيا وأعينهم فى الأرض).

وهناك عوامل عدة قد ساعدت جامعة الإسكندرية على تحقيق أغراضها فى ظرف وجيز من الزمن.

فمن هذه العوامل صلاحية البيئة من الناحية العلمية ومما كانت تمتاز به من حرية واستقلال واستقرار وهنا لا نجد بداً من الإشارة إلى الأثر العميق الذى

تأثرت به جامعة الإسكندرية من جامعات مصر الفرعونية، وخصوصاً جامعة هيليوبوليس وجامعة ممفيس: الأولى بعلومها التجريبية كالحساب والهندسة والطب والفلك، والثانية بعلومها النظرية كالفلسفة والدين. وقد انتقل هذا الاثر إلى جامعة الإسكندرية إما عن طريق علماء اليونان أنفسهم الذين جاءوا من قبل يدرسون العلم فى هاتين الجامعتين، وإما عن طريق قساوسة الفراعنة الذين كانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر بأساتذة العلم فى جامعة الإسكندرية أيام عهدها الأول.

ومن هذه العوامل أيضاً ما عرف عن ملوك البطالمة من كرم وسخاء وخصوصاً بطليموس الأول والثانى والثالث إذ كانت الأرزاق تجرى عن سعة على الطلاب والأساتذة، وكانت الآلاف المؤلفة تنفق على شراء الكتب وآلات الرصد وعمل التجارب. وأن من يدرس بدقة تاريخ هذه الملوك ويدرك مبلغ ماكانوا ينفقونه من مال على الجامعة ولوازمها ومبلغ ماكانوا يقومون به من تشجيع أدبى، ليفهم فى غير عناء إلى أى حد كان هؤلاء الملوك يهدفون إلى أن تسود مدينة الإسكندرية جميع مدن العالم المتحضر إذ ذاك، ولقد وجدت بينهم وبين غيرهم من الملوك المعاصرين شبه منافسة على تلك السيادة الأدبية. وقد أعانهم على ذلك بلا شك ما وجدوه فى مصر من كنوز علمية نفيسة وكنوز مالية خصبة.

وهناك عامل آخر خارجى ولكنه لا يقل أهمية عن العاملين الأولين، ذلك هو الضعف المسيطر على مدن اليونان الجامعية فى ذلك الوقت سواء أكان ذلك فى بلاد اليونان أنفسهم مثل مدينة أتينا أم فى مستعمراتهم المنتشرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مثل مدينة (سييرا كوزا Syracusae) فى جزيرة صقلية

ومدينة «قورين Cyrene» فى شمال أفريقيا، إذ كانت هذه المدن فى شبه انحلال سياسى وليس من شك فى أن الضعف السياسى يصحبه غالباً ضعف أدبى.

كان الإنحلال السياسى إذن فى بلاد اليونان وفى مستعمراتهم عاملاً قوياً من عوامل الرقى الأدبى لمدينة الإسكندرية. وها هى بعض الأمثلة لتتبين إلى أى حد قد استفادت مدينة الإسكندرية من هذا الإنحلال الخارجى: المثال الأول «ديمتريوس الفاليرى Demetrius Phaleri» وهو من رجال السياسة والأدب فى أثينا، كان هذا السياسى خطيباً من أقدر الخطباء ومؤرخاً من أكبر المؤرخين، ولكن جرائم السياسة قد لحقته فثار ضده الاتينيون، واضطهدوه فلم يجد بداً من الفرار ففتحت له مدينة الإسكندرية أبوابها. وقدم إليه بطليموس الأول معونته الأدبية والمادية فأقام فى كنفه حتى مات فى عام ٢٨٣ق.م. أى قبل موت الملك بعام واحد.

ومن هذه الأمثلة أيضاً «كليومين الثالث Cleomenes III» وكان ملكاً لأسبارطه. ولم تكن شهرته فى الأدب أقل من شهرته فى السياسة ولكنه دفع بدوره أيضاً ضحية من ضحايا السياسة وعدم استقرارها فى أسبارطه إذ أنه حين لم يتمكن من مقاومة الثائرين عليه، فر بدوره إلى الإسكندرية ومكث بها حتى نهايته المؤلمة فى عام ٢٢٢ ق.م.

وكذلك نجد «ثيوكريتس Theocritus» وهو من أكبر شعراء اليونان فى العالم القديم، نشأ فى مدينة (سيراكوز) فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. وكانت هذه المدينة مستعمرة يونانية مزدهرة فى جزيرة صقلية.

ويعتبر هذا الشاعر بحق المبتكر الأول لنوع جديد من الشعر عرف بشعر الرعاة. وكان تأثير هذا النوع من الشعر بعيد المدى عند شعراء الرومان

وخصوصاً (فيرجيل Virgilius) أكبر شاعر فى روما. انتقل «تيوكريت» إلى جزيرة (كوس Kos) وهى من جزر إيجه، ثم منها إلى جزيرة سيسل يطلب معونة الملك (هييرون Hieron) ملك سيراكوز Syracusa، ولكن مدينة الإسكندرية كانت أوسع من غيرها رحابا لهؤلاء الأئمة المضطهدين، وملوكها أكثر عوناً ومدداً من غيرهم من الملوك، فجاء «ثيوكريتس» إلى الإسكندرية واستقر بها بعد أن حبب له فيها المقام.

ومن هذه الأمثلة أيضاً (كاليماخوس Callimachos) وهو من الأدباء البارزين والمبتكرين فى العالم القديم، نشأ فى (قورين) وكانت مستعمرة يونانية شمال أفريقيا فى غرب مصر، ثم انتقل إلى أثينا وأقام فيها طويلا، وقد مرت عليه أعوام من الضنك والبؤس لم تنته إلا بإيواء ملك الإسكندرية إياه، فأدخله مكتبة الجامعة كمشرف على جزء كبير منها، وربما كان مديرا عاما للمكتبة بأكملها.

ولم تقف همه ملوك الإسكندرية وعنايتهم عند حد إيواء الفارين من البؤس والمضطهدين من السياسة ولكنهم كانوا يبعثون برسلهم لاستدعاء أئمة العلم وسادة الأدب من مختلف البلاد، باذلين فى سبيل ذلك كثيراً من وسائل الإغراء.

ولعل أوضح مثال لذلك هو (فيليمون Philemon)، وكان شاعراً مسرحياً من أكبر شعراء الكوميديا، نشأ فى (كيليكيا) وكانت مستعمرة يونانية أيضاً فى آسيا الصغرى، دعاه بطليموس إلى الحضور إلى الإسكندرية فلبى الدعوة وجاء ينشر معارفه بين الأساتذة والطلاب، ويعد هولاء وأولئك إلى التوسع فى ميدان الأدب من ناحية النقد والإنتاج.

هؤلاء العلماء وكثير غيرهم يضيق هذا المقال عن التعريف بهم فقد وجدوا فى الإسكندرية مكاناً خصيباً فألقوا فيه بذور معارفهم، فنبتت، وسرعان ما أينعت وأثمرت.

بهذه العوامل مجتمعة قد تركزت فى مدينة الإسكندرية حركة أدبية علمية واسعة النطاق، وبدل أن كانت تتلقى معارف اليونان وتحذو فى الدرس حذوهم، بدأت تنقد هذه المعارف، ثم تؤلف وتبتكر فأصبح لها فى الطب وفى الأدب وفى الفلسفة وفى الرياضة وفى الجغرافيا آراؤها الخاصة ومذاهبها الجديدة. ولهذا فقد سادت مدينة الإسكندرية غيرها من المدن الجامعية المعاصرة، وأصبح يطلق عليها بحق (الوارثة لمدينة أثينا) كما يسميها بعض العلماء الأوروبيين، أو (أثينا الشرق) كما يسميها البعض الآخر.

منذ ثلاثة أعوام ألقى أحد الأساتذة فى جامعة السوربون – وهو اختصاصى فى الآداب القديمة – محاضرة عن الثقافات فى العالم القديم. وعن مراكزها الرئيسية المختلفة، تتلخص هذه المحاضرة فى أن البحر الأبيض المتوسط كان المحور الأساسى لتلك الثقافات وأن مراكزها تدور حوله من وقت إلى آخر فأول مركز ثقافى هو مصر الفرعونية وكانت مظاهر تلك الثقافات ممثلة فى جامعاتها: هليوبوليس – ممفيس – طيبة. ثم اتجه ذلك التيار الثقافى بعد ذلك إلى الغرب فاحتضنته اليونان وتركز أولاً فى مدينة أثينا ثم انتشر بعد ذلك فى المستعمرات اليونانية العديدة.

ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد عاد ذلك التيار مرة أخرى إلى مهده الأول ولكنه تركز هذه المرة فى مدينة الإسكندرية، واستقر بها حتى أوائل القرن الأول من ميلاد المسيح. وأخيراً اتجه مرة ثانية إلى الغرب ولكنه استقر فى

مدينة روما. ودام بها حتى أواخر القرن الرابع بعد الميلاد.

ومن ذلك نرى أن مدينة الإسكندرية قد لعبت فى نشر الثقافة القديمة دوراً له خطره، وإن من يدرس تاريخ روما وتاريخ الأدب اللاتينى ليدرك إلى أى حد كان كتاب الرومان وأدباؤهم متأثرين بثقافة الإسكندرية فى درسهم وفى إنتاجهم.

لم تكن الدراسة فى جامعة الإسكندرية مثل ما نعهده الآن من الدراسة فى الجامعات الحديثة. وها هى صورة من نظام الدراسة فى تلك الجامعة ننقلها عن أحد المؤلفين الفرنسيين المعروف باسم (كوات Cauat) من كتابه (La poésie alexandrine sous les trois primiers Ptolémées) يقول هذا الكاتب بعد أن تكلم طويلاً عن جامعة الإسكندرية.

«ولقد كان أئمة الجامعة أساتذة ومؤلفين فى نفس الوقت. وكان لأشهر العلماء فيها طلاب يفدون ليتلقوا عنهم القواعد العلمية، واشهر علماء النحو فى ذلك العصر كانوا طلاباً طوراً وأساتذة طوراً آخر. وبعضهم قضى كل حياته بين جدران الجامعة ولم تعهد مدرسة أخرى أكثر حرية فى دراستها من الدراسة فى تلك الجامعة، فلم يكن هناك ما نعهده الآن فى مدارسنا الحديثة من الاضطرار فى الحضور ومن المواظبة المنظمة بل كانت هناك أحاديث ذات صبغة جديدة، وأبحاث يشترك فيها الجميع، واحترام طبعى من الصغار إلى الكبار وتمسك وثيق بتقاليد أدبية وعلمية، تلك هى طريقة الدراسة فى الجامعة كما اتصورها، ومع ذلك فقد كانت هناك دروس متوالية لعدد من الشبان، بل ولعدد من الأطفال، وأكثر العلماء شهرة لم يكن يترفع عن إعطاء مثل هذه الدروس ولا عن مخالطة هؤلاء الصغار وتعليمهم بطريقة مباشرة».

هذا هو نظام الدراسة فى جامعة الإسكندرية القديمة كما يصوره لنا هذا الكاتب الفرنسى، ولو أضيف إلى ذلك ما عرف من نظام الحياة فيها وما كان هناك من إنقطاع تام للدرس والتحصيل حيث يقطن الاساتذة والطلاب فى مساكن خاصة وتجرى عليهم الأرزاق عن سعة من خزانة الدولة، وهم بمعزل تام عن مشاغل الحياة ومشاكلها الخارجية. لو اضيف ذلك إلى وصف الكاتب الفرنسى لاستطعنا أن نجد – فى يسر – صورة مشابهة تماماً لجامعة الإسكندرية القديمة فى الجامعة الأزهرية قبل أن ينالها هذا النظام الحديث، أى قبل ربع قرن تقريباً.

وليس من شك فى أن أهم مؤسسة ألحقت بالجامعة، وكان لها أبعد الأثر فى رفع شأنها ونشر لواء المعارف، هى المكتبة، وكان الغرض من إنشائها هو أن تفى بحاجة الأساتذة وتعين الطلاب والباحثين على الدرس والتحصيل. ونحن لا نستطيع أن نمضى فى هذا البحث دون أن نقف وقفة قصيرة عند هذه المكتبة لنتبين قيمة الثروة الأدبية والعلمية التى كانت تحتويها هذه المؤسسة بين جدرانها. كانت مكتبة الإسكندرية القديمة تعتبر أغنى مكتبة فى الدنيا حينذاك. إذ لم يتيسر لأى مكتبة أخرى فى أى بلد آخر أن تجمع من المجلدات العلمية والآثار الفنية بقدر ما جمعت مكتبة الإسكندرية وفى هذه المكتبة كان يجتمع الأدباء والعلماء لتنظيم الكتب ثم شرحها والتعليق عليها. وقد بلغ عدد المجلدات التى كانت تحتوى عليها ٧٠٠,٠٠٠ مجلد. وهذا عدد عظيم جداً إذا قيس بغيره مما كانت تحتوى عليه المكتبات فى ذلك الزمن.

ولكى ندرك قيمة هذه الثروة الفنية، ومبلغ هذا العدد الضخم من المجلدات، يجب أن نقف لحظة نتحدث فيها بلغة الأرقام، ولكن قبل أن نذكر

هذا الإحصاء عما هو موجود الآن من مجلدات فى مكتبات الإسكندرية وفى مكتبات القاهرة، نود أن يعرف القارئ أن مصدرنا فى ذلك هو ما يوجد من إحصاء فى المكتبة العامة لجامعة فاروق.

والفضل فى هذا يرجع أولاً إلى مدير هذه المكتبة، إذ قد أضاف على الاحصاءات الرسيمة ما ورد على المكتبات من مجلدات أخرى، وأظهر من العناية وحسن الاستعداد ما يجعلنا نرجو أن تكون هذه الروح، وذلك الاستعداد متوفرين عند كل المشرفين على دور المكتبات العامة.

يوجد فى الإسكندرية الآن المكتبة العامة ومكتبات كليات جامعة فاروق الأول.

ثم مكتبة المتحف اليونانى الرومانى وأخيراً مكتبة البلدية.

أما المكتبة العامة ومكتبات كليات الجامعة فهى تضم ١٠٠,٠٠٠ مجلد موزعة على حسب الترتيب الآتى:

		باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الأوروبية	المجموع الكلى
١	المكتبة العامة	٢١٥٠٠ مجلد	٥٢٠٠٠ مجلد	٧٣٥٠٠ مجلد
٢	مكتبة كلية الآداب	٢٥٠٠ مجلد	٥٠٠٠ مجلد	٧٥٠٠ مجلد
٣	مكتبة كلية التجارة	٢٠٠ مجلد	٤٥٠٠ مجلد	٤٧٠٠ مجلد
٤	مكتبة كلية الحقوق	١٦٠٠ مجلد	٢٥٠٠ مجلد	٤١٠٠ مجلد
٥	مكتبة كلية الهندسة	٥٠٠ مجلد	٣٥٠٠ مجلد	٤٠٠٠ مجلد
٦	مكتبة كلية الزراعة	٤٠٠ مجلد	٢٠٠٠ مجلد	٢٤٠٠ مجلد
٧	مكتبة كلية العلوم	١٠٠ مجلد	٣٧٠٠ مجلد	٣٨٠٠ مجلد
		٢٦٨٠٠ مجلد	٧٣٢٠٠ مجلد	١٠٠٠٠٠ مجلد

وأمـا مكتبـة المتـحف اليـونانى الرومانى فـيـوجد بهـا ٥٠٠٠ مـجلد كلهـا باللغات الأوروبية.

وأما مكتبة البلدية ففيها ٦١٠٨٨ مجلداً، منها ٢٧٦٩٣ مجلداً باللغة العربية واللغات الشرقية و ٣٣٣٩٥ مجلداً باللغات الأوروبية.

ومعنى هذا أن كل مافى مدينة الإسكندرية من مكتبات عامة لا يحتوى إلا على ١٦٦٠٨٨ مـجلداً أى مـا يقل عن ١/٤ مـجلدات مكتـبـة الإسكندرية القديمة.

ويوجد فى القاهرة مكتبتان عامتان: المكتبة العامة لجامعة فؤاد الأول وفروعها فى مختلف الكليات، ثم دار الكتب المصرية العامة.

أما مكتبة جامعة فؤاد الأول وفروعها فهى تحتوى على ٢٧٩٦٨٥ مجلداً موزعة كما يأتى:

		باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الأوروبية	المجموع الكلى
١	المكتبة العامة	٣٧٢٨٢ مجلد	١٣٢٣٢١ مجلد	١٦٩٦٠٣ مجلد
٢	مكتبة كلية الآداب	٣٧٢٨٢ مجلد	١٣٢٣٢١ مجلد	١٦٩٦٠٣ مجلد
٣	مكتبة كلية التجارة	٢٣٤١ مجلد	١١٧٣٣ مجلد	١٤٠٧٤ مجلد
٤	مكتبة كلية الحقوق	٦٢٢٨ مجلد	١٧٢٤٤ مجلد	٢٣٤٧٢ مجلد
٥	مكتبة كلية الهندسة	٥٩٨٨ مجلد	٣٤٥٣٢ مجلد	٤٠٥٢٠ مجلد
٦	مكتبة كلية الزراعة	٢٠١٠ مجلد	٨٧٠٠ مجلد	١٠٧١٠ مجلد
٧	مكتبة كلية العلوم	١٢٢٣ مجلد	١٨٥٢١ مجلد	١٨٧٤٤ مجلد
٨	مكتبة الأحياء المائية	١٣ مجلد	٢٥٤٩ مجلد	٢٥٦٢ مجلد
		٥٤٠٨٥ مجلد	٢٢٥٦٠٠ مجلد	٢٧٩٦٨٥ مجلد

ومعنى هذا أن مكتبة جامعة فؤاد الأول بما فيها من مكتبات كلياتها المختلفة لا يزيد عدد مجلداتها عن ١/٣ مجلدات مكتبة الإسكندرية القديمة إلا قليلاً.

أما دار الكتب المصرية العامة فهى تحتوى على ١٧٣, ٥٩٥ مجلداً، منها ٣٦٠, ٢٢٨ باللغة العربية واللغات الشرقية، و٣٦٦,٨١٣ باللغات الأوروبية.

ومعنى هذا أيضاً أنها تقل عن مكتبة الإسكندرية بمقدار ١٠٤,٨٢٧ مجلداً، وأخيراً فكل ما أحصيناه فى جميع هذه المكتبات من مجلدات لا يزيد عن ١,٠٤٠,٩٤٦ مجلداً، وبالتالى فهو لا يزيدعن مجلدات مكتبة الإسكندرية القديمة إلا بمقدار ٤٣٠,٩٤٦ مجلداً.

ولنعد الآن بعد هذا الإحصاء إلى مكتبة الإسكندرية القديمة: هذه المجلدات العديدة التى جمعت بفضل عناية الملوك من مختلف بلاد العالم القديم، كانت موزعة بين مؤسستين: أما المؤسسة الأولى، وهى جزء من الجامعة، فكانت تعتبر المكتبة الرئيسية، وتحتوى على ٤٠٠,٠٠٠ مجلد.

وأما المؤسسة الثانية، وهى جزء من معبد الآله «سيرابيس – Sérapis» فكانت تعتبر المكتبة الفرعية، تحتوى على ٣٠٠,٠٠٠ مجلد. وقد زاد عدد مجلدات هذه المكتبة الفرعية زيادة كبيرة بواسطة المكتبة التى نقلها انطونيوس من مدينة آسيا الصغرى، كانت تدعى فى ذلك الوقت برجامم – Pergamum، وأهداها إلى كليوباترة.

ولقد بلغت مكتبة الإسكندرية بفرعيها من الثروة العلمية، ومن دقة النظام، ومن حسن الإدارة، ومن كثرة النفقات درجة لاتقارن فى ذلك العالم القديم، حتى لقد اتهم الكاتب المشهور «سنيكا – Seneca» وهو أحد أدباء الرومان ومن

أكبر فلاسفتهم، الغاية من تلك المكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهراً من مظاهر البذخ والثراء لملوك الإسكندرية. ولو أن هذا الكاتب اللاتينى عاش ربع قرن فقط أكثر مما عاش، لرأى بنفسه الخدمات العلمية الجليلة التى أدتها البقية الباقية من مكتبة الإسكندرية إلى مكتبة روما: ذلك أنه فى أثناء حكم الامبراطور «دومتيانس Domitianus» شبت النار فى روما، وكان مما ذهب ضحية لذلك الحريق المكتبات العامة فى العاصمة، ولم يجد الامبراطور حينئذ بدأ من أن يرسل بعثة خاصة إلى الإسكندرية مهمتها الوقوف على مافى مكتبتها من مجلدات، ثم نسخ ما يمكن نسخه منها، وتصحيح مابقى لديهم من كتب، لكى يكون ذلك نواة لاعادة مكتبة روما، ولم يكن فى الإسكندرية حينئذ إلا المكتبة الفرعية فقط.

استمرت مكتبة الإسكندرية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حتى حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد وهى تمثل جزءاً كبيراً من النشاط العلمى والثقافة الإنسانية، لا فى جامعة الإسكندرية وحدها بل فى العالم المتحضر إذ ذاك.

ولقد أدرك ملوك البطالمة قيمة هذه المهمة فكانوا يختارون لإدارة شئونها وللإشراف عليها أكبر أساتذة العلم وأئمة الأدب كى يزيدوا فى ثروتها العلمية بما ينتجونه من مؤلفات، وفى ثروتها الأدبية بما كان لهم من شهره ومكانة بين المعاصرين.

وأول من عين لإدارة شئون هذا المكتبة هو «زينودوتس Zenodotos» من مدينة كانت تعرف قديماً باسم "Ephesus" فى آسيا الصغرى، وقد اشتهر بمكانته فى الشعر القصصى وكان أول أديب يتصدى لنقد أشعار «هوميروس - Homerus» الشاعر اليونانى العظيم.

ثم جاء من بعده «أبوللونيوس Apollonius» وقد نشأ فى الإسكندرية ثم ذهب إلى جزيرة رودس على أثر خلاف بينه وبين «كاليماخوس» ولكنه عاد ثانية إلى وطنه كى يتولى شئون المكتبة، وينتج للأدب كتباً عديدة.

وبعد هذين الأديبين جاء العالم الكبير المدهش «إراتوستينيس Eratosthenes» الذى ملأت شهرته الدنيا وغزت معارفه الأرض فكان يعتبر وحده دائرة معارف، وهو فوق مكانته فى الفلسفة، وفى الفلك، وفى الجغرافيا قد كتب كثيراً فى النقد وفى الأدب.

وهكذا قد توالى فى الإشراف على مكتبة الإسكندرية عالم بعد عالم أو أديب بعد أديب حتى جاء قيصر إلى الإسكندرية ممثلاً لسلطان روما على رأس كتائبه الرومانية.

وفى ذلك الوقت كان الخلاف شديداً بين كليوباترة وأخيها على ملك مصر، وأعلن قيصر بأنه إنما جاء لحسم النزاع وللتوفيق بين المتخاصمين ولكنه أظهر من التحيز لكليوباتره ما اعتبره أهل الإسكندرية ماساً بكرامتهم فأجمعوا أمرهم، وثارت ثائرتهم، وأحاطوا بقيصر وجنوده، وكاد الأمر ينتهى لهم، لولا استماتة قيصر والتجاؤه إلى أعمال التخريب فكان مما صنع أن أعطى الأوامر لجنده بحرق الأسطول المصرى، وكان مرابطاً فى مياه الإسكندرية قريباً من الحى الآهل بالجامعة، وحصل هذا فى عام ٤٧ق.م انتقل اللهب من الأسطول إلى المكتبة الرئيسية فأتى عليها وذهبت ضحيته ثروة علمية وأدبية لا تعوض، وكانت هذه أولى وأعظم النكبات التى اصيبت بها جامعة الإسكندرية. ولقد روى كتاب الرومان أنفسهم هذا الحادث بشئ من الأسف.

بقيت المكتبة الفرعية وحدها، وكانت كما ذكرنا جزء من معبد الآلهة

«سيرابيس». ونستطيع أن نعتبر هذا الحادث حداً فاصلاً بين عهدين متباينين: فى العهد الأول منهما كانت الإسكندرية تعتبر أهم مركز للنشاط الثقافى فى العالم المتحضر إذ ذاك، وفى الثانى منهما بدأ نجم الإسكندرية يأفل وسيادتها الأدبية تضعف، إذ أن روما بدأت تستلفت الأنظار، وتشغل رجال العلم والأدب كما كانت تشغل رجال السياسة والحكم، ومع ذلك فقد نهضت الإسكندرية فى عهد كليوباترة واستطاعت أن تسترجع مجدها السياسى، وتفرض سلطاتها على الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، فكانت أكبر منافس لروما فى سيادة العالم إذ ذاك، ولكننا إذ نذكر هذا نقرر فى نفس الوقت أن هذه النهضة كانت أشبه بنهضة المحتضر، فكان تتابع الأحداث السياسية يستنفد مجهود الدولة، ولذا لم يفكر أولوا الأمر فى إعادة المكتبة، وبقيت الجامعة بما فيها من طلاب وأساتذة معتمدة على المكتبة الفرعية فقط.

استمرت هذه المكتبة بدورها تمثل نشاطاً أدبياً محدوداً حتى عام ٣٨٩ بعد الميلاد، وحينئذ قامت فى الإسكندرية ثورة داخلية عنيفة نستطيع أن نسميها ثورة دينية، إذ أنها كانت بين المسيحية والوثنية. انتهت هذه الثورة أيضاً بأعمال التدمير، وكانت المكتبة ومعها المعبد الدينى ضحية لذلك التخريب.

لقد كان هذا الحادث مثاراً لخلاف طويل وآراء متباينة بين المؤرخين فمنهم من ينسبه إلى العرب أيام فتحهم لمصر، ومنهم من ينسبه إلى المسيحيين أثناء الثورة التى أشرنا إليها، ونحن أمام هذا الخلاف لانستطيع أن نمضى سريعاً دون إبداء مالدينا من وجهة نظر.

ونحن إذ نساهم برأى فى هذا الخلاف إنما نعتمد فى ذلك على تتبع الحوادث وفهم الوقائع التاريخية بعد ربطها جميعاً بعضها ببعض، ولسنا نبغى

من وراء هذا غير الإنصاف العلمى.

إن من ينسب هذا الحادث، من المؤرخين إلى العرب لا يعتمد فى ذلك على دليل مادى، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نذكر من الأدلة ما يكفى للبرهنة على أن ضياع هذه المكتبة كان نتيجة لثورة المسيحيين ضد الوثنيين.

أولاً: كان طابع الثورة كما رأينا طابعاً دينياً، وكان أهم مظاهرها فى المدينة هو التخريب، وليس من شك فى أن الهدف الأول لذلك التخريب هو معابد الآلهة الوثنية، ثم تأتى بعد ذلك معاهد العلم التى كانت تدرس فيها تعاليم الديانة الوثنية، أو تحفظ فيها آثار تلك التعاليم، واذن فقد كانت مكتبة الإسكندرية الثانية هدفاً مزدوجاً لتلك الثورة، إذ أنها كانت تكوّن جزءاً من معبد الآله «سيرابيس»، أكبر إله وثنى إذ ذاك، وكانت فى نفس الوقت مستودعاً هاماً لآثار تلك الديانة الوثنية. ثم أن أعمال التخريب هذه لم تقف عند هذا المعبد وحده، بل تناولت غيره من المعابد الوثنية فى سائر المدن المصرية، من الإسكندرية حتى جزيرة الفيلة، فى أقصى الحدود المصرية من الجنوب.

وإنه لمن الحق أن نقرر أن هذه الأعمال كانت تصدر عن المسيحيين بدافع الإيمان الكامل بمبادئ المسيحية، والعمل على نشرها، ولن يتم لهم ذلك إلا إذا زالت آثار الوثنية التى لم تكن فى عقيدتهم إلا كفراً وضلالاً.

ثانياً: لم نعثر حتى اليوم على أثر يثبت أن هذه المكتبة كانت موجودة فى الفترة التى بين الثورة المسيحية فى الإسكندرية وفتح العرب لمصر أيام عمر بن الخطاب.

ثالثاً: أن ما عرف عن سياسة العرب فى فتوحهم لا يدل على أنهم كانوا يلجئون إلى أعمال التخريب فى المعابد، بل على العكس كانوا يحاولون جهدهم الإستيلاء على الكنائس والمعابد سليمة كى تحول فيما بعد إلى مساجد، وقد رأينا من آثار ذلك فى بلاد الشام وفى القسطنطينية، وفى الأندلس ولعل هذا المظهر وحده هو الذى دعا كتاب الغرب إلى أن يقفوا من ذلك موقف الحيرة والتردد.

هذه هى النهاية المحزنة لمكتبة الإسكندرية بفرعيها، غير أن ذلك لم ينقص شيئاً من القدر العظيم الذى ساهمت به فى رفع مكانة الإسكندرية الأدبية أيام البطالمة، وكذلك لم تنس الأجيال القادمة ذلك الدور الهام الذى قامت به على مسرح الثقافة الإنسانية.

لقد أشرنا فيما مضى إلى أن حضارة الإسكندرية قامت على أساس حضارتين قديمتين. أولاهما عن الحضارة المصرية، والأخرى هى الحضارة اليونانية.

وفى الحق أن جامعة الإسكندرية قد استطاعت أن تمزج هاتين الحضارتين وتستخلص منهما حضارة جديدة فى أفكارها ومظاهرها، ولذا فقد نسبها العلماء إلى الإسكندرية واستمروا يطلقون عليها «الثقافة الإسكندرانية».

هذه الثقافة الجديدة فتحت للعلماء آفاقاً واسعة فى ميادين المعارف الإنسانية، فهم بعد أن فهموا القديم نقدوه، ثم أنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل ابتكروا وأنتجوا. وهكذا أصبح لجامعة الإسكندرية فى الدراسة اتجاهات اخرى. وفى الانتاج مذاهب خاصة، وذلك بفضل ما وصل إليه العلماء من اكتشاف، سواء أكان فى ميدان المعرفة النظرية كالأدب والفلسفة، والرياضة، والجغرافيا،

أم فى ميدان المعرفة العملية كالطب، والهندسة.

وليس من السهل أن نرسم في هذه العجالة الخطوط الأساسية لكل هذه العلوم، ثم نبين مدى ما تمتاز به ثقافة الإسكندرية فى كل هذه النواحى، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نمضى سريعاً دون أن نقف وقفة يسيرة فى أحد هذه الميادين العلمية فنحلله لنتبين مبلغ نشاط جامعة الإسكندرية فى هذه الناحية ومقدار ما امتازت به من اتجاهات ومذاهب، ونعنى بذلك، الميدان الأدبى بمعناه الضيق، أى فن القول.

وإذا كنا قد تخيرنا هذا الميدان من ميادين المعرفة عند القدماء ليكون نموذجاً لغيره فذلك لأنه فى الواقع يعتبر أهم مظهر من مظاهر الثقافة عند القدماء. كانت الغاية الأولى من الأدب عند اليونان هى خدمة السياسة، والدين، والمجتمع وما عدا هذه النواحى الثلاث فكان يعتبر شيئاً ثانوياً فى حياة الأدب. وعلى هذا الأساس كان مظهر رقى الأدب، وعظمة الأدباء. جاءت من بعد ذلك جامعة الإسكندرية فرفضت هذه القواعد. وحطمت تلك الأغلال، واستكثرت على المخيلة الإنسانية والإحساس الفنى أن يقفا فى هذه الدائرة الضيقة المحدودة، فسمت بالأدب إلى الأجواء العليا وذهبت به إلى الافاق البعيدة، وجعلته يشرف على كل فروع المعارف الإنسانية، فيعجب بالجمال فى كل منها، ويساهم بقسط فيما ينتج بعد ذلك من ثمر.

من ذلك أن أصبح الحب الموضوع الرئيسى للأدب عند أدباء الإسكندرية فتناولوه بالوصف والتحليل، وأكثروا من القول فيه، حتى لقد كاد يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بنتاج خيال الأدباء.

لقد أدرك هؤلاء الأدباء القيمة التى يمكن أن يكتسبها الأدب، والشعر بوجه

خاص، حين يستعيض عن موضوعات البطولة، التى لا يحس بها ولا يدركها إلا طبقة من الناس محدودة ممتازة، بموضوعات الحب التى يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب، وفى ذلك بلاشك، كسب عظيم للأدب. ثم انهم فوق ذلك قد حاولوا أيضاً، ونجحوا فى تلك المحاولة إلى حد ما، أن يدخلوا العلم فى الشعر، فكان ذلك بمثابة منبع خصيب، ومدد جديد، ولعلهم أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضوعاته القديمة، وملّ كل مصطلحاته الأولى، وأصبح يبدو للناس كما يبدو الرجل الهرم، فأرادوا بذلك أن يعيدوا إليه شيئاً من الفتوة، ويستكثروا من ثروته اللغوية، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا النوع من الشعر ميداناً يتسابق فيه الشعراء.

نعم، قد اضعف هذا الإتجاه فيما بعد، القيمة الأدبية للشعر، وذلك حين استحال إلى نوع من النظم الجاف، الذى يتركز على الفكرة الخالصة، ويبعد بعداً تاماً عن الخيال، والعواطف، والإحساس. وهنا يجب أن نستدرك سريعاً فنقرر أن أدباء الإسكندرية لم يعرفوا هذه المرحلة بعد، ولم يُدرك عصر الإسكندرية، بل ولا عصر روما من بعدها إلا عظمة هذا النوع من الشعر ومجده.

وإنه لمن المؤسف حقاً أن لم يترك أدباء الإسكندرية آثاراً كبيرة، ولم تبق لنا الاحداث إلا بعض قطع جميلة، ولكنهم مع ذلك قد تركوا كثيراً من التلاميذ الذين اعتنقوا مذهبهم، وواصلوا عملهم ثم نقلوا عنهم، هؤلاء التلاميذ هم أدباء الرومان، ومن هنا ندرك فى يسر مدى صدق هذا التعبير..

(Rome était l'héritier d'Alexandria, comme Alexandrie était l'héritier d'Athénes).

أى أن (روما كانت وارثة الإسكندرية كما أن الإسكندرية كانت وارثة لأثينا) وكذلك نستطيع أن ندرك قيمة هذه العبارة المأثورة التى يرددها الكاتب الفرنسى

"Couat" فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه ص٥١٧

"Les Alexandrins ont rendu à la Grèce héroïque le service que rendirent les Latins aux Alexandrins eux-mêmes;c'est par ceux-ci ou par leurs imitateurs que nous le connaissons".

أى (لقد أدى الإسكندريون إلى اليونان الإبطال نفس الخدمة التى أداها اللاتينيون إلى الإسكندريين أنفسهم، ونحن لم نعرف هؤلاء الإسكندريين إلا بواسطة اللاتينيين أو بواسطة من قلدوهم) .

ومن هنا ندرك أيضاً مبلغ الحاجة لمعرفة الثقافة الرومانية القديمة بالنسبة للمصريين، فمعارفنا وآثارنا وثقافاتنا فى أيام نهضة الإسكندرية لاتزال تتراءى لنا كحلقة مفقودة من سلسلة حضارتنا الطويلة. ولن توجد هذه الحلقة إلا بدراسة الثقافة الرومانية القديمة.